



إلياس

بحث في تاريخ الخير والشر وتمييز الإنسان
بينهما من مطلع التاريخ إلى اليوم

عباس محمود العقاد



المصنوعان : إبليس .

المؤلف : عباس محمود العقاد .

إشراف عام : داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر : الطبعة الثالثة أغسطس 2005 م .

رقم الإيداع : 2003/ 8663

التسجيل الدولي : ISBN 977-14-9133-6

الإدارة العامة للنشر : 21 ش احمد عرابي - المنهجين - الجيزة
ت : 3472864 - (02) 3462576 فاكس : 346434 - (02) 346434
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر : publishing@nahdetmisr.com

الطبع : 80 المنطلة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت : 8330287 - (02) 8330289 - 8330294 فاكس :
البريد الإلكتروني للطبع : press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي : 18 ش كامل صيفي - الفجالة -
المنصورة - من - ب : 96 الفجالة - القاهرة .
ت : 5909827 - (02) 5908895 - 5903395 فاكس : (02)

مركز خدمة العملاء : الرقم الجاني : 08002276222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع : sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية : 408 طريق المروة (رشدي)
ت : 5462090 - (03)
مركز التوزيع بالمنصورة : 47 شارع عبد السلام عسار
ت : 2259675 - (050)

موقع الشركة على الإنترنت : www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت : www.enahda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1998

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بنية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة خير

يوم عرف الإنسان الشيطان كانت فاتحة خير .

وهي كلمة رائقة معجبة ، تروع السامع وتستحق في بعض الأذواق أن يقال ولو تسامع القائلون والسامعون في بعض الحقيقة طلباً لبلاغة المجاز .

ولكنها في الواقع هي الحقيقة في بساطتها الصادقة التي لا مجاز في لفظها ولا في معناها ، ولا تسامح في مدلولها عند سامع ولا قائل ، بل هي من قبيل الحقائق الرياضية التي تثبت بكل برهان وتقوم الشواهد عليها في كل مكان .

فقد كانت معرفة الشيطان فاتحة التمييز بين الخير والشر ، ولم يكن بين الخير والشر من تمييز قبل أن يعرف الشيطان بصفاته وأعماله وضروب قدرته وخفايا مقاصده ونياته .

كان ظلام لا تمييز فيه بين طيب وخبيث ، ولا بين حسن وقبيح ، فلما ميز الإنسان النور عرف الظلام ، ولما استطاع إدراك الصباح استطاع أن يعارضه بالليل ، وبالمساء .

كانت الدنيا أهلاً لكل عمل يصدر منها ، ولم يكن بين أعمالها الحسن وأعمالها القبيح من فارق إلا أن هذا يسر وهذا يسوء ، وإلا أن هذا يؤمن وهذا يخاف ، أما أن هذا جائز وهذا غير جائز في ميزان الأخلاق فلم يكن له مدلول في الكلام ، ولم يكن له — من باب أولى — مدلول في الذهن والوجدان .

وكانت القدرة هي كل شيء .

فلما عرف الإنسان كيف يذم القدرة ويعيبها عرف القدرة التي تجعل بالرب المعبود والقدرة التي لا تنسب إليه ولكنها تنسب إلى ضده ونقيضه . وهو الشيطان .

وكانت فاتحة خير لا شك فيه .

كانت فاتحة خير بغير مجاز وبغير تسامح في التعبير .

وكانت للإنسان عين يعرف بها الظلام ، لأنها عرفت النور وخرجت من غيابة الظلمات التي كانت مطبقة عليه .

فتاريخ الإنسان في أخلاقه الحية لا ينفصل من تاريخ الشيطان .

وأوله هذا التمييز بين الخير والشر .

ولكنه الأول في طريق طويل لم يبلغ نهاية مطافه .

فبعد التمييز بين الخير والشر خطوة أخرى ألزم من تلك الخطوة الأولى في تاريخ الأخلاق الحية .

وتلك هي معرفة الخير الصميم .

فقد كان على الإنسان أن يعرف حقيقة الخير ليعمله على علم وبصيرة .

فليس الخير خلوا من الشر وكفى .

وليس الخير ابتعادا عن الشر وكفى .

وليس الخير عجزا عن الشر وكفى .

وليس الخير مخالفة للشر وكفى .

كلا . بل الخير شيء بذاته وليس قصاره أنه امتناع من شيء سواه .

الخير هو القدرة على الحسن مع القدرة على الفبح ، وهو الاختيار المطلوب بعد التمييز بين القدرتين .

ولهذا عرفنا من تاريخ الشيطان أنه سقط لأنه أنف من تفضيل آدم عليه وعلى الجن والملائكة أجمعين .

وإنما فضل آدم عليهم لأنه عرضة للخير والشر ، ولأنه مطالب بالخيرات وهو عمتحن بالشور .

فضل على الملائكة الذين لا يصنعون الشر لأنهم بمنجاة من غوايته ؛ وفضل على الجن الذين لا يختارون بين نقيضين .

ومن تلك الآونة عرفت وظيفة الشيطان في هذا العالم وعرفت معها فضيلة الإنسان .

فإنما وظيفة الشيطان أن يشبث عجز الإنسان أمام الغواية والفتنة ، وأن يمتحن مشيئته وهو يتردد بين الخير والشر والمباح والحرام .

وإنما فضيلة الإنسان أن يصنع خيرا وللشر عنده غواية وله في نفسه فتنة ، ولولا ذلك لما كان له فضل على الملائكة ولا على الجن .

لا جرم كان تاريخ الشيطان تاريخا للأخلاق الحية في وجدان آدم وبنيه .

وتمتحن الأخلاق الحية بمحنة المعرفة والجهل كما تمتحن بمحنة الخير والشر والفضيلة والرذيلة .

فهما نتخيل من مخلوق قابل لأن يعرف بعد جهل ويدرك بعد قصور فليس - غير الإنسان - مصداق لذلك المخلوق .

ليست الملائكة ولا الجن في صورتها الحية مخلوقات نامية في معرفتها ، عالمة ما تعلمه بعد جهله ، متقدمة من الطقولة إلى الرشد إلى غاية المدى المقدر لكل مخلوق . ولكنها في صورتها تعلم ما تعلمه كأنه من خصائص معدنها التي لا تفارقها ، فلا اجتهد لها فيما تعلم ، ولا فوات على اجتهداها فيما تجهل ، وكل ما أوتيته من علم فلا حيلة لها ولا حول فيه ، كلمعان النور ووهجان النار ، ولألاء الجوهر الصافي وجريان الماء وخفقان الهواء .

ولا كذلك سليل التراب . إنه ليعلم حتى لتعجب كيف علم ، وإنه ليجهل حتى لتعجب كيف جهل ، ومن كان قابلا لأن يأتي بالعجب في علمه وجهله فهو مسئول عن هذا وذاك .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٣٠ - ٣٤) .

فليست القداسة أن تكون نوراً وأنت نور ، وليس الفخار أن تكون ناراً وأنت نار .
وإنما القداسة والفخار أن تكون نوراً وناراً وأنت تراب ، وأن تسبح وتقدس وأنت
قادر على الفساد والعدوان .

وكلما ذكرت الأخلاق الحية فقد ذكر تاريخ الشيطان في ثوب الحياة ، وقد ذكر
تاريخ الغواية والحرية في المطاوعة والاعتصام ، وتلك هي الأخلاق الحية كما تعيش
في اللحم والدم وفي القيم والمزايا . فأما الأخلاق في صفحات الورق وفي
مصطلحات الباحثين فهي كلمات وحروف وأصداً .

ولم يوجد النوع البشرى بصفاته وأخلاقه ليكتبها سطوراً على صفحات ،
ويجمعها أطروحة في قاعة درس أو سفراً على الرف إلى جانب أسفار .

ولكنه وجد بصفاته وأخلاقه ليحيها ويعيش بين حقائقها ويعطيها الأسماء
التي تدل على تلك الحقائق كما يستقبلها بحسه وشعوره ويواجهها برجائه وخوفه
ويقبله ونفوره ، وينادي بالاسم من هذه الأسماء فلا يفهمه كما تفهم الكلمة عند
المراجعة في القواميس ، بل يفهمها حباً وبغضاً ، وغبطة وندماً ، ورضواناً وسخطاً ،
وحركة تنبض بها العروق وسراً يختلج في الأعماق .

وهكذا ينطبع الحى على صفاته وأخلاقه ، وهكذا تتعارف عليها الأم وهي تحيا
وتعتلج بالحياة ، وهكذا تضطرب بين الأكوان التي لا تحصرها الأوراق ولا تحدها
الحروف ولا تحتويها العقول ، بل تنجيء العقول طارئة عليها وضيقة في رحابها ، وقد
مضى عليها في مكانها أدهار بعد أدهار ، وأسماء بعد أسماء ، ولغات بعد لغات .

الشيطان!

أى مجموعة من الأسفار تؤدي للضمير ما تؤديه هذه الكلمة بقارعة واحدة تنفذ
من الأذان إلى الأعماق .

والى اليوم يكتب الباحثون ألف مذهب ومذهب ، ويلحقون بها ألف «لوجى»
ولوجى» على غرار السيكلوجى والبيولوجى والميثولوجى وغيرها من اللواحق في
الأواخر على اختلاف الصيغ واللغات .

إلى اليوم يفرقون بين الصفات والأخلاق بهذه المصطلحات فلا يبلغون بها فى
الحس ولا فى الذهن ما بلغه المتكلمون بلغة الحياة ولغة الفطرة ولغة «الهيروغليفيه»
التي تسبق كل كتابة وتلحق بكل كتابة إلى آخر الزمان .

وقد سمعنا عن الصفات الإلهية ، والصفات الملكية ، والصفات الشيطانية ، والصفات الإنسانية ، والصفات البهيمية ، والصفات السبعية ، فمن لم يفهم هذه العناوين بمثلولاتها الحية فما هو بفاهم شيئا من قوارق الأخلاق يشرحها له ألف عالم ويسجلها له ألف كتاب .

ولمن يشاء أن يرفع هذه الكلمات ويضع في مواضعها كلمات الاصطلاح اللغوي أو الفلسفي من قبيل الأخلاق المثالية والأخلاق الاجتماعية والأخلاق النفعية وأخلاق التقدميين وأخلاق المحافظين ، وما أشبه هذه الكلمات والمصطلحات ، فإنه لا يحس منها إلا بطاقات معلقة على واجهات أو شواخص ولا نبض فيها ولا دم ولا حراك . ولكنه لأول وهلة يسمع الصفات الإلهية فيفهم أنها أعلى الصفات ويحس أنه يرتفع بالاتجاه إليها والرجاء فيها إلى أعلى عليين ، ويستشرف لها بقلبه ويتفتح لها بمغالب سريرته ، ويعرفها حقيقة حية ولا يكون قصاراه من معرفتها أنها مادة في معجم أو عنوان على مذهب أو إشارة مرور إلى حيث يسير أو لا يسير .

ولأول وهلة يسمع الصفات الملكية أو صفات الملائكة فيفهم أنها الطيبة والطهارة والحب والسلامة ، ويقابلها في الوقت نفسه بالحنين إليها لسلامتها ووداعتها والعطف عليها لخفاء الشر عليها واحتجاب أساليب الكيد والخداع عنها .

ولأول وهلة يسمع الصفات الإنسانية فيعرف منها ما يناقض البهيمية والسبعية ويقابل الإلهية والملكية ، ويعرف في الوقت نفسه أن الإنسان قابل للطموح إلى ما يعلو عليه والهبوط إلى ما ينحدر دونه من صفات الكائنات جمعاء .

ولأول وهلة يسمع الصفات الشيطانية فيفهم أنه في موقف احتراس وحذر وإن لم يخل من تطلع في أحيان ومن إعجاب في أحيان أخرى ، ولا يضطر إلى مراجعة اللغة أو مراجعة الحكمة ليفهم ما يحذره من الشيطان وما يستقبله منه بالفكر أو الوجدان ، فإن هذه الكلمة تقع في موقعها عنده كأنها نقلت إليه الشيء نفسه محسوسا ملموسا مدروسا ولم تنقله منه بإشارة أو عنوان .

وقس على ذلك ما يفهمه من كلمات الصفات البهيمية أو الصفات السبعية ، فإنها كذلك تنقل إليه أشياء وأحياء ولا تنقل إليه حروفا وكلمات .

إن خالق الكون لم يرد بإعطاء الناس حياتهم أن يعطيهم قاموسا أو موسوعة من العناوين والمصطلحات ، ففي وسعهم هم أن يعطوا أنفسهم هذه القواميس ، وقد أعطوا

أنفسهم هذه لقواميس فعلا فإذا هي أكثر الأشياء اختلافا بين قبيل وقبيل وبين أمة وأمة ، وإذا هي برج بابل يمتد على كرة الأرض ولا يزال في حاجة إلى ترجمان .
ولو كانت هذه المدلولات في اللغات هي الحقائق المقصودة لما كان للمدلول الواحد ألف كلمة في كل لسان .

ولكن هذا النوع الإنساني تلقى وجوده من خالقه حياة تجيش في ضمائره وفيما حوله بالحقائق الحية ، كائنا ما كانت أصداؤها في عالم الحروف والرموز والإشارات والكلمات والطلاسم أو في «الهيروغليفية الكونية» على الإجمال .
ومن شاء فليبادل إن كانت له الجرأة!

ومن شاء واستطاع فليعد بالإنسان إلى أوله لينتزع من ذاكرته ووجدانه كل ما أحسه وتعلمه من كلمة الشيطان أو كلمة الملك أو كلمة الخطيئة أو كلمة العصيان ، وليضع في مكانها ما يقترحه في تصريف اللغة ومصطلحاتها مفسرة وميسرة محكمة مقسمة ، ولينظر ماذا صنع الإنسان فيما مضى وما يصنع به فيما بعد . .
فإنه قاتله وملقيه في مقبرة في قاموسه الجليل .

من كانت له الجرأة ، وكانت لديه القدرة ، فليبادل ولينظر فرق ما بين كلماته ومصطلحاته ومدلولاته وبين هذه «الهيروغليفية» الكونية التي هي الكلام وهي متكلموه وهي المحسون به وفاهموه .

وليقف خاشعا مستعيذا «بالشيطان» من الغرور .
وليرجع في أمان هذه «المعوضة» إلى تاريخ الشيطان ليعلم منه تاريخ الأخلاق الحية وتاريخ الإنسانية الخالدة .

فإذا كان لا يدرك تاريخ الأخلاق الإنسانية حقا وصدقا إلا من تاريخ الشيطان فلا ينكرن هذا الاسم ولا ينكرن وجوده من باب أولى .
إنه وجود أرسخ من وجود الإنسان .

ومن لم يكن في وسعه أن يدرك ما وراء هذه الحقيقة فأحرى به ألا يتطفل على الوجود والعدم ، والحياة والموت ، والحق والباطل ، والعلائية والخفاء ، والظواهر والأسرار ، فكل أولئك له معناه الذي لا يدركه ولا يدريه .

وسنكتب فيما يلي تاريخ الشيطان لنستخرج منه تاريخ الأخلاق الإنسانية كما تشخصت في ثنية الحياة ، ونركب عليها بعد ذلك ما يوافقها أو يلافقها من مصطلحات القاموس!

قبل الشيطان

قبل شيوع صورة الشيطان كانت بديهة الإنسان تملأ العالم بأشئآت لا تخص من الأرواح والأطيف .

وكان من هذه الأرواح والأطيف ما يخفى ولا يظهر لأحد ، ومنها ما يخفى على أناس ويظهر لآخرين بالرقى والعزائم ، ومنها ما يتلبس أحيانا بالأجسام ويظهر لكل من لقيه فى مأواه .

ولم يكن الإنسان يقسم هذه الأرواح إلى ذات خير وذات شر ، لأنه لم يميز بين الخير والشر إلا بعد معرفته بصورة الشيطان كما تقدم .

وإنما كانت هذه الأرواح تنقسم عنده إلى أرواح مصادقة أو أرواح معادية ، وإلى أرواح نافعة أو أرواح ضارة ، وإلى أرواح سهلة أو أرواح عصية ، فلا فارق بينها عنده غير درجة الصلح والعداوة أو درجة الفائدة والأذى ، وأما طبيعة الخير وطبيعة الشر فقد جاءت بعد مراحل كثيرة فى طريق الإيمان بالأرواح .

والاختلاف بين الشر والضرر بعيد .

فالشر لا يصدر منه خير بإرادته ، ولكن الضرر قد يصيب أناسا ولا يصيب آخرين ، وقد يأتى من عمل ولا يأتى من عمل غيره ، وقد يكون الضرر بهذا نافعا لذلك ، فليست هناك طبيعة تسوقه إلى الشر فى جميع الأحوال ، بل هناك أحوال متعددة وأعمال متنوعة ، وشأن الأرواح فى ذلك شأن الناس من حوله بين قوم من قبيلة وقوم من أعدائها ، أو بين قوم من خاصته فى القبيلة وقوم ينقر منها وينفرون منه لأسباب عارضة أو باقية لا ترجع إلى أصالة فى الطباع .

وقد يصح تشبيه عالم الأرواح عنده بعالم الغاب أو عالم السباع والحيوان . فالغاب فيها النمر والثعبان ، وفيها البلبل والعصفور ، ومن حيوانها ما يأمنه ولا يخشاه ، وقد يتألفه ويستخدمه فى مصالحه ويشركه فى مسكنه ، وقد يكون عنده الكلب الأنيس وفى الخلاء الكلب المستوحش العقور ، وقد يكون عنده الحصان الداجن وفى الخلاء الحصان الجامح الذى لا نفع منه ولا ضرر ، وجملة الفوارق بينها مسألة أحوال وأحيان أو أحوال ورياضة واستعصاء .

وهكذا كان عالم الأرواح فى الهمجية الأولى : كان عالم فائدة وضرر ، أو عالم هواة واستعصاء ، أو عالم صداقة وعداوة ، فأما عالم الخير الأصيل فلا تتمثل له صورة فى بديهة الإنسان قبل انقسام الطبائع وتباين الأقيسة والموازن بين الأعمال والأخلاق .

ويدل على أصالة الإيمان بالأرواح فى بديهة الإنسان أنها وجدت فى كل سلالة بشرية من السلالات التى نشأت فى القارات المتقاربة فتعلم بعضها من بعض فى مسائل الدنيا والدين ، أو من السلالات التى وجدت فى الأمريكتين منعزلة منذ أدهار لا تعرف لها بداءة ، فهى لم تتعلم تلك العقائد من غيرها ولم ترجع بها إلى مصدر معروف فى العالم القديم .

ووجدت هذه العقيدة على أكثرها فى الجزر الأسترالية المتباعدة ، كما وجدت عند حوض الأمازون فى أمريكا الجنوبية ، أو وجدت فى إفريقية الجنوبية أو الشرقية التى يقال أنها مهد الجنس البشرى قبل سائر القارات ، ويقال مع ذلك أنها تلقت أفواج المهاجرين من الجنس القفقازى قبل فجر التاريخ .

والمهم فى هذا الشيوع أنه أصيل فى البداهة الإنسانية وأنه لم يكن من تدجيل الكهان والسحرة كما يخطر لمن يسهل عليهم أن يفسروا كل شيء بالدجل والخداع .

ويكاد الشبه بين الأرواح فى القارات المتباعدة أن يكون أقرب من الشبه بين الأدميين أنفسهم فى تلك القارات ، فالكائن الروحى فى الجزر الأسترالية أشبه بالكائن الروحى فى أمريكا الجنوبية من الأمريكين الأصلاء والأستراليين الأصلاء ، وليس بين روح وروح فى الأقطار المتنائية ذلك الاختلاف الذى يعترى الألوان والأشكال من فعل الجو والترية والماء والهواء ، فإنك قد تنقل الأسترالى من الجزر إلى أمريكا الجنوبية فيشعر فيها بالغربة ويريبه من قومها ما يريبه من الغرباء ، ولكنك إذا نقلت روحا من هناك إلى هنا أو من هنا إلى هناك لم تحده على غرابة فى عالم الأرواح ولم تكن بينه وبين العالم الذى انتقل إليه فجوة من الجنس واللون واللغة أبعد من الفجوة التى بينه وبين سائر الأرواح فى وطنه الأصيل ، وإنها لظاهرة جديرة بالتنبيه لها والتوقف عندها فى علم المقارنة بين الأدبان ، لأنها قد تفضى بنا إلى الوقوف على سليقة دينية شديدة التقارب بين الأجناس والأقوام ، وليس مصدرها من الخيال وحده لأن مخلوقات الخيال وحده بعيدة القوارق بين أساطير الأمم فى الإقليم الواحد فضلا عن شتى الأقاليم .

وقد كتب الرحالون والسحاثون عن القبائل المظرية التى وجدوها فى القارت
الخميس خلال رحلاتهم إليها منذ أوائل القرن الثامن عشر الذى نشأت فيه علوم
انقابلة بين العقائد والسلالات ، فإذا قدرنا أنها تغيرت مع الزمن منذ الشاة الأولى
فل عشرات الألوف من السنين ، ورأينا بعد هذا التغيير مقدار التشابه بينها فى
العصر الحاضر كان هذا التشابه حقاً أجدر شىء من السائحين بالالتفات إليه ، لأنه
دليل على أن وحدة السليقة الديسة أقرب جد من وحدة القريحة والخيال ، إذ
ليست أساطير الفنون على درجة من التشابه تقرب ذلك التشابه بين الأرواح
والأطياف فى لأديان والمعتقدات .

إن الدين أعمق فى كبار الإنسان من الخيال الذى يولد الأساطير ويخلق أشباح
الفنون ، وقد يكون التقارب من الأصلاء من الإفريقيين و الأمريكين و لأوربيين
والأستراليين ملحوظاً فى تقارب لأوصاف بين الأرواح والأطياف حيث لا يلحظ
التقارب بين المصنوعات اليدوية نفسها من الأدوات وآنية الفخار ، وهى المصنوعات
التي تقاسر بها طغيات العصور ويحسبها الكثيرون على مثال واحد فى كل عصر
من العصور الحجرية أو عصور المرعى أو العصور النحاسية ، ولكنها على كونه
محسوسة يحكمها النظر واللمس وتوحى بها المنفعة والحاجة المتكررة لم تلح من
التقارب والتشابه ما قد بلغته ملامح الأرواح والأطياف

وقد تخصص لكل إقليم من أقاليم القارت رحالون مستقنون فى دراساتهم
للأحياء وتنقيسهم عن الآثار ، فيكتب عن الحجر الأسترالية أناس غير الذين يكتبون
عن القارة الإفريقية ، ويكتب عن سهوب آسيا الشمالية طائفة غير هؤلاء ، فهم لا
يقولون بعضهم من بعض ولا يرجع بعضهم إلى بعض فى تسجيل المشاهدات
وإثبات الكشوف التاريخية ، ولكنهم يعرفون المشبهة بين العنائد حين يرجعون إلى
المقارنة والمقابلة ويستخلصون منها ما يستخلصون من وحدة الأصوات . .



ولهذه المشابهات يقرأ القارئ عن «أرواح إقيم من الأقاليم فلا يضيره كثيراً أن
يحطن فيحسبها أرواح إقليم آخر ، لأنها بمثابة النبات الذى يصح زرعه على طول
السنة فى جميع الأرضين ، فيزرع فى هذا الموسم أو ذاك ، وفى هذه البقعة أو تلك ،
بغير اختلاف كبير فى طريقة الملاحاة والحصاد .

يقول باريندر Partinder فى كتابه عن لنحل التقليدية فى إفريقيا «إن الأرواح يمكن أن تتخذ مساكنها فى كل شىء من أشياء الطبيعة على كر قمة وفى ظل كل شجرة حضراء ، وأن التلال والصخور البارة أخرى أن تكون مأوى للأرواح القوية»

إلى أن يقول : «وفى الأجام انتشاراكة الحقيقة تسكن الأرواح والأطيف ذوات الخطر والأذى . وحيوانات ألعاب - أو سكان الأرض - كثير منها حرام على هذه القسيلة أو تلك . . . فإذا قتل أحدها وجبت الترضية له أو يظل فى مطاردة القاتل طيفا لا يفر منه» .

ويقول شارل واجلى Wagley فى كتابه عن «بلدة لامارون» من أمريكا الجنوبية : «إن بعض القردة تخاف فى أعماق ألعاب وتحسب قردة الجريبة Guariba أفة سحرية وبيلة ، وبعضها له قدرة على إحلاس طل الإنسان . . . وأشهر أطيف الغاب وأرواحها الكاروير التي تشبه إسانا قرما ويقف إن أقدامها ملتقنة إلى ورائها ، وهى تعيش فى أعماق ألعاب ومنها تسمع صرحاتها الطويلة المزعجة ، ويقال إنها معرمة بشراب الروم والتدخين . . .»

ثم يقول وطيف آخر من الأطيف الخطرة يدعى ماتس تابيريا ، يظهر فى المدن ولا يظهر كالأطيف الأخرى فى العابات والأبهار . وأصل الاعتقاد فيه على ما يظهر منقول من الديار الأوربية .

ويتكلم مالنوسكى Malinowsky علامة الدراسات الإنسانية عن الحزر الأسترالية فيروى قصة الروح التى تسمى عندهم بلوم وتذهب بعد مفارقة الجسد إلى حورية أخرى كأنها العالم الآخر ، وهم يعتقدون أن الأشياء لها أرواح تستقل منها إلى حيث تسكن أرواح الموتى ، هيرينون جسد الميت يكن ما كان يزنان به فى الحياة ليحرد منه روحه ويبقى بقيته المفسوسة ، وقد يظهر للميت طيف يسمى كوسى يحاف لقاءه ولكنه يداعب الناس ولا يبال فى إيدائهم ، وحيما سمع صاحبه وجبت له الترضية والمدالة ، وقد يحشى القوم هناك أطيان أخرى لها علاقة بأرواح الموتى تتخلونها دائما فى صورة العجائز القباح وقد بشيرون إلى عجوز حية معروفة فيقولون عنها أنها قد أصبحت واحدة من تلك الأطيان ذات العلاقة بالموتى ، وأنها تعاشرهم بقوة السحر وحيل التعاود .

وأفضل المراجع التي يعتمد عليها في فهم العقائد البدائية تلك الرحلات التي يكتبها طائفة من العلماء عاشوا بين القبائل واحتلطوا بها في جميع أطوار معيشتها فعرفوا عاداتها بالمعاشرة على فطرتها ولم يعرفوها بالسؤال والتحقيق على موال الرحالين الذين يذهبون إليها لدراسة علم لأجاس أو تطبيقه عليها ومن هؤلاء العلماء الذين عاشوا معنا بين القبائل في إفريقية الوسطى الطبيب المشهور اليرت شويتزر صاحب جائزة نوبل منذ سنتين^(١) ،

ويؤخذ من مذكراته أن أحوف المخطورات عندها هي التي ترتبط بأهم المراحل في حياة الإنسان ، وهي الولادة والمراهقة والموت ، فقبل الولادة تطيف الأرواح بالآب وتلقنه في الرؤي أو الإيحاء أسماء الأشياء التي ينبغي لتوليد أن يتجنبها في حياته وإلا أصابه الأذى من الأرواح المظيفة بالمكان ، وعند المراهقة يحاط بالصبي بالمراسم والعبادات التي تفرضها كل بيئة على حسنها وأشق ما عاياه الطبيب من عادات القوم حذرهم من مقارنة أجساد الموتى وهو محتاج في مستشفاه على الدوام إلى حمل هذه الأجساد ومواراتها .

ويؤخذ من مشاهدات هذا الطبيب في جواره أن المخطورات خاصة وعمامة ، ومنها ما يحرم على إنسان واحد ولا يحرم على غيره حسما جاءه الوحي من أبيه أو كاهنه ، ومنها ما يعم القبيلة جميعا ولا يستثنى فيه أحد منها ، ويقول الطبيب أن بعض المندورين لهذه المحرمات قد تأتى شعائهم من الوهم الذي غلب عليهم بعد نذارهم بتحريم بعض المطاعم واجتناب بعض الأدوات فحترأوا على مخالفة المخطور وسلمو من العاقبة ولكنهم تحصو من عقيدة بعيدة ورسح في أخلاذهم أن الروح الذي أطلقهم من عقال المخطور أقوى من الروح الذي حضره عليهم ، فهو لا يستطيع أن يتعصم بالأدى وإن حالصوه حهرة ، لأنهم دخلوا في حمية روح آخر أقوى وأعظم وأحرى بالمبالاة والاتباع .

وقد دخلت هذه الأرواح والمخطورات في حساب السياسة كما دخلت في حساب العلم ، فقررت اللجنة البرلمانية التي أوهدتها الحكومة إلى إفريقية الشرقية لتحقيق أسباب الثورة فيها أن «دراسة النفسية» التي تنطوي عليها عبادات جماعة ملأوا ضرورة لاستقصاء أسباب السخط وعوامل الثورة ، وعقب الأساد ماكيس حلکمان Gluckman على هذا التقرير بعصل محمل عن أصول العقيدة بين

(١) كان ذلك يوم صدر الكتاب في جمعة الأولى سنة ١٩٥٥

القبائل ، فروى عنها أنها تؤمن بإله عظيم خلق العالم ثم تنحى عنه ، وأنه سمع من أناس في قبيلة البوروتس Barotse على الرمييري الأعلى إن الإله تحلى عن الأرض ولاد بالسمااء خيرة من كيد الناس وشطارتهم وأفدين حتيالهم ، ولم يبق لهذا الإله لأن من عمل يستطيعه مع البشر غير مجرد العلم بأحارهم ، فهم يقولون كذب سألهم عن مكان بعيد إن الإله يامى Nyambe أعلم وأدرى ويدعى رعبا . القبيلة أنهم ينتمون إلى هذا الإله من دريته التى ولدتها له ستة قبل أحد عشر جيلا فملك على القوم فى مكانه ، وهذا سر من أسرار الطاعة لرعباء والثورة على الأجانب والمستعمرين .

ويرى جنكمان أن المراسم والشعائر حلت بين القبائل الإفريقية محل الصلوات المكتوبة والعرائص المسجبة ، لانعدام الكتابة فى تلك القبائل ، فكل علاقة لها شعائره ومراسمها وكل حركة تتحركها القبيلة كنها أو بعض أفرادها طلبا للصيد أو انتجاعا للمرعى أو رحفا للعاراة على عدوها تتطلب منها الرضى إلى بعض الأرواح والخير من بعض الأرواح الأخرى ونبحثها إلى اتحاد المراسم والشعائر المتوارثة فى أجدادها .

وكل ما يصيب لإنسان فهو من كيد روح أو دسياسة ساحر أو من « وراء الطبيعة » على الإجمال - فإذا وطئ فيل إنسان فقتله الإفريقى يفهم أن قوة الفيل أكبر من قوة لإنسان وبهذا استطاع قتله ، ولكنه يسأل بعد ذلك لماذا كان هذا الإنسان هو المعتول ولم يكن إنسانا غيره؟ أليس هناك سر يرجع إلى تدبير ساحر أو بقمة روح غاصب أو مشيئة كائن ما وراء الطبيعة؟ وهكذا تلتقى الأسباب الطبيعية المعروفة بالأسباب المجهولة ما وراء الطبيعة ، ولا يحسن الإنسان السلامة من الكائنات المجهولة بحال من الأحوال .

وقد تروى العقائد بانقضاء الرمن عليها ولا يرول السحر وأساليبه الموافقة والمصاداة التى تلحق الإفريقى من ساحر إلى ساحر يسقط رقيته ويصد مكيدته ، فلا ملاد عندهم من السحر ولا إلى مثله أو أشد منه ولا تعليل عندهم لصيبة يتنون بها إلا أن تكون من كراهية عدو يستعين بالسحرة ويستمد قدرته على الكاية من الأرواح^(١) .

(١) من فصل فى مجلة Listener السنوية الصادرة فى ٢٩ أبريل سنة ١٩٥٤

وقد حاول الرحالون والباحثون فى لأجسام البشرية أن يرجعوا بالاعتقاد فى الأرواح إلى مصدر مفهوم فلم يتفقوا على مصدر واحد ولم يصلوا إلى قول متفق عليه يصلح لتفسير كل حالة وتعليل كل عقيدة .

فمنهم من يرجع بعقيدة الأرواح إلى الأطياف التى يراها الهمجى فى منامه ، وإلى الأحلام التى يرى فيها أنه انتقل إلى مكان بعيد وهو لم يبرح مرقده فى بته ، فيحيل إليه أن الأطياف تتحرك فى الظلام وتترك الأجسام إذا هدأت حركتها لتحوى هـ وهناك حيث تشاء ، وأن الذى يحدث فى حالة النوم يحدث فى حالة الموت فيسكن الحسد ويبنى ويتحرك الروح الذى فارقه بفراق الحياة .

ومهم من يرجع بهذه العقيدة إلى طبيعة الاستحشاء أى إلى الطبيعة التى تحيل إلى الهمجى أن الأشياء ذات حياة مثله فيعاملها كما يعامل الأحياء ويرضى عنها أو يغضب عليها كالطفل الذى يضرب الأرض إذا صدمته حين يسقط عليها ، أو يشعر بالراحة حين تضرب الأرض أمامه ويعاقبها بجريزة سقوطه عليها وإصابته من صدمتها .

وتتمكن هذه العقيدة فى خيال الهمجى مع نقص اللغة وحلظه من الحقيقة والتجذر فى تعبيراتها ، فإذا سمع أن الأرض ولدت عيون الماء وأن أباهما انحدر من سحب السماء لم تزل هذه الصورة تتحسم مع الرمز حتى تنشأ منها أسرة لها أب وأم وأبناء ، ولها مشيئة يلقاها بالتوسل والرحاء أو بالسخط والإعراض .

ومهم من يرجع بعقيدة الأرواح إلى عبادة الأسلاف بعد الموت ، وقد يحدث أن يسمى السلف باسم حيوان كالأسد أو النمر أو الثعلب أو النسر أو الضمير فيحسب أبائهم مع طول الزمن أنهم تحدثوا من ذلك الحيوان ويحفلون له قداسة مرعية توجب عليهم أن يحرموا قتله وأن يتوقعوا الضرر والسقم إذا قتله أحد منهم أو من غيرهم ولم يأخذوا بثأره .

ونكاد علماء الأجناس والعادات البشرية أن يجمعوا على إيمان القبائل المطرية بالله واحد أكبر من هذه الأرواح المتعددة وأسمى منها فى ظهور الطبيعة .

وقد تقدم من كلام حكمان أن القبائل فى إفريقيا الشرقية تؤمن بالإله يامبى الذى ارتقى إلى السماء حيرة من كيد الناس وشطارتهم وأفاني احتياليهم ، وهذه العقيدة على الأرجح من بقايا عبادة الأسلاف التى يحتفظ فيها التاريخ بالخرافة ،

وأصلها على هذا الظن متصل بوحدة القبائل فى جدّها الأعلى ، فهو ربّها جميعاً حينما اختلفت أربابها وتعددت الأرواح المسيطرة عليها ، وقد جردوه من القدرة وتركوا له صفة العلم والبراية كأنه الأب الشيخ الذى اعتزل العمل والقتال فلا طاقة له بمنع العدوّة بين ذريته من القبائل المختلفة .

ولم يفرد جلّكمان بقصة هذا الإله الواحد الذى تشترك فيه القبائل المختلفة فى إفريقيا الشرقية ، فإن الرحالين جميعاً متفقون على إيمان القبائل الأسترالية برب فوق الأرباب يسمى «دانا» أو يسمى بأبى الجميع All Father على مثال نيامبى فى القبائل الإفريقية .

ويتفق الرحالون كذلك على إيمان الأفزّام الإفريقيين برب فوق الأرباب تشترك فيه القبائل وإن تعدر عليها الرفاق فيما بينها ، ولم يجد علماء الأحناس قبيلة فطرية بسعت من ارتقاء الإدراك أن تؤمن بالتوحيد على صورته المثلى ، ولكنها تقترب من هذه الصورة كلما ارتقت من فوضى العقيدة إلى مرتبة أعلى وجمع من مراتب النظام .

وليس الهمجى جانا فإن الحزن بين لأخطار المخذقة به أصر به من الشجاعة ، وقد عودته مواجعة السباع والحيات أن يواحها علانية وأن يصارعها وينصب لها الأحابيل ويستخدم السلاح المستطاع فيما يعيبه أن يتعلب عليه بالمصارعة ، ولكنه بين الأرواح والأطيف أدم خطر مستور لا يدرك من أين يأتيه ولا تكون العلبة عليه بقوة البدن والسلاح ، ولعله لا يريد أن يتغلب عليه لأنه عنده فى حكم الأب أو الرئيس المطاع ، ورياضته بالحيلة أولى من التصدى له بالأسلحة والفخاخ .

ولابد من مواجهة تلك الأرواح والأطيف بما يكف عصها ويدفع أدها ويستحلب رصاها .

ولابد مما ليس منه بد فى النهاية ، فأما السكوت عنها فلا يطاق ، وأما الصراع معها فلا يحصى فيه البأس ولا تصلح له الشجاعة ، فكنت حيلة السحر هى الحيلة التى انتهى إليها ولم يكن له بد منها بحال .

وتخصص السحرة لرياضة هذه القوى التى لا تراض بالأيدي ونهرارات أو الحراب .

وظهرت السحرة الإنسانية في هذا التخصص كما تظهر عند الاضطراب إليها في توزيع جميع الأعمال

فلم يكن السحرة متخصصون لرياضة الأرواح والأطياب أساساً يمثلين بالحياة صالحين للكر والفر والصيد واقتناء النسوة وإنجاب الأولاد، بل كانوا على نقيض ذلك أمساحاً عزلتهم حياة أو انعزلوا بعد الأسر من مجاراتها في مطالعها، ولاح بينهم وبين عالم الخفاء شيء مناسب يعقد بينهم العلاقات العامة ويقرب لهما وسائل التفاهم، ويوقع في النفوس أثراً واحداً من التوحش والتساؤل والريب فيم وراء الظواهر والمألوفات .

وقد شهد الدكتور شويتزر «Schweizer» ترشيح بنصر السحرة وقال في مذكراته الإفریقیة «إن الدميم السيئ لا مضمح له في الحصول على امرأة يتزوجها، فإن كراءه لا يشترون له امرأة لنهزم منه، ويكون أبوه قد مات فيمتمتع بالمرأة ويتحول إلى السحر للانتقام من قومه» .

وقالت الدكتورة روث فلتون بنديكت «Benedict» إن بعض قبائل كيبورنيا من اليهود الأحمر يتطلبون علم الغيب ممن يصادون بالصرع ويتعرضون للغيبوبة في بعض نوباته، وأنهم يعضون النسوة المصروعات ولكمهم لا يقصرون الكهانة عليهن، وقد يكون الرجل المختار متأثراً بطبعه لا يصلح للأرواح ويلبس لبس النساء مدى الحياة^(١) .

ووصف الأب هري كلوي «Callawey» برنامج أعداد الساحر لوظيفته فقال إنه يبدو في أول الأمر قويا سليما ولكنه يهرل ثيث هشيئا ويصبح في عرف القوم «ناعما» ويعنون بذلك أنه أصبح عرضة للانفعال والتأثر ويصوم عن بعض الأطعمة ويتأذى ببعضها وتطرقه الأرواح والأطياب في ماسه ويهدده بعضها بالموت، ويقول العرافون إنه يوشك أن يملكه روح تتصرف به على حكم الأرواح، وفي هذه الحالة يصاب أهل القرية بالأرق ويتساءلون عما أصابهم لأن وصول الساحر إلى منزلة «الإنباخي» أي الملهم المكشوف عنه الحجاب حالة لا تمر في المكان بسلام^٢

ولا تفصل وظيفة الكاهن ووظيفة الساحر في مبدأ الأمر، فالكاهن الذي يقوم

(١) كتاب ألوان من الثقافة Patterns Of Culture

(٢) ديانات الأمرولو Religious Systems Of The Amasuku

ممارس العبادة هو الساحر الذي يدفع أذى الأرواح والأطياف ويستجلب رصاها ويسحرها في المآرب التي يختارها ، ثم يفصلان شيئا فشيئا فيصبح عمل الكاهن غير عمل الساحر أو يجمع الرجل الواحد بين الوظيفتين ولكنهم يقصدونه لكهنته في أغراض معلومة ويقصدونه لسحره في غير تلك الأغراض

والعالب أن الساحر يراد لمصلحة خاصة أو لإلحاق الضرر ببعض الأعداء ويعمد فيه الساحر إلى الوسائل الخبيثة ولا يكون عاما شامل النفع في جميع الأحوال ، وتستخدم فيه أرواح مقطعة للأذى والضرر تعودت أن تتأمر على السكاية والقمة وأن تستحيب لمن يؤدي لها الأجر ويتقدم لها بمرسوم الشعودة والأعمال الخفية .

وبلاحظ أن الكاهن قد يكون رئيسا لقوم وكاهنا يؤمهم في الصلاة ولعادة في وقت واحد ، ولكن الساحر لا يصل إلى هذه المكانة إلا أن يكون الساحر عميلا مصافا إلى الكهانة أو هروعا انتى لا ترتقى إلى مرتبة الصدارة .

وبلاحظ كذلك أن السحرة مشهورون أو مصابون بالآفات ، وأن أدوار النساء العجائز بينهم شائعة غير مهمة ، وكلهم بين رجال ونساء غير أهل لحياة القوة والصلابة والمتعة والظهور ، كأما الساحر لديهم عوص عن نصيب مفقود

وليست الكهانة على اجمدة من هذا القسل ، فإن الكاهن قد يكون من قدر الناس على الخد والوحاة والمتعة بالرعد والمعدات .

ويسبق إلى الطل أن الساحر والكهانة كلاهما خداع في خدع من نلفيق السحرة والكهان ، ولكنه ظن خاطئ غير معقول ، لأن السحرة والكهان على اتصافهم بالدكاء والدهاء قد شأوا بين أقوم تورثوا العقائد واحتفظوا بكثير من العادات التي توهموا أنها كانت نافعة لمن قبلهم وأنها تنفعهم اليوم ، إذ أحاصوا بعلمها وحدقوا تجاربها ، وربما لام الساحر نفسه إذا قصر في بلوغ ما يطلبونه منه واجتهد في علاج ذلك القصور بتكرار التجربة أو سؤال الأقدمين الذين سبقوه في الصاعقة ، وهو بطبيعة عمله لا يسعى عن الخداع والتلبيس في معاملة قومه ، ولكنه لم يكن قط خادع في كل شيء ولا يراى خادع مخدوعا في جوهر الساحر كله ، وهو الإيمان بفعل الطلاسم وقوة الأرواح .

وكلما انصرفت المسافة بين وظيفة الدين ووظيفة الساحر ترقى الإنسان العظمى من فوضى الأرواح والأرباب وسد التسوية بينهما وتعود لتعرفه بينهما فيما يطلبه ،

منها ما يقصده للسمع كما يقصده جميع أبناء القبيلة ، ومنها ما يقصده ليتواطأ معه على الإجرام والكناية كأنه بعض الشطار الذين يعيشون اليوم يتأجيز أنفسهم للكناية والعدوان .

ويحدث في هذا التطور من التمييز بين الأرواح والأطياف أن نعرف بأسماء وتوسم بلامح وتتلص « بشخصيات » وتخصص كل « شخصية » منها لرسالة تتجرد لها وتقدر عليها حيث لا يقلر سواها .

وفي هذا الطور ، أو المرحلة ، يتهيا الذهن للتمييز بين عمل الإله وعمل الشيطان .



أنواع ودرجات فى الحرام والمحذور

تكاد المحرمات فى القبائل البدائية أن ترمى على لمباحات والمخللات لأن المحرمات تشمل القداسة والسجاسة والعصيان والاحتقار ولاستقدار . فهناك أمور محرمة لأنها عظيمة مباحلة ، وأمر محرمة لأنها محبة أو مشنومة ، وأمر محرمة لأن إتيانها عصيان لرب معبود أو روح قدیر ، وأمر محرمة لأنها تحتقر وتعاف .

وعدد هذه المحرمات فى حملتها كثير يكاد يشمل كل عمل يراوله الإنسان المطرى ، بل ربما كان المباح نفسه داحلا فى التحريم على وجه من الوجوه ، لأنه لا يباح إلا بصلوات وشعائر يعرفها الخبير ولا نعم معرفتها كل أحد ؛ كالصيد والزرع والحصاد وما شابهها من أعمال الجماعة أو الفرد ، ومن الخوف من لإقدام عليها بغير صدقاتها ورسومها يجعلها فى حساب المحظورات .

وقد ترقى الإنسان وبرقت معه اللغة ولم تزل فى تعبيراته آثار للتقاييس بين القداسة والسجاسة فى المصوغات ، فكلمة المحرمة فى اللغة العربية تدل على الشيء العرير العظيم الذى يصاب ويحمى بالأرواح والأموال ، وقد يشمل المحرام كل إثم يعاب أو يعاف .

وكلمة لمسيع أو الممسوع تدل على القوة والرعية كما تدل على الرذيلة التى يجب على المرء أن يمتنع عنها ولا يقترب منها .

وكلمة القدسين والقديسات كانت تطلق عند السالبيين والكنعانيين على الذكور والإناث الذين ينصبون أنفسهم للخدمة فى حرم الربة «عشروت» أو السارية ، وقد ترجمت هذه الكلمة فى كتب العهد القديم بكلمة المأبوس والزانيات ، وهى فى الأصل من القديس أو المقدس ، ويقال عن الربة نفسها إنها كانت حليلة الأرباب ولدت منهم سبعين إلها «إيليم» .

وهي القبائل البدائية ثلاثة أنواع من المحرمات المقدسة وهي «الطوطم» والوثن أو التعويذة ، والتابو أو الحرام المصروع

فالطوطم Totem هو الحيوان الذي تحرم القبيلة قتله وصيده لاعتقادها أنها تناسلت منه أو لأنها ترمز به إلى معبودها وأصل وجودها .

والوثن أو التعويذة - وهو الذي اصططح علماء ، لأحناس عني تسميته بالفنتش Fetish - شيء جماد مصنوع أو طبيعي يحمل في أطوائه روحاً لها حق الرعاية والتوقير ، ومنها يستمد المرء حماية ومنعة ما دام على شرعتها في المباحات والمحظورات ، وقد تكون الوثن صورة أو حجر أو حصاة أو قطعة من جذع شجرة أو ألفافا من الشعر وعروق الشجر وما إليها ، يصنعها السحرة أو يصنعها الكبار للصغار .

والمحظور الثاني أقل درجة من الطوطم والأوثان ؛ لأنه قد يتفرق ويتخصص فيكون حرام عند بعض الناس حلالاً لغيرهم في السئة الواحدة ، بل قد يكون مستحباً لمظربا لمثبات من الناس ولا تحريم فيه على غير آحاد معدودين . وقد روى الدكتور شويتزر صروباً من هذه المحظورات لا مرجع لها غير التحكم من بعض الأرواح المزعومة التي تكشف عن إرادتها قبل وضع الحنيس ، فتخبر أباه في الرؤيا باسم «التابو» لمصروع على الوليد ، فمن هذه المحظورات أكل بعض الطلح أو الدور ، ومنها صرب الوليد على ظهره ، ومنها حمل انكنسة أو بعض الأنية ، ولا تكذب النساء في شأن «التابو» بل يصدقها العوم كل التصديق حتى لتقبل عقوبتهم أن الوليد يولد ذكراً ثم يتحول إلى أنثى إذا حولت سوءة أو علامة مرصودة ، ويقفل الوهم هذا فعنه القاتل الذي لا تحلى فيه المصباحة ولا الإقناع ، ففي ناحية «مسكيك» رأى الطبيب صبياً في مدرسة البعثة أباه رفاقه أنه أكل من إثناء طبخ فيه الطلح قبل ذلك ولم يتسن ، وكان الطلح محظوراً على الصبي بنبوة أبائه ، فلم يكذب الصبي يسمع الخبر حتى تشجعت عضلاته ولزمه التشح إلى أن مات بعد ساعات

وتحيط هذه التسواب كثيراً بعلاقات الحسنيين وبلغ سن المراهقة هي الذكور والإناث ، فينسر بين قبائل لأرض البدائية أن ترى قبيلة خلت من مراسم المراهقة ومحظوراتها الكثيرة ، فتعزل الفتاة ولا تكلم أحد غير أمها أو لا تكلمها إلا بصوت حميص ، ويؤخذ الصبي بعيداً من بينه ليعمل في العيوب المقدسة من روائع الأبوثة التي لصقت به من مصاحبة أمه ، ويحرق له الكهان أو كبراء السن شعائر القطام ، ومنها في بعض قبائل اليهود الحمر أن يفارق أمه رمناً أو يدخل الكوخ وهي

مستلقية على بابه فيطأ على بطنها علامة الاتصال في موضع حمله حيث احتط بعجوف الأنثى وهو جنين .

وتدل الشعائر الموروثة منذ القدم على جهل مطبق بأسرار الجنس والولادة ، وربما تبين من تلك الشعائر أنهم ينوطون نسبة الابن إلى أبيه بالمراسم والشعائر ولا يعتقدون أن مجرد الاتصال بين ذكر وأنثى يحقق الولادة والنسبة إلى الآباء ، فهي القبائل يفرص العرف على الرجل أن يقدم روحته لضيغه الغريب ولا يجمع ذلك أن ينسب أبناءها جميعا إليه ، لأنه هو الذي حرت فيه وييسها مراسم الروح .

ولا يعجب أبناء هذا العصر من تلك الخرافات التي تحيط بالجنس ومراسم النسبة بين الأبناء والآباء ، فهي عصريا هذا من يعتقد أن الولد من نسل الشيطان إذا ولد من غير روح مشروع ، وقد صدرت منشورات من رجال الدولة ورجال الدين بعد كشف أمريكا الجنوبية وشيوع الأمراض الزهرية في العائدين منها فكان حواها جميعا أنها عقوبة على خطايا الشيطان ، ولما انتشر عدوه بين المتزوجين والمزوجات في أواخر القرن الخامس عشر أصدر الإمبراطور مكسيميليان منشورا يند فيه بالخطاة - وأبذرهم بالتوبة أو تدوم هذه الصربة السماوية عقوبة لهم على العصيان^(١)

وتتفق جميع المحرمات السدئية على تفهيم مذهب المؤرخين الذين يقولون عن الديانات ومحرماتها ومباحاتها أنها حيطة اجتماعية تهتدى إليها بديهة المجتمع لمنع الجرائم ومعاقبة المجرمين وحماية الأبرياء من عدوان المجرم والإجرام ، فكل هذه المحرمات إنما ترحع إلى شيء واحد وهو إغضاب رب أو روح وتخطي الحدود التي تمنعها الأرباب أو لأرواح ، ولها كلها علاقة بعالم الخفايا والأسرار وما يسميه اليوم بعالم ما وراء المادة لأنه لا يحرص في المحسوسات المادية ، وأما الجرائم وعقوباتها فهي أعمال مفهومة مقصورة ترحع إلى الأسباب الطبيعية التي يحيط بها علم الإنسان كما تحيط بها إرادته ، وهي تعالج بالقصاص المقدروبالثأر والانتقام وأداء العرامة والدية ، بن يستمد الثأر قوته أحيانا من عالم الروح كما يقال عن روح القتيل في قبائل الجاهلية العربية أنها لا تزال همة مقيدة بحاسب القتيل تنادى العائرين بها . اسقوني اسقوني حتى يؤخذ بالثأر فتشعر بالرى وتسريح فليست المحرمات الديسية هي التي تتوقف على مطالب القصاص وقوانين الجزاء بل هذه المطالب هي التي تتوقف أحيانا على عالم الأسرار والأرواح .

(١) كتاب الشياطين والعقائير والأطباء لؤلؤه هوردي هجارد

وقد ثبت من أطوار المحرمات في القبائل عامة أنها تتقدم مع تقدم الإنسان في ثلاثة أدوار متشابهة .

فالطور الأول أن تترقى من الحدود اغلبية إلى حدود عادية أو كونية تشمل السماوات والأرضين ، فبعد الرب الذي يسيطر على يسوع ماء أو شجرة في غابة أو بقعة في جهة من جهات الإقليم يترقى الإنسان إلى فهم الرب الذي يسيطر على السحب ولأنهار وأفلاك السماء ، وكلما أدرك القوايين التي تربط الطبيعة بنظام واحد ترقى إدراكه لقدرة الرب الذي يمدك زمامها ويصلي له المصلون لإحرائها في محرارها المطلوب وتحويلها عن المجرى الذي يحذرون عقابه

ويقترن بهذا الطور ، أو تأتي بعده طور التمييز الواضح بين عمل الدين والعبادة وعمل السحر والطلاسم السحرية ، فلا يستطيع الساحر ما يستطيعه الكاهن . ولا يقصد الكاهن عامة فيم يقصد فيه السحرة عامة ، وربما تولي الوظيفتين رجل واحد ولكنه وهو كاهن إنما يتوصل إلى الآلهة ويتحرى رضاها بالصوت التي يحسنها دون غيره ، أما وهو ساحر فهو يسخر الأرواح أو يعاملها على أساس التواطؤ والتعاون على العمل الكريه الذي ينهر منه المشتركون فيه ولا يحبهون بسره عن رضا واحتير وكلمة اتضح السميز بين العبادة والسحر اقترب الإنسان من الطور الآخر الذي يستقل فيه بمشيثته بين الوظيفتين .

وفي الحياة البدئية يظل الإنسان رهبا بمشيئة الأرواح التي تنفع وتضر وتطوى له على الصداقة أو على العداوة ، وكلها في رأيه تعمل ما يحلو لها ولا يحق لأحد أن يحاسبها عليه ، ولكنه كلما ترقى في التمييز بينها ملك الميزان الذي يزن به أعمالها وأقدارها ، فيدين بعضها ويحمد بعضها ، ويعرف منها مرعوسين ورؤساء يحق لهم أن يشرفوا عليها ويحاسبوها على أعمالها وأحسن في طويته أن يطيع بعضها ضرورة وعصا ويطيع بعضها حبا واختياراً لأنه أهل للطاعة والرجاء .

ومن هنا نصبح الأرواح نفسها مطيعة أو عاصية ، وماصية على السنن القويم أو المنحرفة عن هذا السنن إلى الخطة العوجاء التي يسكرها كبار الأرباب .

ومتى أتيح للإنسان مقياس يقيس به الأرواح والأرباب وقيس به أعمالها وحقوقها فهو إذاً أهل للمشيئة والتسعة وأهل للتسميز بين الخير والشر وبين سلطان الإله وسلطان الشيطان .

أنواع الشيطنة

ما أنواع الشيطنة فى العالم ؟ ١

سؤال غريب ، ولكنه يبدو طبيعيا ، بل ضروريا إذا وضع فى صيغة أخرى ،
فسألنا : ما موقف الشر بالنسبة إلى القوة الكونية الكبرى؟

وهنا أيضا نتبين أن فكرة الشيطان أعقق حداً ، يخطر للمتعجل الذى يحسب
أنه يحل كل مشكلة بكلمة الوهم أو التنفيق ، أو يحل كل مشكلة بإحالتها إلى
جهل الأقدمين وصلالهم فى الحس والتفكير

فهناك صرر للشيطنة بمقدور ما فى الدهن المشرى من فكرة عن الشر فى هذا
الكون ، هل الشر قوة أصيلة؟ هل هو قوة إيجابية عامة؟ هل هو قوة سلبية؟ هل هو
عدم الخير؟ هل هو نقص الخير؟ هل هو عقبة فى طريق الخير؟ هل هو عقبة تريد
وتعمل ما تريد؟ هل هو عقبة لا إرادة لها ولكنها تصاعف جهود الخير وتستدعيه
إلى مزيد من الحركة والثبات؟

كل فكرة عن الشر يكرر أن نخطر على الدهن المشرى قد تمثلت فى صورة من
صور الشيطان ، وهذا سبب من الأسباب الكثيرة التى تدعو الممكر الذى يحترم
عقله أن يهم الصور الدينية على حقيقتها أنها لعبة تصور الوجود حقيقى تصويرا
صادقا على أسلوبها الذى يستحق المهم والتعمق والنظر إلى ما وراء الظواهر والألفاظ .
كان الشر أرواحا ضارة متفرقة فى اعتقاد الإنسان على العطرة الهمجية فلما
أصبح مسألة كونية عامة تمثلت صورته فى حدودها الكونية على شكل معقول ،
رسمت المذاهب الفلسفية بمراحل عديدة فى هذا المصمار

كان الشر فى تقدير الديانة ، المحوسبة القديمة قوة فعالة معادة لقوة الخير .

كان فى الوجود خير وشر كما فيه نهر وليل ، وكان الليل حقيقة قائمة بذاتها
ولم يكن مجرد غياب النهار .

كان الليل ضد النهار كما كان النهار ضد الليل ، فإذا غاب النهار فهناك ليل ،
وإذا غاب الليل فهناك نهار

كان للنور دولة وظلام دولة ، وكان لهده جنود ولتلك جنود ، فهما قوتان متقابلتان متعادلتان أو كالتعادلتين ، ولكل منهما وجود قائم قابل لأن ينصرده نفسه في معزل من القوة الأخرى ، فلا يتوقف وجود الشر على وجود الخير ولا يتوقف وجود الخير على وجود الشر ، بل كلاهما موجود بحقه وبقدرته ويعمله كما يوحد الضدان الصالحان للحياة والسقاء

كان الظلام يصنع مخلوقاته كما كان للنور مخلوقاته التي يصنعها ، وكل منهما حسن في نظر نفسه ، محمود بمقياسه ولا يبالي بمقياس غيره ولا يتمناه
ثم تراجحت الكفتان فرجحت كفة النور على كفة الظلام ، وظل المعسكران متقابلين ولكن إلى حين ينتهي آخر الأمر بهريرة الظلام ، وعلبة النور ، ثم يبقى الظلام شيئا يلود به أنصاره فيحتفون فيه ولا يطهرون للأبصار ، ربما هرب منهم اختفاء وليست بالمنا ولا بالزوال .

وعظم التفاوت بين الموتى شيئا فشيئا حتى أصبحت قوة الشر كقوة الأمير التابع مع السلطان المتنوع ، فهو يستطيع شيئا إلى جاذب سلطان ولكنه لا يستطيع جميع الأشياء ، ولا طاقة له على طول المدى أن يجاريه في كل شيء .

ومن إلهين متعادلين تحول الخير والشر إلى إله كبير وإله صغير ، وقد تظل الحرب بينهما سجالا فينتصر الإله الصغير وينهزم الإله الكبير ، وقد يؤول الأمر بينهما إلى معركة حاسمة أو يظل العراك بينهما سجالا إلى أن تزول الأرض والسماء

ثم أمس الناس بإله واحد هو الخالق المدع القائم بدته ، لا وجود معه للشر إلا بمشيئته وتقديره ، فلا يقوم الشر في هذه الدنيا بذاته مستقلا عن الله

وفي هذه الصورة ظهر الشيطان في ديانات الأمم الكسرى ، ثم ظهر في الديانات الكتابية بمحتلف الأسماء ، وكلها تدل على التعطيل والتشويه والإفساد ، ولا تدل على الخلق والتكوين . . كلها قوة سالبة ناقصة وليست بقوة موجبة كاملة تبتدئ بمشيئتها عملا من الأعمال .

هذه القوة الشيطانية تحول الخير عن موضعه ، أو تملئ للنقص في عيوبه ، أو تقف في طريق الكمال عقبة تصد الساعين إليه ، أو تريف «العملة» الإلهية فتجعل الزائف منها كالصحيح في رأى المضلل المخدوع .

ولكنها في جميع أحوالها قوة سالبة وليست بالقوة الموحية الموحدة بأية حال .

وقد يتمرد على الخير ويعصيه .

وقد يحرج الشيطان على أمر الله ، وقد يشوه الخلق ويتقصه ويستر محاسنه ويسدى عوراته ويحول دون رضوان الله على مخلوقاته ولكنه يعمل تادعا ولا يعمل مستقلا في كون من الأكوان غير الكون الذى خلقه الله .

وفى هذه المراحل جميعا بذل اسم الشيطان على موفقه من القوة الكونية الكبرى . فهو المتمرد أو هو «الصد» أو هو الواشى الممام أو هو الساعى بالفتنة والمعري بالفساد والموغر للصدور .

وما من اسم لشيطان بين هذه الأسماء إلا وهو يحمل فى دلالة معنى الإفساد والمبع والتشويه ، فليست له قدرة على الخلق والإشاء إلى جانب قدرة الله .

ولما تفررت المقاييس الإلهية فى الأخلاق والأعمال تفررت المقاييس الشيطانية تبع لها وبالنسبة إليها ، فكان الخدب فيها أنها معالم شخصية ذات ملامح معلومة لا ترسم اعتباطا فى الواقع أو فى الخيال .

وقد عالج الشراح الدينيون أن يلخصوا «الشيطنة» فى صفة واحدة تجمع عناصرها ويقوم به كيانها فذكروا الكبرياء وذكروا العصيان وذكروا الحسد وذكروا الكراهية وذكروا الباطل والخداع ، وكلها صفات لا تحسب من لوازم الشيطان إلا بعد علم بوجود الإله المتصرف فى المقادير والأكوان .

فالكبرياء افتشت على مقام الإله ، والعصيان حروح على شريعته والحسد إنكار لعمته واعتراض على تقديره ، والكراهية صفة قد يتصف بها الأبرار حسا بعد حين إذا كانت كراهية لهذا العمل البغيض أو لذلك المخلوق الذميم ، ولكنها إذا كانت قوام الطبيعة كلها فهي صفة هادمة غاشمة تناقض الصفة الإلهية فى الصميم وهي الحب ولوارمه من البر والإنعام . أما الباطل والخداع فهما نقيض الحق ونقيض الاستقامة ونقيض الخلق على الصدق والسواء

عسى أن الأرواح الأولى فى جاهلية لإنسان قد تطورت فى اتجاه أحر مع هذا الاتجاه فى مجال الخير والشر وعالم النفس الإنسانية بى يعرض له من صلاح وفساد .

ذلك لاتجاه الأحر هو تطوره فيما يتعلق بقوى الطبيعة وطواهر السماوات والأرضين .

فهي أرواح من الخان الخفى لها عمل غير صلاح النفس الإنسانية ومساعدتها ، ولها قدرة خاصة لسلطان الإله ومن يصطفيه من عبده ، ويسب إليها كل مجهود عظيم تقصر عنه طاقة الإنسان .

وليس قدرتها هذه لأنها تعلمت ما لم يتعلمه الإنسان . ولا لأنها ذات عقول أكر من عقله وأصلح منه للفهم والتفكير .

ولكنها قدرة تأتيها من عالم الأسرار الذى تعيش فيه ، فهي تسخر القوى الطبيعية لأنها تعيش بين أسرارها وتحسب منها أو هي حكمها ، وإذا فطنت للمعنى الدقة بقى الذى لم يعطن له الإنسان فلماذا تأتي فطنتها كذلك من اطلاعها على الدقائق والخفايا ومعادها إلى العالم الذى يطرقه حس الإنسان ولا يتسلل إليه عقله

وهذه هي شياطين النور والصاعات ، تبسبى الصروح وترفع الصحور وتهبب بالأثقال التى تعيا بها كواهل لابس وتنوء تحتها أدواته وصناعاته ، وتدحس فى ثديا الخساء فتلهب الشاعر ما يدق عن سائر بسى آدم من غير الشعراء ، ولا جرم يكون لهؤلاء الشعراء وأمثالهم من أصحاب النور حال كمن الخان وغيبوبة الغوليين لأنهم يخطئون الخان ويمقهون عنها ويلحون منها أسرار لعابها وإشارات وحبيها .

وتلك هي أنواع الشيطنة من حاببيها : فى اتجاه الصمير وفى اتجاه الذهب والقريحة .

فى اتجاه الصمير ترتبط «الشيطنة» بالفساد والخير والشر ومساءى الإنسان نحو الكمال والرشاد .

وفى اتجاه الذهب والقريحة ترتبط «الشيطنة» بالأسرار والبواطن وبالوحي الخفى وعرائث العذرة ، سواء كانت عبارة لغة أو عبارة شكل وإشارة .

وسيكون لكل نوع من هذه الأنواع نصيبه فيما يلي من الصفحات

أسماء الشيطان الأكبر

تمثلت قوه الشر «العالمية» فى شخصيات مرسومه الملامح معروفة الأسماء ، اشتهرت بها فى كل لغة من لغات الحضارة الكبرى التى سميت ظهور الديانات الكتابية ، وسدكر هذه الشخصيات بلامحها وأسمائها عند الكلام على أهم تلك الحضارات التى لها علاقة بصورة الشيطان كما تحلقت فى الأعصر الحديثة ، ولكنا نتقدم قبل ذلك بحلاصة عاجلة لأسماء الشيطان الأكبر التى بقيت إلى اليوم لورودها فى الديانات الكتابية ولأنها قد أصبحت ذات مدلول لغوى إلى حاسب مدلولها الدينى ، فإن حضور هذه الأسماء فى الدهر يبرر معالم الطريق إلى الروحة التى انتهت إليها سوبق التاريخ ومقدماته ، فقد ظهرت «شخصيات» الشيطان الأكبر فى الحضارات العائرة إلى أن ظهرت شخصيات هذا الشيطان فى كل ديانة من الديانات الكتابية التى أسسنا أن اسم الشيطان فيها قد أصبحت له دلالة اللعوية إلى جانب دلالة الدينية .

واسم «الشيطان» بالألف واللام هو أشهر هذه الأسماء ، لأنه ورد فى كتب الديانات الثلاث ، ودخل فى تفسيرات اللغات الأوربية المتداولة بلفظه المقول عن اللغات السامية ، فيحدث الغربيون اليوم عن الفكرة الشيطانية أو عن العمل الشيطاني ويهممون من عباراتهم معنى لا يتيسر على القائل ولا على المتكلم ، ومعنى الصفة الشيطانية عندهم مرادف لصفة الجهمية التى تتطوى على الخبث والبراعة وحب الأذى والتمتع بالإيذاء كأنه منفس لطسعة صاحبها يصرح عنه ويسره أن يلوح آثاره وهو مستتر وراءه .

والرأى الغالب أن كلمة «الشيطان» هذه عبرية بمعنى المضد أو العدو ، ومن أسباب الطى باستعارتها من اللغة العبرية أنها لغة اليهود وأن ديانة موسى عليه السلام سادقة للمسيحية والإسلام ، ولكنه طى يصدق فى حلة واحدة ، وهى أن يكون اليهود أصلاء فى الكلام عن الشيطان ثم يسبقهم أحد من المشاركة إليه ، إلا أنها حالة لم تثبت وقد يكون الثابت خلافها وبقيصها ، فإن اليهود قد وصفوا الشيطان بعد هجرتهم إلى بابل ، وليست طريق بابل موصدة دون الأمم السامية غير اليهود

والأرجح عندما أن الكلمة أصيلة في اللغة العربية قديمة فيها ، لا يبعد أن تكون أقدم من بطاثرها في اللغة البابلية ، لأن اللغة العربية قد شملت على كل حذر يمكن أن يتفرع منه لعظ الشيطان ، على أى احتمال وعلى كل تقدير فهيها مادة شط وشاط وشوط وشطن ، وفي هذه المواد معانى العدد والصلال والتلهب والاحتراق ، وهي تستوعب أصول المعانى التى تفهم من كلمة الشيطان جميعها .

فالشط من العلو الذى يدخل فى أخص عناصر «الشيطنة» والشط بمعنى الخائب المقابل قد تلحظ فى مقابلة الخير بالشر من جاسب الشيطان . وشاط بمعنى احترق وتلف ، وأشاطه بمعنى أهلكه وأتلفه ، وانطلق شوطا أى اتعد وانددع فى محراء ، وشطن أى ابتعد فهو شيطان على صيغة فيعال وقد كان العرب يسمون النعمان الكبير بالشيطان ، ويقال فى بعض التفسيرات إن هذا المعنى هو المقصود من ﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رَءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصفات ١٥] .

ودكر الشراح اليهود ابتأخرون أن الشيطان تمثل لآدم فى صورة الحبة حين أعواه بأكل الشجرة المحرمة ، ولم تقطع العلاقة قط بين الحبة والشيطان ، ويؤخذ من سفر أيوب عليه السلام - وهو عربى دتفق المؤرخين - أن الشيطان كان معروف بين العرب من ذلك العهد الذى كان سابقا لعهد حروب بنى إسرائيل من مصر ، ويؤخذ من تاريخ الأدب العربى فى الجاهلية أن العرب قد عرفوا الشيطان فى أدواره الفنية والأدبية مع السحرة والشعراء ، فليس هو مجرد اسم معرب نقلوه من لغة أخرى ولم يزدوا على وضعه فى موضعه من المأثورات العربية .

وأشهر أسماء الشيطان الأكبر فى اللغة العربية هو اسم «إبليس» الذى يختلف اللغويون فى أصله كما يختلفون فى نسبة كلمة شيطان إلى إحدى اللغات السامية .

والمتكلم العربى يفهم من وصف إنسان من الناس بأنه «إبليس» كل ما يريده القائل من هذه الصفة ، فهي دالة فى كلام الخاصة والعامة على الدس والفتنة والذهء والسعى بالفساد ، ولم تحمل كلمة واحدة من دلالتها اللغوية أكثرى حملته هذه الكلمة مستعاراً من صفات إبليس فى العقيدة الإسلامية .

ويرى بعض العرب أن الكلمة هي أصلها يونانية من كلمة ديابولوس Diabolos التي تعيد معنى الاعتراض والدحول بين شيئين كما تعيد معنى الوقعة وأصلها في اليونانية من ديا Dia بمعنى أثناء وباليونانية Ballein بمعنى يقذف أو يلقي ، ومعنى الكلمتين معاً قريب من معنى الاعتراض والدحول بين الشيئين أو قريب من ثم إلى معنى الوقعة .

وعندنا أن هذا التركيب أضعف من قول القائلين إن كلمة ديفل Devil أي الشيطان في اللغات السكسوية مأخوذة من فعل الشر Do-evil أي من كلمة «دو» بمعنى يفعل وكلمة «إيفل» بمعنى الشر ، وقد أجمع اللغويون والدييون على أن هذا التركيب مع أنه أقرب إلى صفة الشيطان من الصفة التي توحي بها الكلمتان اليونانيتان ، بعد التمحل والاعتساف .

ولسا على يقين من انقطاع الصلة بين الكلمة اليونانية والكلمة العربية ، ولكنا على يقين أن «شخصية» إبليس تحتاج ، بل تتوقف على الدلالة التي نستعدها من مادة «الإبلاس» أي فقد الرحاء . فإن ضياع الأمن أُلرم صفات إبليس على السنة الخاصة والعامة ، وليس أشهر من المثل الذي يصرب تأمل إبليس في الحنة مرادف لمعنى الأمن الصانع كل الصياع ، وقد فرق هذا المعنى بين كلمة إبليس وكلمة الشيطان في ملامح الشخصية ، فهذا قد صيغ الحق وهذا قد صيغ الرحاء ، وكذلك قد فرق بينهما شروح الفقهاء وفرقت بينهما الدلالة ، للموحة بين الشيطنة والإبلاس .

والعربون اليوم يستخدمون الكلمة اليونانية في صيغة النعت وقلم يستخدمونها في صيغة العلم . فإذا قالوا عن شيء أنه «ديابولي» أو إبليس فافهموه أنه عمل من أعمال التمرد والجبروت ولا يلزم أنه سيئ كل سوء وإنما يرم أنه حلا من الصفات الإلهية أو الصفات «الرحمانية» على الخصوص ، وكذلك توصف الثورات الجائحة التي تدمر الطم وتفسد معالم الطعين ، فهي من الجبروت بحيث توصف «بالديابولية» ولكنها من العنف بحيث تحالف لأعمال «الرحمانية» في الفرق والرضوان .

ومن أسماء الشيطان التي دخلت في الدلالات اللغوية اسم لوسيفر Lucifer

أو حامل النور ، وهو فى أصله اللاتى اسم الرهرة حين تكون «كوكب الصباح» ولم يكن له من مبدأ الأمر دلالة سيئة ولكنه جاء فى كلام النبى أشعياء فى معرض التبكيت لحدث بابل الذى سمي نفسه بكوكب الصباح ، وفهم الحواريون من كلام السيد المسيح «أنه رأى الشيطان كنحم سقط من السماء» أن المقصود هو الرهرة وأنه كناية عن الخيلاء التى تقود صاحبها إلى السقوط . على أن سفر الرؤيا يذكر على سان السيد المسيح أنه تحدث عن نفسه فقال . أن كوكب الصبح المير

وإذا وصف نسان اليوم بأنه شبيه «لوسيفر» فالمفهوم من هذا الوصف أنه يلمع ويتحایل باللمعان ويبلغ من العجب به حد السماحة والصفقة ، فهو الخطيئة الساصعة أو الخيلاء المتبجحة ، ومن كن كذلك فسقوطه أمر يود الناس أن يتحقق ، ولا يشعرون له بالرتاء الذى يصاحب المجد المهار .

ونذكر لأوريون بعزوبوب وبعزوبول فى مقام التهكم بالرئاسة الشيطانية ، وأصل بعزوبوب أنه إله معبود فى عقرون يقال عنه إنه رب الطب وأنه يشفى المرضى لأنه سيد الشياطين ، وكانت الأمراض العصبية كالخسوف والشلل والفالج والصرع والهزال تنسب إلى تلبس الشيطان بجسم المريض .

ومعنى بعزوبوب رب الذناب ، فحولته العبريون إلى بعزوبول أى رب الربالة سحرية منه وتحقيرا لأمره ودعواه ، لأنهم كانوا يكررون عبادة العزل ويدعون إلى عبادة «يهوا» أو «الين» ، وقد قالوا حين سمعوا بمعجزات السيد المسيح فى شفاء المرضى إنه يشبههم بمعوية رب الشياطين بعزوبول .

والدلالة اللعوية التى يفيدها وصف «بعزوبول» فى أساليب العصر الحاضر هى الإقرار بالقدرة على قمع الشر لأنها مستمدة من الشر نفسه .

فهى الشيطنة التى تقمع الشياطين لريادتها عيها فى الشيطنة ، لا لأنها تصلح أو تبتغى الإصلاح ، وهى إلى ذلك لا ترتفع فى قدرتها عن قدر الربالة والذناب .

وهناك شيطنة خاصة تدل عليها كلمة مصنفهليس ، ويقال إنها مأخوذة من كلمة يونانية مركبة تعيد معنى كرهة النور ، ويرجحون أنها من «مى» بمعنى لا و«فوس» بمعنى نور و«فيلوس» بمعنى يحب . ولكن أصلها القديم متفق عليه ، فهى مستمدة من انسحر السابلى الذى سرى إلى الغرب عنى أيدي اليهود واليونان .

وتمثل روحا من أرواح النجس التى تتسلط على بعض الكواكب ويستعان بها على النكاية وخدمة الشهوات السوداء .

وشيطنة مفستوفليس «ذهنية» موسومة بعيوب الدهن فى أسوأ حالاته من السخرية ولاستحقاف والزراية بالمثل العليا واستباحة كل شىء بالخيالة والمكر والدهاء ، فهو ذهن يصنع الشر لأنه لا يلقى الشر واخير عنى السواء ، وإذ طاب له اخير فعله غير مخطط بفعله ، كما أنه يفعل الشر ولا يوم نفسه عليه ، ويسر صاحبه أن يرى حبيبة الأمل فى الصلاح والفصيلة لأنه يثبت بذلك فلسفة السخرية وسحافة المثل الأعلى ، ويدفع عن نفسه نقد الساقدين واحتقار المختقرين .

وقد كن مفستوفليس فى القرون الوسطى شيطان السحر والمعرفة السوداء ، وكان رحل الدين يتحدوه مثلا للعلماء الكفار الذين عرثهم المعرفة الديبوية ونصرفوا إليها وشعلوا بها عن معارف الدين .

ويتردد من حين إلى حين اسم إله الخراب أو إله القصر «عزازيل» .

وهو اسم ورد فى العهد القديم واختلف الشرح فى سببه إلى أصله ، ويرى بعضهم أنه من مادة لإزالة العربية ، ويقول آخرون إنه كان رئيس للملائكة الذين هبطوا إلى الأرض فأعحستهم «بنات الساس» وتزوجو عنهن ، ثم انهزم أمام جند السماء فلاذ بالصحراء ويقال أيضا إن إبليس كان يسمى عزازيل ثم سقط فرال مكانه من السماء .

وقد كان من عادة اليهود أن يقتنعوا عنى صحتين تذبح إحداهما للرب «يهوا» وترسل الثانية محممة بالخطايا إلى عزازيل رب الأرض الخراب ، وشيطنة اليوم فى لغة المجار مرادفة لمعى العظمة التى تحتفظ بحق التضحية لها وحمل القرابين إليها ، ولو كانت تساق إلى عرش مستوى عنى ممكة الخراب .

وليس بين أسماء الشيطان لأكر التى دخلت فى مدلولات الدعة ما هو أشهر ولا أدل من هذه الأسماء : الشيطان وإبليس ولوسيفر وعزريول ومفستوفليس وعزازيل ، فهى اليوم كلمات وأعلام ، وقد اجتمع لها من معنى الشيطنة كل ما يستقصيه فيما يلى متفرقا عن تواريخ الأمم والديانات حول «قوة الشر الكبرى» أو قوة الشر العالمية ، فى موقفها أمام عوامل الخير والكمال .

الحضارة المصرية

من أقدم الحضارات التى تمثلت فيها قوة الشر فى صورة شخصية عميره فاسمها وملاصحتها حضارة مصر القديمة .

ومن أقدم عصور المملكة القديمة عرف المصريون حساب الروح بعد الموت وموازين الجراء على الخير والشر والفصيلة والرذيلة وشروط النقاء التى تستوفىها الروح لتتعم بالحياة الأبدية فى العالم الآخر . ولم يكن العالم الآخر عندهم مؤحلاً أو مستظراً فى المستقبل بعد حراب هذا العالم الديوى ، ولكنه كان امتداداً للعالم الذى هم فيه وهو الديار المصرية فحراب الدنيا هو حراب الديار المصرية وهو كارثة طامة لم يكن من اليسير عليهم أن يتحيلوها ويتحيلوها عالماً قائماً بعدها ، وإنما كانوا يتحيلون مصر عالمين دائمين فى كل وقت ، أحدهما ظاهر يسكنه أحياءهم والآخر باطن يسكنه موتاهم ، فهذا حدث الخراب فى الأرض وإنما هو عارض يجنيه الظلم على الحاكمين والمحكومين ثم يروى العارض ونعود البلاد سيرتها الأولى مع انتظام الحكم على سنن العدل والإنصاف ، وتأتى الحياة بعد الموت متصلة بالحياة على وجه الأرض مستنقبة لمطالبها ومآكلها ومشاربها فى ظل حكومة كحكومتها ، أو هى فى ظل حاكم خالدها كان فعلاً فى يوم من الأيام حاكم الأرض المصرية أثناء حياته العانية

وفى كل أمة من الأمم القديمة الكبرى يتناقل الكهان والشعب قصة عن بقعة الإله الأكبر على الحسن الشرى ودمه على خلقهم وتفكره فى إنادتهم عقاباً لهم على دنوبهم ، وتختلف هذه الدروب باختلاف الأمم والكهانات ، فهى تارة مسألة تفصير فى الصحايا وتارة مسألة غيب «إلهية» من لمعرفة البشرية وتارة أخرى مسألة فساد واشتعال باللدات إلى غير ذلك مما سجلته فصوص الخلق والعقب فى جميع الأساطير الأولى .

أما هذه القصة فى الديانة المصرية فهى قصة حاكم يغضب على المحكومين لأنهم ثاروا عليه وهموا بحلعه لأنهم استضعفوه وظنوا أنه شابخ وهرم فلم تبق فيه بقية لقدرة على ولاية الأمور .

وقد كتبت هذه القصة على جدران الحجرة الخاصة فى هيكل سميتى الأول اندى

بى حوالى سنة (١٣٥٠) قبل الميلاد ، وحلاصتها أن الإله الأكبر «رع» علم بتأمر الشر على العصيان فعقد مجلس الآلهة وشاورهم فى أمر هذه الفتنة ، فاستقر الرأى على إبادة العصاة ، وأرسل الإله الأكبر عينه عليهم فآلهاهم وقد هجروا الديار ولادوا بأخبال ، وتعقبهم جنوده فأثبحوا فيهم ألقن حتى فاضت الأرض بالدماء وبقيت منهم بقايا تتوارى هه وهناك من ربايته ، فحزن «رع» لأنه أحسن حقا بالعجر عن إبادة العصاة أجمعين وطفق يحضر الأرباب يواسوه ويقولون له إن مشيئته وقدرته سواء ، فكل ما يشاء فهو قادر عليه .

وتتم القصة على صورة أقرب إلى الرفق والمسامحة فيقال فى حتامها إن «رع» سئم الكبود من رعباه فأجمع بيته على الاعتزال والإقامة فى السماء ، فدم الناس على كبودهم وعصيانهم وتابوا إليه فلم يعدل الإله الأكبر عن بيته ولكنه أمر إله الحكمة «توت» أن يلقي الناس أسرار الحكمة وتعاويد الرقاية من الآفات ومنها الهوام والتعابين وأن يهدى بها إلى السلامة من هر أهل للهداية

ونروى قصة القصة من الشر على روايات شتى يكثر فيها التناقض على ما هو مألوف فى الأساطير الأولى ، فأشدها وأصرمها هذه القصة التى نقشت على هيكل ملث يهيمه أن يبالغ فى بطش الأرباب ومصير العصاة . وأقربها إلى الرفق تلك الروايات التى تقول إن لأرباب راحعوا الإله الأكبر وراح بعصهم يرحم الخعة بالأصابع الحمراء ليحكى بها لون الدم وبزعم للأرباب الساحطين أنه قد أريق منه ما يكفى بلرحر والعقاب .

وكانت فكرة المصريين الأقدمين عن قوة الشر أو قوة الإله الشرير موروثه من أقدم العهود تتسم كما يتسم كل شىء فى مصر القديمة بالمحافظة الشديدة واستبقاء الكثير من محظرات كل عصر سابق وكل عقيدة مهجورة ، فيكثر فيها الاختلاف والتناقض على حسب الخواشى والإضافات التى تلصق بها من كل حقبة مرت بها فى طريقها البعيد .

ففى صورة إله الشر بقية من عبادة لأسلاف وبقية من «متراح السحر بالعبادة وبقية من عبادة الشمس وبقية من تعدد الآلهة بين مصر السفلى ومصر العليا ، وفيها مع ذلك ثارات تدل على أنها فى حملتها معلومات تاريخية وقعية عرص لها التشويه وانطوت فى عداد المجهولات التى يستدل عليها بالتحمين والترجيح

ومهما يكن من خلاف في العقائد المصرية العريقة والقاعدة المطردة في تخصيص بابها أيها مشتملة ولا بد على شيء يتعلق بكيان الأسرة وشيء يتعلق بكيان الدولة وشيء يقوم على الشريعة والعرف الاجتماعي ، أو على ما سمي اليوم بالنظام .

وعلى هذه الصورة تتمثل قوة الشر كما حصلت من الروايات المتعددة على طول الزمن ، فهو صورة الأخ الشرير والحاكم المغتصب والمفسد الذي يعيش في الأرض ويحرج على العرف والعادة ، وهذه هي صورة الإله «ست» إله الظلام في عقيدة الشعب المصري على الأقل ؛ لأن عقائد الكهنة كانت تحالف العقائد الشعبية في فصيلاتها إن لم تخالفها أحياناً في الحملة والتفصيل .

وقد مضى زمن كان فيه «ست» معدوداً من آلهة الحق والاستقامة وكان الإله لموسوم بالشر هو «أبيب» الذي كانوا يرسمونه في صورة حية ملتوية تحمل في كل طية من جسمها مدية ماضية ، تكمن للشمس بعد الغيب فلا يزال إله الشمس «رع» في حرب معها ومع شياطينها السوداء والخمراء إلى أن يهرمها قبيل الصباح فيعود إلى الشروق ، وقد حصص الجزء التاسع والثلاثون من كتاب الموتى لوصف القتال بين الإلهين إله الشمس وإله الليل ، أو إله النور وإله الظلام

وربما كانت القصة كلها في أوائلها المنسية فصيصة التراع على العرش بين أخوين هما أوزيريس وست ، ونقى لكل منهما حرب يعطمه ويتصرله حتى تغلب الحرب لطافر كل الغلبة فصاءل أنصار الفريق المفلوب وشاعت عنه ألباء الشر والتهمة ، وانتهى بتمثيله في صورة «أبيب» إله الظلام وتمثيل أخيه في صورة «رع» إله النور .

ولا يبعد أن يكون في الأمر حيانة روحية أو شهوة من قسبتها ؛ لأن أسطورة أوزيريس تروى أن الإله «رع» فاجأ الملكة «نوت» زوجها وهي في عناق «ست» فلعنهما ولعن ذريتهما وأقسم ألا تند في يوم من أيام السنة ، فلبجأت إلى الساحر الأكبر «توت» الذي كان مشهوراً بعلم السماء وتسخير الأرواح العلوية والسفلية واخترع أيام النسيء الخمسة لتصاف إلى السنة ، واستطاعت نوت أن تلد ولديها التوأمين أوزيريس وست في الثالث من هذه الأيام ، وهي غير محسوبة من أيام السنة التي يطلعها «رع» بعلمه كما عاد من الظلام ، فحرج الولدان وفي أحدهما - أو كليهما - طبيعة الظلمة أو طبيعة النور المختلس بعير علم من إله النور .

أما الرواية التي استغرت عليها قصة أوزيريس وست فهي أن الأخوين تنافسا

فخضع «ست» أخاه وصنع له صندوقا أغراه بالنرول فيه ليفيسه على حسده ، ثم قتله ومزقه وألقى أشلاءه في النيل ، فجمعنها بيزيس - روحة أوزيريس - بمعونة الساحر توت ، وبوآته عرش المغرب فهو من ثم رمز للشمس في حالة الغروب .

وهناك رواية أخرى لعلها هي الأرجح والأقدم في التاريخ ، وخلاصتها أن «ست» لم يقتل أوزيريس ولكنه نازع ابنه «حوريس» فتعلب عليه هذا وحصاه ليحرمه ويقطعه عن الملك في حياته وبعد حياته ، ولم يكن للإله لمعلوب من مكان يعبد فيه غير أقصى الجنوب في مكان «كوم أمبو» اليوم حيث كان معبد التمساح .

ومما يرجح أن القضية في أوائلها المنسية كانت قضية نراع على الملك أن اسم «ست» محى من الهياكل بعد زمن ، وأن أنبأه لادوا بالحبوب حيث يلود كل حاكم منهزم في عاصمة المملكة الشمالية ، وأن منوك الرعاة أعادوا لـ «ست» كرامته حين أرادوا أن يحاربوا السلطان القائم ، فنوا به هيكلا في مصر السفلى وأوجبوا عبادته هناك .

وقد استعيرت صفات «ست» من صفات أوزيريس على التناقض والتقابل من الطرفين ، فكان من صفات أوزيريس «أنه ملك الخلود وسيد الساعات وأمير الأرباب والناس وإله لآلهة وملوك الملوك ، وسيد العالم الذي لا يفنى سلطانه» .

أما صفات «ست» فهي نقض الخلود والسيادة على الأرباب والناس ، فلا سادة له على غير الأرواح الخبيثة والأحياء الدنيا ، ومن ثم يصورونه برأس حيوان مجهول لا يراد به تمثيل حيوان معين ولكنه يمثل الحيوانية في صورتها المهمة ، ويجعلون له أدبين متقضتين كناية عن الإسراع إلى استطلاع الشر ، وذنباً شتلاً كناية عن الخران والأشر ، ويعودون عليه باللائمة كلف أصيبت الدولة بالهزيمة أو أغار على البلاد مغير مقتصب ؛ لأنهم شخصوا فيه عوامل التمرد والانتفاض فربما كان هذا من أسباب خطوته عند ملوك الرعاة فاعتبروه عوناً لهم وحصيماً للسلطان الزائل الذي أعاروا عليه ، وأحيوا أن يتقربوا إلى عاده في الجنوب تمهيداً لصم الأقاليم جميعها في مصر العليا إلى دولتهم التي استقرت بمصر السفلى زمناً ونوقفت عندها جهودهم قبل إجلائهم آخر المطاف عن الجنوب والشمال

ومن أصالة الصيغة الحكومية أو صيغة الحكم والتحكيم في أقدم المأثورات المصرية أن الأساطير العريقة في القدم تروى لنا من أخبار حصومة ست وأوزيريس

أن «ست» اتهم أحاه بالجور عليه فوكلت الأرباب قصيتهما إلى أميها الخاص الذي يعرف أسرارها ويحفظ حكمتها ويؤتمن على قصاياها - وهو الإله توت - فتبين له صدق أوريريس وكذب ست ، وخرج هدا مدينا بالدنب والشر من زمرة السماء ، فما نرح كل مصرى في الزمن القديم تنقرب إلى إله الحكمة عسى أن يتولى الدفاع عنه بعد الموت ويصفه في قصيته كما أنصف أوريريس من أخيه المقتري عليه

وقد شغل «ست» وطيفة صرورية في عهود الأرمات التي نهزم فيها الدولة وتنصب الثروة ويحتل نظم لحكم وتضطرب مرافق المعيشة فقد كان «ست» يسوء وحده بجريرة ذلك كله ، وكانت عليه وحده تعة كل أفة لا يستطيع دفعها ، ومن هذه الآفات ريح السموم وعوارض الحماق والقحط وأوشة المرض وسائر الأمراض التي كانت تنسب من قديم الزمن إلى بجان والعماريت ، وقد كانت عليه التبعة أيضا في بقاء السحر الخبيث لأنه كان على علم واسع بقنونه ولم يكن في وسع الكهان والسحرة أن يعالجوا شروره ويرثو المرضى من آفاته بغير وسائله وأسواره ، ولهذا كثرت في الطب المصري القديم مقاربة الدواء بالتمائم والرقى وكثرت عندهم التمام والتعاويد ومنها ما بقى إلى اليوم في صور الجمل واخشرات والأساور والقلائد التي لا تصنع للربة ولكنها تقرر بالأدوية والعقاقير طلبا لدشماء ، ويقول لأطباء الدين كانوا يشتغون بالطب والسحر إن الدواء هو الذي يشفى ويبرئ من لمرض ولكن التمام والتعاويد هي التي تمنع «العكوس» من فعل أرواح الشر وأطياف الطلام .

وقد كان المراجعة أنفسهم يلجأون إلى السحر لمعالجة الأرواح الخفية ، ويستعان رمسيس الثاني بأصحاب التمام والتعاويد على مداواة أهل بيته ، ولم يفعل ذلك جهلا منه بالطب ولا تعظيما منه تقدر السحر ولكنه فعله إيمان بضرورة اختيار الشريك من جنس المرض ، ولكل شيء أفة من جنسه كما قيل من قبل ويقال في كل زمن .

وبدينا من بقايا قصص السحرة نحة لم يتحيرها جامع الآثار ولكنها اجتمعت لهم من حيثما اتفق بين الأنقاض والمحفوظات وكلها تروى أعمال السحرة في محارة الأشرار كقصص الساحر «أباير» أي فالق الصحر الذي استحل سحره في الاقتصاص من عشيق زوجته فصنع على يديه تمساحا من الشمع أرسله في البركة

التي يغتسل فيها العشيق فالتهمه وذهب ليلع است نأ هذه العقوبة كي تحدث في ملكه بعلمه وقراره ، ومن لم يكن سحره قصاصا من المسيئين إليه وإلى الفصيحة فهو من قبيل «حقة اليد» التي يستخدمها الساحر لاستخراج الفانس المفقودة كما فعل الساحر «ختشا ميخ» حين سقط الخاتم من أصبع إحدى الخواري المصاحبات للملك «سغرو» في روقه فحسّر الساحر الماء وكشف عن أرض البركة حيث استقر الزورق إلى جانب الخاتم المفقود ، ثم تلا الساحر عرائمه فلاقى الماء من تحت الزورق ورفع رويدا رويدا حتى استوى على البركة كما كان .

يقول صاحب كتاب هجاعات السحر في مصر القديمة :

«إن السحرة المصريين كانوا على علم تام بلزوم الفضيحة والظهارة للساحر الطبيب ، وفي اعتقادهم على الدوام أن الآلهة إنما يقترب منها كل طاهر القلب سليم النية ، وكانوا ينشأون على الإيمان بأن العث ومطاوعة الشهوات تجور على العقل والبدن وتعوق طائب المعرفة»^(١)

ومن أجل هذا كانوا يقسمون عم الأسرار إلى أقسام ودرجات ، فمنها العلم الذي يستعان فيه بقدرة إله الخير على إله الشر وجوده وقومه الصلوات والرياضات الروحية .

ومنهم العلم الذي يستعان فيه بقدرة الشيطان الكبير على الشياطين الصغار ، وقد يدخل فيه السحر الخبيث بحكم الضرورة على غير اختيار .

ومنهم السحر الخبيث للأغراض الخبيثة ، ولا يليق بالكهان لأبرار أن يشتغلوا به وإن وحب عليهم أن يتعلموه لاتقاء ضرره والتعود من سوء عفاه .

ويمكن أن يقال على الحملة إن الشر في العالم كله إنما كان في عرف الحضارة المصرية «حرمة اجتماعية وطنية» غير مشروعة ولم يكن عصرا أصيلا في تركيب الدنيا أو تركيب الإنسان ، وقد بلغ من تطور هذه العقيدة في تفكيرهم الديني أن حناتون استعسى عن الحميم وأنكر دعوى أوريريس في السيطرة على عالم العقاب بعد الموت .

ولا يظن أن تاريخ «ست» قد استوفى حتى اليوم دراسته المثلى في علوم الآثار أو في المقابلة بين الأديان . فإن الذي عرف منه إلى يومنا هذا يسوغ القوب بكثير

(١) The Occult Arts of Ancient Egypt by Bernard Bromage

من الفروض والاحتمالات التى كانت تلوح للظرة الأولى صربا من الخيال أو اللعب بالخيال ، ولا تعنى بتسويغ القول بها أنها ثابتة أو أنها راجحة مقبولة على علاتها ، ولكننا نعنى أنها فروض واحتمالات لا ترفض ولا يرال من يرفضها محتاجا إلى سند وثيق

فالمؤرخ بلوتارك يذكر فى كتابه ، يريس وأوزيريس أن «ست» كان يلقب «يسون» وأن هذا اللقب معه العقبة المعترضة فى طريق يقصى إلى الخير لتتحول به إلى الشر ويقول فى الفصل الثامن والعشرين إن الأساطير تروى أن اليهود هم أبناء «ست» من أتان ، ويعلق المؤرخ «أوليفيه بورجارد» على ذلك فى كتابه عن الأرباب المصرية فيقول إن هذه الأسطورة أصل الخرافة التى شاعت فى تقديس اليهود فى هيكلمهم لرأس حمار^(١)

ويقول غيره بين الحد والهزل إن شمشون حاربهم من أجل ذلك فك حمار ، وإنهم لهذا يتركون بالمخلص الذى يأتى فى آخر الزمان على حمار بين أتان وقد تكرر القول بأن كلمة «ست» و«ستى» أو الشيطان العبرية من أصل واحد ، ولا براع فى اقتباس اليونان والعبريين من المصريين فى تصوير «الشخصيات» العنوية والسفلية ، فليس من لأنة أن نجزم ببطلان التشابه فى النمط بين الفرعونية والعبرية مع عبادة الموك الرعاة للإله الفرعونى كما تقدم ، وليس من الأنة أن نجزم ببطلان التشابه بين مذلول اسم ست عند المصريين ومذلول اسم «شيطان» Diabolis باليونانية وكلاهما يفيد معنى الاعتراض والدخول بين شيئين للتعويق والإفساد ، وقد شاعت بحلة إريس وأوزيريس وغيرهما من الآلهة المصرية بين بلاد اليونان فى آسيا الصغرى وبين الأثيوبيين واليمانيين فى الجنوب ، وقال ديدورس الصقى إنه رأى فى «سسا» من بلاد العرب عمودا للإله أوزيريس وشيئا من قصته ملصقا على ذلك العمود .

وقد ختم الأستاذ بورجارد كتابه الذى أشرنا إليه أنها عن الأرباب المصرية قائلا . إن التحلة المصرية نقلها العبريون من مصر إلى الشام واليمن ، ونقلها الإغريق إلى اليونان ونقلها الفينيقي قدموس إلى اليونان وإلى بلاده ، وإن أعظم العقول اليونانية كانت تهاجر إلى مصر لتدرس المعرفة المصرية فى طيبة وميف وعين شمس

(١) صفحة ٢٠٥ من كتب الأرباب المصرية

وسايس ، وعدد منهم ليكرغ وصولون وطاليس وهيثاعورس واهلاطون وايدوكس ، وعدد بعدهم أعم من تلميذات الثقافة المصرية بين أهل الكتاب وغير أهل الكتاب ، ولا شك في شيوع عقيدة الثواب والعقاب وعالم الأبرار وعالم الأشرار في الديانة المصرية القديمة ، وليس من العريب أن تتخلف منها بعض المصطلحات والمسميات ، وليس من الأمانة على الأقل أن ينتهي تاريخ «ست» حيث انتهى في هذا الموضوع وقد قيل أن العزى هي إيزيس وأن مناة هي منوت أو موت ، وأن النصوص متقاربة بين بعض المزامير وبعض أناشيد أتون ، وأن أيوب عليه السلام كان يسكن إلى جانب مصر ويتحدث عن أهرامها التي تسمى بتحليلد الموتى ، ويكافح الشيطان الذي يوسوس له ويعريه بالكفران والعصيان ، وأقل من هذه الملاحظات تحقيق بالتريث عمله وترك الباب مفتوحا بعد لما تأتي به الكشوف وتسمر عنه المقارنات .



الحضارة الهندية

ترجح فئة من علماء المصريات أن الديانة الهندية القديمة دخلتها مقتبسات كثيرة من ديانة المصريين الأوائل ، ويرى برستيد واليوت سميث أن معظم هذه الاقتبسات من كتاب الموتى ومن شعائر تقديس الملوك التي يستطيع التحقق من سبق الحضارة المصرية إليها .

ويرد ذكر مصر في كتب البورنا التي جمع فيها الهود الأقدمون قصص الآلهة وبعض الملاحم الكونية المتوارثة عن آنائهم الأولين .

ولكن صيغة الدانة الهندية تقرر الحدود التي تلغها تلك المقتبسات ولا يمكن أن تذهب بعيدا إلى ما وراءها ، فهي لا تكون بطبيعة تلك الديانة إلا من قبيل الشعائر والمراسم ولا يتأتى أن تتخطاها إلى أصول الديانة في جوهرها ، إذ كانت الديانات الهندية والمصرية على اختلاف كاختلاف النقيضين أو الصريين المتقابلين ، وهو أراد أحد أن يضع دياسن ينوخي فيهما التقابل في العقائد الأساسية التي تدور عليها كل ملة لما استطاع أن يطلع في هذا التقابل ما يلعبه أهل مصر وأهل الهند في العهود المتتابة على غير قصد بطبيعة الحال .

والعقائد الأساسية التي تدور عليها كل ملة تتناول وجود الإنسان ونظام المجتمع ووجود العلم كنه أو الوجود على إطلاقه ، وفي هذه المسائل انشلت نقب الديانتن العريقتان موقف التقابل من طرف إلى طرف ، كأنهما عامدتان إلى تصوير سعة لأفاق التي تحيط بالعقائد في صمائر بنى الإنسان

فالديانة المصرية تصون جسد الإنسان وتستبقية إلى الحياة الأبدية . والديانة الهندية تنكر الجسد وتعلم أتساعها أن لروح تنسج جسدها مرة بعد مرة ولا تنال الخلاص إلا إذا فنى الجسد كل المصاء .

والديانة المصرية تعتردوم الأسرة آبة من آبات النعمة الإلهية ولا تعرف دعاء إلى خالق الكون أحب إلى الداعين من بقاء تراث الآباء والأجداد واتصال العصب إلى آخر الزمان ، وعلى نقص ذلك ديانة الهند التي تعلق النجاة بالإفلات من

دولاب الحياة والموت والرحوع إلى «السرفانا» من طريق «الموكشا» أى احتساب العلاقة الجنسية ولو فى حالة الرواح .

وتؤم الديانة المصرية القديمة بأد العالم المحسوس حق وخير فتجعله مثالا لعالم الخلود ، وعلى نقبص ذلك ديانة أهل الهند التى تحسه شرا محضاً وباطلاً موهوماً ومنعاً لجميع الشرور التى تعترض عالم الحقيقة وتشعل الروح بالأعراض والقشور .
وبكفى هذا الاختلاف بين الديانتين لامتاع التشابه بينهما على الخصوص فى مسألة الشر وقوة الشر وعلاقة هذه القوة بومس الكون الخالدة سواء منها ما تتمثل فى صورة «الدات» الإلهية أو ما تتمثل فى الساموس الأعظم أو «الكارما» الذى يمس له دات .

على أن الديانة الهندية تحير علماء المقارنة بين الأديان أشد الحيرة فى أمر «الشخصية» التى تقابل شخصية الشيطان أو قوة الشر العالمية عند أصحاب الديانات الأخرى ، وأسباب هذه الحيرة متعددة لا يصادفها العلماء بهذه الكثرة وبهذه الصعوبة فى غير الديانة البرهنية وما تعرض عليها

من هذه الأسباب أن الهنود الأقدمين قد تعافوا عنى البلاد بعقائد مختلفة يوشك أن تنقص بين قبيل وقبيل من أنسابهم واللاحقين وربما تعدد «القادمون» أن يهدموا عقائد من تقدمهم فلا سجدوا كل النجاح ولا يتركوها سليمة من التصارب والاحتلاط ، ومن ذلك فى هذا الباب عقيدتهم فى العفاريت الحسنة أو العائشة التى يسمونها بالـ «ركشا» ويسبون إليها أعمالاً كالأعمال الشياطين فى الديانات الأخرى ، فإن الباحثين فى اشتقاق الكلمة يقولون تارة إنها تفيد معنى الحراسة ويقولون تارة أخرى إنها الاسم الذى كان يطلق على الهمج الأولين الذين سكنوا الهند قبل إعدرة لأريين عبيها وكاست لهم حراسة عنى الطرق وعنى يبيع الماء ، وقد رشح فى الأذهان من أحاديث القتال بينهم وبين الآيين أنهم أعداء البشر وأنهم يتربصون بالناس كما يتربص الناس بهم فى كل مكان ، فلا ينجو أحدهم من الآخر حيث أصاب العرة منه ، ثم نطاول الرمن فانقسموا فى أساطير العامة إلى أقسام ثلاثة أحدها يشبه أرواح «اليكشا» الربيثة التى تهيم على وجهها ولا تؤدى أحداً إلا أن يتعرض لها ، والثانى يشبه العصاة لمتبردين من الجن وبغادى الإنسان الداء العداء ، والقسم الأخير يلود بالمفاهيم والصوامع ويحالف الموت والحراب ، ويقول

من يرعمون رؤيتهم إنهم مشوهون ، بعضهم ذو رأسين وبعضهم ذو ثلاث أرجل ،
ومهم من له عين واحدة في رأسه ومنهم من له عدة أعين ، وكلهم على خلاف
النشر في التركيب .

ولا ينسب إلى هؤلاء «الراكشا» عمل من أعمال الإغراء والإغواء ولكنهم قد
يعتصون النساء عنوة ويتلصصون في الطرق المقفرة ويستباحون لأذى للكيد
أو للعسك والدعانة ، ورئيس هؤلاء «الراكشا» المسمى «رفانا» هو الذي يختطف
الحسناء «سيا» روحه البطل «رام» كما جاء في ملاحم «الريجيبيدا» ثم حملها إلى
جزيرة سرنديب ولم يستطع روحها أن يهتدى إليها ويخرجها من أسرها إلا بمعونة
القرود هنومان .

فالشيطان في صورة «الراكشا» هم «الشر» الذي أنعصه الآريون وصوروه لأسائهم
في الصورة التي تفرهم منه وتغدرهم من كيده ، واتهم عندهم بما يتهم به كل
شعب مهروم ستأصله أعداؤه ويدفعون به إلى أقاصى الأرض وزوايا المدن
ويستثيرونه أحيانا من فرط الظلم فيثور ويهمونه أحيانا فيهم على وجهه عاجزا عن
الأذى قابعا بالسلامة أو متحفزا للانتقام .



والى جانب التنابح في الديانات والأقوم المقيمة على البلاد يقوم السبب الشامل
في جميع العهود ولا سيما العهود الأخيرة التي تطورت فيها فلسفة الهياكل ووجد
فيها الكهان انفسرون والمفكرون على أعقاب الكهان المنسكين أو الدهاة
المتحكمين ، ففي هذه العهود الأخيرة تمكن الاعتقاد ببطلان العالم المحسوس وعلبة
الشر على طبيعة الوجود كله فلم يكن في «الوجود» الشرير محل خاص لقوة تفسده
وتدحض فيه الحق أو تنقص فيه الخير ، وما فيه من حق ولا حير إلا أن يمارقه
الصالحون الناجون بأرواحهم إلى عالم العناء .

وقد اشتمل الثالث الأبدى في الديانة السهرمية على ثلاثة أرباب هم
«براهما» الإله في صورة الخالق و«يشنو» الإله في صورة الحافظ و«شيفا» الإله في
صورة الهدم ، فكان الهدم - من ثم - عملا ربانيا يقوم به الإله في صورة من صورته
ويصف به الحق من هذا الوجود الباطل الذي ينبغي أن يروى ليمهد سبيل الطهارة
والصفاء ، وبهذه المثابة يضيق مجال الشيطان ولا تمس الحاجة إليه في نظام الوجود .

ومن الصعوبات التي تخير علماء المقارنة بين الأديان أن المتناسخ أو تعدد الصور للروح الواحد عقيدة عميقة متشعبة في اندبابة البرهمية وفروعها ، فبست هي مقصورة على الإنسان في أدوار حياته المتعاقبة ولا على الحيوان في أشكاله المتنوعة بل نعم الوجود كله من الأرباب العليا صور متعددة تقترون النعمة ببعضها وتقترن البقرة بعيرها ، فيدين أناس للإله «شيفا» على أنه مصدر الخير وقائد الأرواح في طريق السماء إلى حظيرة «الوجود» الأسى ، ويرهبه أناس آخرون على أنه سلطان العصب والىكاة فلا رحمة عنده ولا موئل من قصاصه وتقلب أطوره

وليس تعدد الصور كل ما يواجه العداء من أسباب الحيرة وتناقض الصفات في الإله الواحد ، بل هناك سبب آخر يصاعف هذا التعدد ولا يجمع «الشخصية» الربانية الواحدة أن تتولى أعمال العدد العديد من الشخصيات الربانية في معظم الديانات ، وهذا السبب هو إضافة الـ «شاكتى» أى قرينة الإله الأثوية إلى وظيفته في المسائل الدنيوية .

فكر إله له «شاكتى» معنى القرينة أو الروحنة ، هى التى تسوب عنه فى «شئون الدار» أو الشئون التى يتركها ولا يتمرغ لها إشارا بعمل فى الأفق العلوية .

وتعود الأقاويل إلى «الشاكى» فجعل لها طبيعتين : طبيعة بيضاء منها الرفق والرحمة ، وطبيعة سوداء منها العنف والقسوة ، وقد تتسمى الطبيعة الواحدة باسمين فتصبح «الشاكى» الواحدة ذات أربعة أسماء غير اسمها الأصلي ، وعلى هذا المثال تسمى قرينة سوما إنه الشر باسمها الأصيل «ماهسواري» ثم تسمى باسم «أوم» واسم «حورى» حين ترحى منها الرحمة والمودة وتسمى باسم «حورى» واسم «كالى» حين تخشى منها البقرة وسوء السية واسم «كالى» الآخر هو الاسم الذى يعرفه به عباده الذين اشتهروا باسم الحياقين وأتحذو شعارهم فى القراس البشرية قتل الصحايا بغير إراقة الدماء .

وقد عاشت جماعة الحياقين زهاء ستة قرون تتعبد للإله «كالى» بحرق صحاياها وانتقرب بأسلابهم على محاربيها ، وتتحيل الآلهة على مثل امرأة عاشة تحبط حصرها بنطاق من الحماحم ولسكاكير وتحمى كل من نطعها وتقترب إليها تلتك القرابين وعقيدتهم فى ذلك أن الإله «مشو» يحافظ على لأحياء فتكاثر عددهم ويعحر الإله «شيفا» عن ملاحقته فى مهمة الإبادة والإهداء ، فيستعين «الشاكى»

كالى على هذه المهمة ويتربل إليها عابداها بالدعوة على القتل مع اجتناب سمك الدماء لأن الدم الذى يراق على الأرض تتولد منه الحياة .

وحماة الخناقين هذه طائفة قليلة بين الملايين من الهنود الذين ينكرون عاداتها ويسفهاون أحلامها ويحرمون قتل الحيوان ، بل قتل الهوام والحشرات فصلا عن الإنسان ولكنهم لا ينكرون ربوبية «كالى» ولا يتركون عبديتها على النحو الذى يرتضونه ويحسبون أنه أقرب إلى رصاه ، ومن ذلك أنهم يترهبون أو يكفون عن النسل فيرضونها بغير حاجة إلى قتل الأبرياء .

ولكن الأسباب فى جملتها هى التى تحير علماء الأديان كلما أرادوا أن يحصروا الشر فى «شخصية شيطانية» تمحل بقوتها عن القوى الإلهية فى أفايمها المتعددة . ولكنهم يشوبون فى النهاية إلى عقيدة واحدة مشتركة بين التحل والمذهب ولا حيرة فيها عند تصوير الشر فى صورته الكونية الشاملة ، وهذه العقيدة هى الإيمان بأن العالم المحسوس شر وباطل وأن كل ما يربط الإنسان به شر وباطل مثله ، وتشتمل روابط الإنسان بالعالم المحسوس على كل مطمع وكل شهوة وكل أمل يقته بلذته من لذاته أو قية من مفتباته ، وتتجمع هذه المن قاطبة فى «المرأة» لأنها سبيل الروابط الدنيوية التى تقيد الحى بالدورات الأبدية فى دولاب الولادة والموت ، وأن لعنة الموت لتلاحق كل من يولد ويلد حتى يقطع عن النسل ويشوب إلى «الرفاء» بغير علاقة ترده إلى هذا العالم المحسوس ، ومن يقضى به المطاف فى الأمان المتطاولة إلى عاية كل مطاف من العناء والسلام .

وبلاحظ أنهم يحيلون الأمر على «الأبوثة» كلما عرصوا لعمل من أعمال الأرباب يرهون عنه الآلهة ويلحقونه بالشواغل الدنيوية الأرضية

وبلاحظ كذلك أنهم يقوون عن العالم المحسوس كنه إبه «مابا» أو وهم وضلالة ، وأنهم يصورون هذا «الميا» فى صورة أمشى شديدة الفتنة والغواية ، ويمثلون جمال العالم المحسوس بحمال الأشياء التى تستعين بالعريرة الجنسية على خداع المقتونين عن الحقيقة ، فيحسبون اللذة نعمة تستعى وهى شفاء أبدى لا يؤدى إلى عبر الشفاء .

وليس فى الديانة الهندية وفروعها المتشعبة شخصية وحدة تشبه شخصية الشيطان غير الرب الذى يسمونه «المارا» من انوث ويقولون إنه يسيطر على السماء

السادسة ومن دوابها من العوالم الأرضية ، كأنهم جمعوا فيه فتنة الحياة الدنيا
مشخصة معروفة باسم واحد بدلا من تعميم القول على الفتى التى تساور النفس
ولا تتمثل لها ذات فى الحس أو الخيال .

وهذا «المارا» هو الذى قبل فى قصة «نودا» إنه وسوس له وألح فى وسواسه
ليشعله عن السك ويصرفه عن مسلكه من الحكمة وهو مسلك الرهد والاعتدال
فالشر الكونى هو الشر النفسى يحامر الضمير ويرين له ترك الحكمة والإقبال
على الأوهام والأباطيل .

وديانة الهند عسى هذا لم تبدع شيطانا أو أرواحاً شيطانية غسر الأرواح التى
يسمونها بالراكشا ويردونها إلى الشراذم المشردة من أثناء السلاسل الأصلاء الدين
صعدوا للأريين زمنا ثم استكانوا على مضض وتربص أو على هوان واستسلام

أما «الشيطان الكونى» فهو مرادف للفتنة وكل ما يغرى النفس بمطامع الحياة
ويصعب على المتتبع للأعمال التى تسب إلى بعض الآلهة و لأعمال التى
تسب إلى الشياطين الهادمة أو المعادية للجنس البشرى أن يفرق بينهما بغير
الرجوع إلى النيات . فقد تتشابه فى الهدم ولا تفترق عن القصد والنية ، فما كان
هدما للقضاء على مطامع الدني وحبائنها فهو خير ، وما كان هدماً للتنافس على
هذه المطامع والوقوع فى هذه الحبائل فهو من عمل الشيطان كفى كان الاسم الذى
يطلق عليه .

بين النهرين

ظفرت بلاد «بين النهرين» بعناية من المؤرخين الدينيين وعلماء المقارنة بين الأديان لم يطعم بها قطر آخر لأنها ميدان للبحث لا يضارعه ميدان آخر في اتساعه وامداد تاريخه وتعدد أقوامه وتيسر البحث فيه لنوعين من المقارنة يندر جدا أن يتيسر في رقعة أخرى من الكرة الأرضية ، وهما مقارنة الأديان ومقارنة الأجناس في وقت واحد ، إذ كان وادي دجلة والفرات وطنا قديما أقام فيه الآريون والساميون والطورانيين ، وسواء صح أن السومريين الذين أقاموا فيه ربما قد وفدوا إليه من الصين أو لم يصح هذا القول العلب فقد صح أن «برادشت» سى المجوسية عاش بين الطورانيين والمعول حقبة من الزمن ووفق بين عبادتهم وعبادة الثنوية الخوسية بعض التوفيق

وهذا التعدد في اللالة يصاحبه تعدد أحرف في لأحول لاجتماعية بين مجتمع المدن ومجتمع الرعاة ومجتمع الرراعة الدائمة ومجتمع الزراعة المتبقية ، وبين أناس يبنون الهيكل وأناس لا يعرفون الباء ، أو أناس يعبدون النار والكواكب وأناس يلصقون عبادتهم بالأرض ومعابدها واعتصر الطسعة التي تهمن على أرواقهم ومساعبهم .

وتتصعف العناية بالديانات التي نشأت بين النهرين لسبب غير هذه الأسباب يهتم به الأوروبيون وأتباع الأديان الكسائية على العموم ، لأن مراجع الأديان الكتاتمة تبتدئ في بلاد النهرين صد عهد إبراهيم الخليل إلى عهد الشريعة الموسوية وشريعة حمورابي إلى عهد السبي واحتلاط بنى إسرائيل بالانس والمدين واقتناسهم ما افتسوه منهم في العرف الدينى والشعائر التي لها اتصال بمراسم العبادة ، ثم تأتى عبادة (مترا) وعبادة «المانوية» وقد زاحمتا المسيحية مراحمة شدينة في دولة الرومان في شواطئ آسيا إلى الجزر البريطانية .

والعقائد الدينية التي نشأت قديا حول بلاد النهرين لم تزل محور البحث ومرجع المقارنة والاستشهاد في جميع الديانات الكبرى ، وأولها المسيحية التي يدين بها الأوروبيون وهم أول من درس المقارنة بين الديانات على السبع الحديث

ونحن في هذا الفصل لا نقصر الكلام على السلاسل التي تحصرها لأوضاع الجغرافية بين النهرين ، ولكننا غصى معها إلى حدود الحصار التي تأثرت بها أو أثرت فيها من وراء النهرين شرقا إلى أرض فارس ومن وراءها غربا وحنوا إلى الأقطار العربية أو الأقطار السامية التي كان لها اتصال بالدولة القائمة في بابل وأشور ، ولا حاجة بنا - في هذا الفصل - إلى استقصاء العقائد والشعائر في هذه الرقعة الواسعة من المساكن والسكان ، وإنما نطرق إلى عقائدها وشعائرها من جانب الصلة بموضوع الكتاب وهو الكلام على «الشيطان» أو قوة الشر العالمية ، وقد كان لحصار النهرين صلة وثيقة بجميع الأمم التي دحست في عداد المؤمنين بالأديان الكتابية ، فليست في حصارات العالم حصارا أحق بالدراسة في هذا الصدد من الحصارين البابلية والفارسية ، وكلتا هما تدخل في العنوان الشامل الذي يطلقه على أقطار «ما بين النهرين» بشيء من التحوز من الوجهة الجغرافية ويعبر بحوز من الوجهة الثقافية .

نحن نرجع إلى «بابل» لفهم التطور في معنى «الخطيئة» مبرا من معنى الدنس أو العيب أو الرذيلة أو الجريمة .

ونحن نرجع إلى «فارس» لفهم التطور في مذهب «الثوية» أو النزاع بين سلطان الخير وسلطان الشر في الأكران العليا والسفلى ، ومنها الكرة الأرضية .



إذا كنا نعرف للحضارة المصرية صبغة تنتمسها في جميع مظاهرها وهي صبغة الحكم والتشريعة ونظام الدولة ، فالصبغة التي تعلب على حصار بابل - على هذا النحو - هي صبغة التنجيم والأرباح الفلكية ، وسرى أن علماء المقارنة بين الأديان لم يلتفتوا إلى هذه الناحية في علاقتها بفهم المقصود من معنى «الخطيئة» مع أنها - على ما نرى - لا تفهم حق فهمها ما لم تتدنى من هذه البداية

لقد عرف البابليون رصد الكواكب من أقدم الأزمنة ، وعلقوا مصائر الناس وأقدارهم بسعودها ونحوسها ، فلا يسعد أحدهم نعمة السماء ولا يشقى بعضها إلا وهو في الخاليتين عرصة للقصاء المسطور في زياح النجوم .

وقد شأ عندهم علم الفلك بحسبه وتقديره مصاحبا لعدم التنجيم بحوافاته وأوهامه ، ولم تكن كل هذه الخرافات والأوهام خداعا من الكهان والسحرة ، بل

كانت عندهم عقيدة يصدقونها ويمرحونها بالعصص والألعار التي يدركها العامة ولا يدركون ما وراءها .

وما من قصة بلغتنا من أرض نابل في تاريخها القديم ، لا وهي قصة من قصص المباشرة بين الأرض والنجوم في شكل من الأشكال التي يفتن فيها الحس والخيال فربة الأرض «تيامات» تتحدى السماء فتستعين بالطوايف على حكم أقطارها وتحلق من حوافها الحيات والحيتان لتوطيد سلطانها ، وبرح نابل يقيمه المتمردون من الشر ليرتفعوا به إلى صاحزة الأرباب في سمواتها ، وكل ثورة من ثورات الأساطير المعروفة فيما هي في مملولها حروح من الأرض على إرادة السماء لا تلت السماء أن تكبحه وتروصه على الطاعة الواحدة وعلى التسليم لها بحقوق الصلاة والعربان .

فم يكن لسابلى من هم في سره وعلايته إلا أن يستطلع إرادة النجوم ويخرج بالإذعان لها وموافقة هواها من عداد «المنحوسين» إلى عداد السعداء .

ويسأل العرفين بالتنجيم . ماذا تريد النجوم؟ وماذا كتب لى في كتابها المرقوم؟ فما كان رضا للنجوم فهو الفلاح ، والتجاح ، وما لم يكن رضا لها فهو الحبسة والصياع .

لم يكن الأمرها أمر الحس والقبح أو أمر الصلاح والفساد أو أمر الاستقامة والإحرام ، كلا . وإنما هو أمر الرضا من كواكب السماء بما يوافق المسطور المكتوب أو أمر الغضب الذى يحيق من يحانف قضاء الكواكب في مجراه

والعارق بين الأمرين إنما هو الفارق بين الموقف السعيد والحائب المنحوس ، أو بين من يسلك سبيل السلامة ومن يفتروا حماقة الخلاف بغير رجاء



ويسعى أن نفهم هذا الخلاف بالمعنى الذى يميزه من معنى الدس ومعنى العيب ومعنى الرذيلة ومعنى الجريمة ، فإنه يسايرها في طبيعته ولا يتأتى للإنسان أن يعرف موضع التحريم منه ، لا إذا عرف مشيئة الله فيه ، وليست الذنوب أو العيوب أو الردئ أو الجرائم بهذه الصفة الخاصة بين المحرمات لأن الإنسان قد يعرفها سدهته أو بتعليم المجتمع الذى يعيش فيه .

فاندب إساءة قد يحنيها الإنسان على من هو مثله أو من هو دونه وقد يصاب بها كما يصيب ، فهو مسألة إصاف أو إجحاف في المعاملة

والعيب نقص يعتري الإنسان من عجزه أو جهله ، فهو مسألة كفاية وقصور .
والرذيلة إسفاف يتورع عنه صاحب الفصيلة الذي يروض نفسه على الكمال ،
فهى مسألة كرامة وابتدال .

والجريرة عدوان بغير الحق يتعارف الناس على إنكاره ومجازاة ماعله فهى مسألة
قانون وقضاء

أما الخلاف الذى يسمى «خطيئة» فيكفى فيه أن يعمل الإنسان ما لم يردده الإله
ولو لم يكن من ورائه صرر يعلمه ، لأن الخلاف قلة إيمان بالمشيئة الإلهية فهو مسألة
أدب أو سوء أدب مع الله .

ولهم الخطيئة على هذا الوجه مشابه فى علم السحر والكهانة تقربه من الأدهان
على بحر سائغ فى كل تعليم فليس من أدب التمييز الذى يتلقى خدماً بالسحر
والتجسيم أن يجترئ على كشف القناع عن سر يحجبه المعلم إلى حين ، رعيه أن
يعمض عنه عيبه ثقة به بما يختاره له معبده من درجات المعرفة على حسب
مواقبتها المقدورة ، فبى حاله يوم متعجلاً أو مسترياً فهذا الخلاف سوء أدب
أو جهل يخرجه من عداد الصالحين لعلم الأسرار .

وهذا رسم الخطيئة بين سائر اخرمات! رسمها أنها تحرم يباط عشيئة الله ولا
يطلب من العباد أن يتحنوه لسبب غير هذه لمشيئة ، وإن خفت عليهم وحوه
الحكمة فيها

وقد أورد برتشار^(١) فى كتابه عن شعائر الشرق الأدنى العابرة وعلاقتها بالعهد
القديم ، ما ذبح من الصلوات السامية المخفوظة يعرض أصحابها التوبة ويطلبون العفوان
لأنهم أكلوا طعاماً محرم ووطئوا على بقعة محرمة بغير علم ولا احتراء على معنة
العقاب

وقد يريد المسألة توصيحاً حين نقول إن الإله وحده هو الذى يحق له أن يحرم
شيئاً ولا يذكر سبب تحريمه ، لأنه هو وحده الذى يعلم مصلحة الخلق جميعاً فيما
يسبحه لهم وبها هم عنه ، فأما غير لإله فالحرمات التى ينهى عنها لغير سبب لا
تدين أحداً بالخطيئة وكل ما يخشاه من إتيانها أن يعرض للعصب أو للعقاب .

فلا جرم تتقدم السلال الباطلية غيرها من البلاد لأنها تقدمتها فى كشف الطوائع

(١) Ancient Near Eastern Texts by Prichard

ورصد الكواكب وتفسير ما تنبئ عنه من صعود أو بحوس ، وتستحيل السعود والبحوس إلى مساحات ومحطورات ومخللات ومحرمات حين تستحيل الكواكب أربابا علوية تريد السعد والنحس بحساب وتقدير .

أما احصة التي ساهمت بها عقيدة فارس في تاريخ الأديان ، وتاريخ قوة الشر على التحصيل ، فهي «الثوية» أو تنازع النور والظلام على سيادة الوجود .

ويظهر أن الثوية هذه عريقة الأصل عميقة الخدور في البعع المدرسية وما حولها ، فإنها بعد تهذيب الأديان الكتابية لها لم ترل متعددة في أفكار بعض الكتابيين ممن ينتمون إلى اليهودية أو الإسلام ويقسمون في أطراف البلاد إلى كانت تحبط بها حصارة ما بين الهريين منذ أربعين قرناً أو تريد ، وقد روى الدكتور يوسف وولف صاحب الرحلة إلى بحارى «من سنة ١٨٤٣ إلى سنة ١٨٤٥» أن شيخاً يهودياً يدعى «بائان» زهره ومعه درويش من «كشعار» فسأله الدرويش ممحماً .

من خالق النار والماء؟ قال الدكتور وولف فلما أجبته أنه هو الله ، صاح بي قائلاً صه! لا شيء من ذلك ، لأن النار والماء عنصران مهذبان ولا يسمى لله أن يخلق اذهلكات ، وعليك أن تعلم أن الكون يحكمه إلهان أحدهما إله الملائكة الأعلى وهو رب الخضر الذى خلق نوراً لا يحرق وحقن الورد والليل ، وقد تصدى له إله العالم الأسفل فحجب عنه حقائق الخير رشتها حرباً لا تزال حتى اليوم حامية الأوار ، فمن عمل خيراً من الناس فهم حدام الإله الأعلى ، ومن عمل شراً منهم فهم حدام الإله الأسفل ، وسوف تحتدم الحرب مرة أخرى فصعد الإله الأسفل إلى السماء السابعة فخلق معه آلاف الآلاف من جنده وظهر سها الحيات والثعاس ، فيدور القتال سحالا حتى يهزم الإله الأسفل ويلقى عصا الطاعة لإله السماء

وأغرب من بقاء هذه العقيدة في موطن الثوية أنها بقيت بين الأوروبيين إلى القرن السابع عشر وكانت لها محل ومعدن من بلاد البلقان إلى العواصم الفرنسية في الشمال والجنوب ، وإذا صحت بعض الأخبار - مما يشير إليه في الفصول التالية - فقد بقيت شعبة منها إلى القرن العشرين تستر باسم الماسونية وتستقبل المصلين في باريس حيث يقربون القرايين إلى الشيطان ويكررون التلاوات التي كانت ترتل في معابد الحبل الشيطانية قبل ثلاثة قرون وتدور خلاصتها على الإيمان بسيادة الشيطان على الدنيا واعتبار لمادة حلقة شيطانية يتبره عنها إله السماء ولا تسرى عليها أوامره ونواهيه .

وقد تطور الإيمان بالثنوية أو هو قد ترقى مع الزمن في القرون الأولى كأنه
جذر عريق لا يقتلع مرة واحدة ولا يزال قابلاً للنمو في مست بعد منبت من
العبادات الخالية .

فكان الوجود قسمة متساوية بين النور والظلام كما يتساوى السهر والليل ، ثم
ترقى المؤمنون بهذه الثنوية فأصموا بإله واحد يسمونه «روان» وقالوا بولدين له كانا
في رحم الغيب فوعداً أكبرهما بالسيادة على الدب فاحتال إله الظلام منهما على
احسروح أولاً لعلمه بمسالك الظلمة فكان له السلطان على الرغم من أبيه إنحماراً
لوعده ، ولم يستطع الأب إلا أن يعد ابنه إله البو بالعلبة بعد حين يقسرونه بتسعة
آلاف من السنين الكونية!

هذان الإلهان هما «أورمرد» و«أهرمان» أو الروح الطيب والروح الخبيث .

ومن عقائد بعض الثنوية أن الخلائق النابعة من صمغ إله السور وأن الخلائق
الضارة أو التي لا نفع فيها من صمغ إله الظلام

وبعض طوائف الثنوية يعتقدون أن احسد كله شر ولكن الأرواح العلوية أرادت
أن تحارب جنود الظلام فأبأها الإله الأعظم أنها لا تقوى على حربها فغير أحساد
كأجسادهم ، وبقيت على صفائها ، وإن شاءت لبست أجساداً من المادة فكافحتها
بسلحتها ، وهذه هي الأرواح العلوية التي بقي الأكتشرون منهم على صفائهم ورأب
العناية الجسدية على بعضهم فغستهم الغم والشهوات .

ويعتمد هريو من الثنوية أب آدم من حقه للشيطان ولكن الأرواح العلوية تعالج
أن تصلحه وتقوم أوده وتستخلصه من وهذه الطين نفس من السور ندسه له في
وحدانه فألف الحياة الأرضية ويتطعم ببصره إلى السماء .

وجاءت المانوية فانتشرت في بقاع الدولة الرومانية بعد ظهور المسيحية ،
وبافستها أشد منفسه هي آسيا الصغرى وبلاد الروم من آسيا وأوروبا ، قامت
معاهد الديسين بالكلام عن الشيطان واستنصوب أنس من آباء الكنيسة أن يتبرعوا
شعائر عباد النور فجعلوا يوم الأحد يوم الأسوع المختار لأنه كان مخصصاً لعبادة
الشمس^(١) وجمعوا اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر يوم الميلاد لأنه كان

(١) ومن هنا بقى اسم Sunday

يوما يصرف إليه المسيحيون إلى شهرت الوثنيين لاعتقاد هؤلاء أنه اليوم الذي يقصر فيه الليل ويطول النهار فهو هزيمة لإله الظلمة ونصر لإله النور

وقبل المسيحية نظر اليونان الوثنيون إلى أصول العقيدة الشوية فحولوا أسطورة زرون الذي ولد له «أورمرد» إلى أسطورة كروئوس الذي ولد له زيوس رب الأرباب وسيد الملأ الأعلى ، فحق يهتم الباحثون الدينيون بهذا الميراث العريق من بين الهرس ، لأنه سابقة لا تقطع عما تلاها من أطوار الإيمان بالخير والشر وبالقوة الكونية التي برهتها الأديان الكتامة بعد ذلك في عقيدة الوحشية ، ودورها القوة الكونية التي تمثل فيها الشر مخلوقاً عنمرداً على الله .

وهي الوعي الديني عومل ذات دل لا تحسب من الفرانص والشعائر ولكنها تحسب من الخواطر التي تخامر النفس وتعمل عملها في تقويم لأخلاق المصطبغة بصغة الإيمان

من هذه الخواطر التي تستكثر على الملاهوت القديم حاطرات يتخللان كتب الديانة «الزرادشتية» من أقدم عصورها ، أولهما أن الشر «شد» وأنه ست في الكون لأول مرة حين تساءل دروا بين وبين نفسه : وما جدوى كل هذا التكوين وكل هذا التقدير؟ والخاطر الآخر أن الشر كذب كما جاء في قصة «يامة» التي تصمت أقدم الخواطر عن السقوط والخلاص ، فقد دعاه «أورمرد» حراسة الحق فاستعصاه لعظم الأمانة وإشفاقه من العجز عنها ، فأرسله إلى لأرض وحوله من مائه من العلبة على الموت ، فامتألت الأرض بالأحياء التي لا تعسى وامتألت نفس «يامة» بالخلاص فسولت له أن يباظر لإله بهذه العصمة وأن يكادب نفسه بخيالاته ، فلحق به الشر وجاءه الموت مع الشر ، فكان ذلك من حياية «يامة» على نفسه وعلى رمرته تسلفت إلى الوجود من مدخل البطل وهو أصل جميع الشرور

هذان الخاطران بتخللان الكتب الزرادشتية من أقدم العصور ، ولم يدخلا العقائد التالية من طريق الفكر والتأمل بل دخلاها من طريق الأشكال والرموز التي يلم بها الحس قبل التفكير فيها .

اليونان

يحتج البقاد التاريخيون إلى تحرير موارثهم جميعاً قبل الاطمئنان إلى رأى صحيح فى أى شأن من الشئون الأساسية التى قامت عليها حضارة اليونان

وذلك بأنه سيرى بين يديه تاريخين غير متفقين فى بعض الأصول وفى كثير من التفاصيل : تاريخ الأمة اليونانية الحقيقية وتاريخ الأمة اليونانية التى جعلها الأوروبيون المحدثون عنواناً للتفصيلات العربية فى مسائل العلم والفن والسياسة والأخلاق ، كلما أرادوا أن يصنعوا أنفسهم موضع المناظرة والموازنة أمام الشرقيين فيما قدروه لهم من نصيب فى هذه المطالب وهذه المزايا .

وبلغ من رغبة الأوروبيين فى ترحيح العرب كله باسم اليونان أن فريق منهم تذكر للمسيحية لأنها ثمرة شرقية ، وفريق منهم دعى أن المسيحية ثمرة الفكرة اليونانية من طريق يولس الرسول وجماعة الفلاسفة المسيحيين الذين طبقوا الدين على الفلسفة بعد القرن الأول للميلاد ، وذكروا من براهمهم على ذلك أن الأماجيل كتبت باللغة اليونانية وأن كلمة الإنجيل نفسها بمعنى الإشارة من لغة اليونان .

وقد عمد الغرب إلى هذا الاستغلال التاريخى لتراث اليونان لأنه احتاج إليه لتدعيم السيادة والرححان على أم الشرق فى عصر الاستعمار ، فاتحد من تعظيم اليونان وسيلة إلى تحقير الشرقيين واستباحة السيطرة عليهم بدعوى الوصاية الطبيعية التى تنحون المتقدمين من بنى آدم أمامة الإشراف على تعميم المتأخرين

إن أمة اليونان الحقيقية غير هذه الأمة «المصنوعة» التى احتال بها الغربيون فى عصر الاستعمار على خدمة السياسة وخدمة العنصرية ومرصاة الغرور الذى يساور «العربى» فى مقام المفاخرة وإن لم يكن من حدم الاستعمار

وليس من المصنفين من يحسن لهذه الأمة الحقيقية فضلاً فى تاريخ الثقافة الإنسانية ، فمما لا نزاع فيه أن نصيبها فى هذه الثقافة لا يعلوه نصيب ولا حاجة بها معه إلى انتحال ادعوى واعتصاب الفخار بغير دليل ، وحسبها أنها أحرحت للعالم سقراط وأفلاطون وأرسطر فى ثلاثة أجيال متعاقبة مع من أحرحتهم من

الحكماء السابقين واللاحقين ، وأنها تعد من شعرائها أمثال هرميروس ويوريديس وإسكايلاس وسموكلين وأرسطوفان ، ومن علمائها ومؤرخيها ذلك الطراز الأول الذي تلاحق على مدى ثلاثة قرون في عصرهم يكن فيه أحد يصارعهم أو يقاربهم في هذه العلوم ، ومعهم رهط من بواع الفن وأساطين السياسة والحكم يوزنون نظراءهم من كل أمة ويرجحون أحياناً على أولئك النظراء بالكثرة والقيمة .

حسب الأمة اليونانية هذا القبح الذي يقره جميع المتصفين من الشرقيين والغربيين فأما أنها استأثرت بالقيم الإنسانية العليا في الدوق والفكر والخلق فتلك هي الدعوى التي يروجها الغرض ولا يسددها التاريخ ، فإذا كست الشهادة لها بهذا الاستئثار هي المقدمة اللازمة للوصول إلى النتيجة المقصودة من تحقير الشرق وتسويق استعماده فهي مابجزة يقابلها الشرقيون بما ينبغي لها من التصحيح والتفديد ، وإياها ليسعى بها أن تصحح ونصد لغرضين واحين أحدهما تمحيص الحقيقة والآخر محو الأثر السيئ الذي نعقه في نفوس أبناء الشرق فتوقع فيها اليأس وتقصى عليها بالهوان صرية لأرب بحكم الخصائص العظيمة التي لا تتغير ولا تتبدل مع الزمن ، في رعم الراعمين .

لقد حصبوا في طبيعة الغربي - من وراء اليوناني - كل قمة إنسانية عالية في مزيا الفكر أو الحكم أو الخلق ، وفانوه في هذه الخصائص بالشرقي فحرج العربي بمرية العقل الذي يطلب العلم للعلم ومرتبة الحكم لدى يقوم على حقوق الشعب ومرتبة الخلق الذي يتقدم به المصائل الاجتماعية على دواعي لأناية ودواعي العبرية ، وخرج الشرقي من هذه المواربة بالطرف المبيض كأنهما متقابلان على خط من خطوط لمسطرة فلا يتلافى طرفه من أقصاه إلى أقصاه .

ويحسن تصحيح هذه المراجع في مدسستها بصافاً للخصيفه ومنعاً للصرر الذي يتحلف من أثارها وبخاصة حين يلقفها من أساء الشرق من يحب الشهرة بالتحدي والمهارة ومن يحب الشدق بالعرف والتعالم بالبدع والبقائص ، وقديماً رأينا من أصحاب هذه البرعة من بافرون سي آدم اعمراراً بعصر الشيطان ، وكذلك كان بشار بن برد حين قال :

ابليس أشرف من أبيكم آدم	فبينوا يا سبعشر الأشرار
السار عصفوره وآدم طيبة	و لظين لا يسسهمو سمو النار

فليس للعربيين امتياز فطري في طلب المعرفة للمعرفة بغير نظر إلى مصادع الكسب والصناعة ، وليس للشرقيون محرومين من طلب المعرفة للمعرفة في قديم الرمن أو حديثه ، فقد رصد المصريون - مثلاً - كواكب السماء وعرفوا أن الشعري يظهر في موضع معلوم عند وصول الفيضان إلى مصف فاستخدموا الرصد بعد ذلك في تقرير مواعيد الزراعة ، وبكهم كما قال صاحب كتاب «الرياضيات في الثقافة العربية» قد رصدها مئات السنين حيا للمعرفة قبل أن يثبت لهم ذلك الموعد الذي انتقموا به في تنظيم الري والزراعة^(١) .

ولما امتار الإغريق بالبحوث الفلسفية في رمن من الأرماد لسبب واضح ، هو أن هذه البحوث كانت مباحة عندهم حيث كانت تمتنع على غيرهم من أساء الدول الشرقية العريقة ، وهي لم تكن مباحة لهم لمرة أصيلة في طبيعة التركيب . . . ولكنها أصبحت لهم لأن بلادهم نشأت وتطورت دون أن يشأ فيها عرش قوى وكهانة قوية ، ولو قامت عندهم الدولة القوية والكهانة القوية كما قامت في مصر وبابل لكان شأنهم في أسرار الدين والمسائل الإلهية كشأن السالبيين والمصريين . فالبلاد التي تجري فيها لأبهار الكبيرة نشأ فيها الممالك الراسحة ونشأ مع الممالك كهانات قوية السلطان تستأثر بالبحث في أصول الأشياء وحقائق التكوير وتتولى شئون العلم والتعليم كأبها حق بها مقصور عليها لا يحور الاقتبت عليه وإلا كان يفتئت كالمعتدى على نظام الدولة ومحاربات العبادة ، ومتى طال الأمد بهذه الكهانات حبلا بعد حيل وعصرا بعد عصر تمكّن سلطانها وتشعبت دعاواها وتلست معلوماتها بلباس الأسرار والطلاسم وانتعدت شميثا فشيثا عن نطاق البحث الحر إلى نطاق المحفوظات والمأثورات .

وقد حكم على سقرط بالموب وهرب فيثاغوراس قبله من وطنه وهرب غيره من العالسة من أثينا دون أن تكون في بلادهم تلك الكهانات الراسحة التي طالت بها العهود في البلاد الشرقية «وحدث للأوربيين ما حدث في الشرق حين قامت في بلادهم الكهانات القوية وسطت سلطانها على العلم ومعارض البحث في حقائق الدين وأسرار الطبيعة»^(٢) .

(١) Mathematics in Western Culture by Morris Kline

(٢) راجع كتابا عن أثر العرب في الحضارة الأوربية

ودعوى الامتياز الفطرى بالحكم ، لحر اضعف من دعوى الامتياز الفطرى يطلب
لمعرفة حياً للمعرفة .

والشائع على الألسنة أن التقدم العقلى ألهم اليونان أن يختاروا الحكومة
الديمقراطية - أى الحكومة الشعبية - من كلمة ديموس بمعنى الشعب فى اللغة
اليونانية القديمة

وهذا خطأ من جميع أطرافه . فإلى الحكم الذىسمى بالديمقراطى أو النبائى لأنه
يحورى بالانتخاب لم يستدئ فى أثينا حيث ينكلم الملامسة ويتداكرون ، بل كان
مبدأه فى «إسبرطة» العملية التى تحتار النظام لأنه أيسر تطبيقاً وأنفع عملاً ، وتتبع
هذه السنة فى اختيار كل خطة تنتظم بها الإجراءات ويمتنع بها الشعب والزرع
وكلمة «ديمقراطية» لم تؤخذ من حكم الشعب ولكنها أخذت من كلمة
«ديموس» بمعنى المحلة التى تقيم بها القبيلة ثم استعيرت للقبيلة نفسها ولحكومة
التي تشترك فيها القبائل .

وقد كان الانتخاب فى أثينا القديمة مسألة «إجراءات» كما كان فى إسبرطة من
قبلها ، ولم يحدث قط أن أحداً مال حق الانتخاب لأنه حق إنسانى تناط به
التبعات والوجبات ، وإنما كانت الطوائف تناله واحدة بعد أخرى كلما اضطرت
اندولة إلى الاستعانة بها فى القتال ، فلم تنله طائفة ملاحين مثلاً ، لا بعد ثبوت
الحاجة إليهم فى لحروب البحرية بعد وقعة سلاميس ، ويصدق هذا القول على
الديمقراطية الغربية كلها بعد الديمقراطية اليونانية القديمة بأكثر من عشرين قرناً ، فإن
عمال الصناعة بالره بعد عمال الزراعة ؛ لأن عمال الصناعة ألزم للدولة من غيرهم
فى معامل الدخيرة والسلاح ، وأقدر على المطالبة والإصرار . ولم تنل المرأة حق
الانتخاب إلا بعد ثبوت الحاجة إليها فى تلك المعامل مع إلحاح الطلب على
المحدين من الرجال ، ولم يصل الرنوح الأمريكيون إلى تطبيق هذا الحق فعلاً إلا
بعد الحرب العالمية الثانية التى اشتركوا فيها مقتلين كما اشتركوا فيها صاعاً
للدخيرة والسلاح .

أما حكم الشورى الذى هو تكليف إنسانى موط بحقوق المساواة وتبعات احكام
والمحكومين ، فلم ينشأ فى اليونان ولا فى أمة غربية ، بل نشأ مع الإسلام فى الجزيرة
العربية ولم تسبقه إليه ملة ولا دعوة فكرية .

وبأنى بعد بيان الحقيقة فى «مقياس المعرفة وامتيار الحكم إلى موضوع هذا الكتاب وهو «قوة الشر» ومكانها من الإله الأكبر أو من نظام الوجود .

ففى الحضارات الشرقية التى أحملت القول فيها رأساً أن «قوة الشر» معصوب عليها لأنها تصر وتفسد وتدنس العواية على الإنسان ، وخلصاً للمعايير الأخلاقية هنا أن القيم الصالحة فى جانب الإله والقيم المفسدة أو الخبيثة فى جانب «قوة الشر» أو الشيطان .

لكن لأمر ينقلب تماماً فى معايير الأرباب اليونانيين ؛ لأن «برومثيوس» الذى يصب عليه عصب الأرباب وكبيرهم زيوس هو المعلم الذى هدى الإنسان إلى سر النار وألهمه السعى فى طلب البقاء وبصره بالمجهول من خفايا الكون الذى يعيش فيه ، وتمثله الأساطير على وسط وافر من القطرة يعار منه رب الأرباب ويحيل إليه من أحل ذلك أنه يتعالم عليه .

أما رب الأرباب - زيوس - فهو أنسه ما يكون بالشيطان فى الديانات الشرقية القديمة ، وهو فى جميع صوره شهوان بهم أكل شديد الطمع لا يسالى شيئاً من الدنيا عر استبقاء سلطونه وموارد حرارته ، ولهذا أرسل الصاعقة الماتلة على «اسقولا» أبى الطب لأنه بشفى المرضى فلا يموتون ويحسر بلوطس فى العالم الأسفل ضرائب نقلهم إلى الهاوية السوداء .

وتتملى الأساطير اليونانية بأساء الشحار بين رب الأرباب هذا وقرينته «هيرا» التى كانت تفاجئه فى حباته العرامية مع ساء الآلهة وبنى الإنسان ، وربما عفته فى بعض المشاحرات لأنه يحرف نحو «الشذوذ الجنسى» فيهبط إلى الأرض لينخطف منها العلام الجميل «جاسميد» ويجعله ساقياً فى الملأ الأعلى يدير الرحيق عليه وعلى بدمائه المقربين .

وتتمثل له صورة زيوس هذا فى أساطيره الكثيرة غودجا بالقوة الجسدية وللحقد على من يظهرون الذكاء ويحرمونه لذات المجدد والخوان ، فإن غصب قائم يغصب لغوات لذة أو أكلة ، وإن رصى قائماً يرصى لخدمة أو وساطة فى طعام أو غرام ، وهذه إحدى المحاورات بينه وبين برومثيوس كما تمثها لوسيان الساموسى أديب الأساطير المشهور .

- أطلقنى يا زيوس حصى ما قاسيت .

- أطلقك؟ أطلقك أنت؟ كيف إنك لأولى أن يزداد عليك نعل لأعلال وأن تنطق عليك جمال الصوفار جميعاً وأن يهش من كسبك اثنا عشر عقاباً بدلاً من هذا العقاب الواحد فإنك أنت الذى أعرب هذه المخلوقات البشرية اللعينة بأن تحسرى على مناوأنا ، وأنت الذى احتلبت سر النار ، وأنت الذى سويت امرأة ، وما سى من حاجة أن أذكرك بما صعب حين وضعت لى العظم على المائدة وعطيته بالشحم تحدسى عن طعامى فذق إذ ذك حراءك فإنك به لجدير .
- وهل ترانى لم أصب من ذلك الجراء ما هو حسبى؟ ألم ألصقها بالجبل مسير بعد مسير يأكل من كبدى عقابك هذا النعين الأثيم .
- إنك لم تصب عشر معشار الجراء الذى أنت به حقيق .
- تأمل . . . نى لا أطلب منك الإفراج عى سماحة بعير عوض ، راعا أهب لك صرا من الأسرار العالية التى تعيك .
- آه . إنها إذن حيلة من حيل برومثيروس .
- حيلة من حيلى؟ . . . ولأى غرض؟ إن حصل القفقار موحود ، وإنك لقادر على الرجعة بى إليه إن كذبت عليك .
- قل لى أولاً فى أى شىء تكون هذه النصيحة العالية .
- إذا أبأنت حقاً بشىء عن هذه النصيحة ألا تعلم منها أيضاً أننى أحس النبوءة عن الغيب؟
- بكل يقين .
- إنك على موعد زيارة لثيتس .
- إلى هنا أصمت . ماذا بعد هذا؟ قل إننى الآن أصغى إليك
- لا تصحبها يا ريوس . فإن بنت بيرس لا تلت أن تحمى منك حتى تلد طفلاً يتليك بما تملينى به الآن .
- نعمى أنسى أفقد عرشى؟
- أعيدك من القضاء ، وإنى أبشك بما سيكون من وراء هذا اللقاء
- إذن وداعاً يا لثيتس . وأنت يا برومثيروس سيأتيت هيمستس بالمرح المريب
- ورواية لوسيان لأخبار برومثيروس مع رب الأرباب تطابق رواية «هزيرود» الذى

تولى تنقيبه الأساطير وحاول أن يعرض ريوس في معرض التقديس والتسريح ، فلم يترفع به عن وصمه ألهم الذى يعصب لأكله ولا عن تهمة العبارة من دوى العطفة والحيلة من ألقى الدوم على المعصوب عليهم لأنهم استحقوا العصب بالتعالم عليه ، وحكى وهو بسط القول فى أوائل حلق الكود قصته التالية

« . وولدت كليمين ست لاوقيانوس ولدا أصمغ القلب هو الأطلس ، وكذلك ولدت موتينيوس مجيد وبرومثيوس اللبيب صاحب الحبل ولأصاليب ، وبريمثيوس الذى كان من ممدأ أمره شرا على الناس الذين يأكلون الخبز لأنه هو الذى أحد من ريوس المرأة التى حلقها ، وكان موتينيوس نائرا منيرا فرأى ريوس بشاقت نظره أن يرحمه بصاعقة هبطت به إلى ريوس لادعائه وإمعاذه فى كسرياته . وقصى على برومثيوس دى البديهة الحاضرة والمعارضة القوية أن يوثق بأغلال لا يفلت منها وقيود قاسية لا ترحمه وأن يقطع أحشاءه يسهم يكشف عن كبده ليهشها السر الطويل لحاين فينتهمها بالنهار يتركها فى سواد الليل تعود سوية كما كانت ليعاود تمريقها فى الصباح وقد جاء هرقليس فقتل هذا السر وأبقد برومثيوس من عذابه . ولم يكن ذلك بغير رضا من ريوس صاحب العرش الرفيع فى الأرباب وإنما أراد ساهة الشأن لاسه هرقليس . فطر بعين الرضا إلى فعلته وبك عاصبا من برومثيوس لأنه تسامى إلى ماطرة الإله الأكبر فى الذكاء . وقد كانت لذلك قصة يوم انقسم الأرباب والنسر وديح برومثيوس ثورا عظيما ليطعمهم منه ، فسولت له نفسه أن يحدع ريوس وأن يصع اللحم الحارل أمام غيره ويضع أمامه عطاء مكسوا بالشحم يجمع عليه ويحمى ما تحته بلذته وحشه ، فلم يلبث ريوس أن صاح به يا اس يا بيتس سيد السادة ، ما أشد إجحافك - سيدى - فى قسمتك !

كذلك قال زيوس صاحب الحكمة الخالدة يؤبه ، فلم ينس برومثيوس مكروه وراح يحبه فى ابتسام وصوت حمض . أخذ من هذه الأنصبة جميعا ما ترصاه ، وظن أنه يحتال على الإله الأكبر بهذه الخديعة ، ولكن الإله الأكبر صاحب الحكمة الخالدة لمح كيده ولم يخف عليه قصده ، وأصمر فى قلبه شرا لأبناء الفناء من البشر لا محيص لهم من قصته ، وتدور الشحم الأبيض بكلتا يديه وقلبه مفعما بالعصب وروحهم يتلهف منخفا كلما رأى العظم الأبيض مدسوسا فى حبت واحتيال ، ولهذا قضى على عشائر الشر أن تحرق العظم الأبيض على المذابح المعطرة قربانا للأرباب الخالدين ويرمجر مرسل العمام بصواعقه محتقا إذ يقول لبرومثيوس :

يا ابن يا بيتس يا نارعا فوق البارعين كأنك يا سيدى لم تنس بعد أماليبك
هى المكر والخداع!

كذلك قال زيوس السرمدى الحكمة فى عصبه ، وظل منذ تلك الساعة يذكر
الحيلة ويأبى أن يسلم سر النار إلى الخلائق البشرية الهالكة التى تعيش على
الأرض إلا أن برومتيوس النسب الحبيب عليه دهاء واختلس قسا من النار فى
خوف قصته وأحسن ربوس مرسل الصواعق فى العلا ببدعة فى فؤاده حين لمح النار
بين أبناء البشر .

ثم مضى هزيود يروى قصة المرأة التى خلقها زيوس شرًا للبشر وجعل اجتبابها
فى الوقت نفسه سرا يرث العقم وجاء برومتيوس فأغرى الإنسان بالسسل مستهيناً
بشر الفتنة حسراً من شر الفناء .

وبديه أن تستهوى الشعراء هذه الأسطورة التى تحيط بمأساة البشر بين القوة
الإلهية التى تحبهم والقوة الكبرى التى تبعصهم وتلقيهم بين شرين من الفتنة
والفناء ، فقد حرب الشعراء أحبلتهم هى نظم هذه الأسطورة وريداها كل ما تسع
له من أحاسيسهم وأفكارهم ومن تصويراتهم بلقندر المحيط بالإنسان بين السماوات
والأرضين ، وقد تناولها فى العصر القديم شاعر من أكر شعراء اليونان وتناولها فى
العصر الحديث شاعر من أكبر شعراء الإنجليز وشعراء الغرب أجمعين ، فظم فيها
«شلى» قصيدته بعنوان برومتيوس الطليق ، وكلاهما قد وضع برومتيوس وزيوس فى
مكائيهما من الإصاف والإحفاف ومن الخير والشر ومن البر والعقوق ، فجعل
الشاعر اليونانى رباتية زيوس نفسه يرثون لرومتيوس الذى قضى عليه - لعطفه على
أبناء البشر - أن يوثق إلى صخرة نائية لا يراها أحد منهم ولا يسمعه منها أوثك
الذين قد شقى فى سبيلهم فيحرره عطفاً يعطف وإحساناً بإحسان ، وجعل الشاعر
الحديث رب الأرباب كاللارد العربيد أسكره النصر فقام بين مخلوقاته الذين
تسعدهم عرته وعى لهم صديق الشر والذين يرفعون إليه قرايبهم على كره منهم
وفى قلوبهم عصاة وعلى ألسنتهم نفاق .

وبقرأ المثقفون من العربيين هذا الشعر الرفيع ولا يشعرون بالمناقضة بين ما يوحيه
من القيم الأخلاقية فى تصوير أصول الخير والشر وبين دعوى الامتياز الأوربى على
أمم الشرق فى تصويرهم لهذه الأصول ، وليس فى وسعهم أن يذكروا دلالة لأساطير

الكورية على معايير الأخلاق وبواطن الشعور ، وليس في وسعهم كذلك أن ينكروا التواتر في رواية تلك الأم طير ، وبحسب أن السهو عن بيان هذه الممارقات في كتاب يوصع عن «الشیطان» يحل بأمانه انكاتب من الشرقيين وغير الشرقيين ، ولكن الكاتب الشرقي - من أساء هذا العصر خاصة - يحل بأمانتين لا بأمانة واحدة حين يسهو في هذا السياق عن محيصة الحقائق ودفع الأباطيل التي تتحاور الخطأ إلى الصرور بالنفوس .

وببدو أن اليونان المتأخرين - قبل عصر لمسيحية - قد استعاروا من الشرق فكرة أخرى عن أصل الخطيئة أو أصل الخطايا الشيطانية جميعاً فردوها إلى الكبرياء وأطلقوا على هذه اخلة اسم الهوبرى Hübns وهي كلمة قريبة من دلالات الرحمن في إصلاح الدينين .

ونكر الكلام في الكبرياء لا يعنى عن تعقيب بنفى عن الكبرياء محاسبه ولا يبقى لها غير عيوبها التي ينكرها الدين كما ينكرها معيار الأخلاق .

فالكبرياء على الإله الكامل العظيم في صفاته وآلائه كفران لاشك فيه وخطيئة لا مسوغ لها من العقل ولا من الضمير . أما انكبرياء على صاحب سلطان يستسلم لشهواته ويصب صواعق السماء في سبيل أكلة من اللحم والشحم فليس فيها من معنى الخطيئة كثير ولا قليل ، وليس في استعارتها لهذا المعنى دليل على معيار صادق للحسنة والعيوب ، ولكنه من قبيل النقل على السماع في غير موضعه ومغراه .

فى طريق الأديان الكتابية

قبل أن نتقل إلى عفاىء أهل الكتاب فى قوة الشر العالميه نترى هنا لحظة لتلخيص المرحلة الطويلة التى عاىها الإنسان فى هذا الطريق ، من خطواته الأولى حيث لا غير بين خير وشر ولا بين إله وشيطان ، إلى عابته المصوى فى حصارى الأمم القديمة حيث ظهرت ديانة البوراة ، وهى أول الأديان الكتابية فى التاريخ .

أمن الإنسان بالأرواح والأطياى من أول عهده بالدين فى الهمحية لأولى ، وأمن بما يرجوه وما يخشاه ولكن كما يرجو النفع ويخشى الضرر من كل شىء يحيط به وتتعلق به المنافع والمضار ، ولم يكن للتفرقة بينها معنى فى مقياس الأخلاق أرفع من معنى التفرقة بين الحيوان الأبيض والحيوان الضارى ، أو بين الحشرة المأمومة والحشرة السامة ، أو بين حمادين أحدهما يعيد ولا يصير والآخر يصير ولا يعيد ، وربما تلس عنه الجماد بروج من الأرواح أو طيف من لأطياى كلما أرجمى نفعه واتقى أذاه .

وحط فى طريق التسدين خطوة أخرى حين قسم الأرواح والأطياى إلى طيب وخبيث واحتاج إلى الكاهن والساحر لبروص له الحىث بالرقى والتعاوىذ ويجزى عنه الطيب بالدعوات والقرايين ، وعمل التخصص عمله لبطىء فمصل دور الدعاء ودور السحر وإن عمل فيهما كاهن واحد ، كما كان يفصل دور الراعى ودور الصياد وإن كان كلاهما يرعى الحيوان النافع ويصيد الحيوان الذى يملك بالأناس والماشية

ثم خط الإنسان خطوة أخرى من التمييز بين الممعة والمصرة وبين المنمعة التى تصدر على الدوام من الطيبة وحسن النية ، والمصرة التى تصدر على الدوام من طبع حىث ونمة سيئة ، ولم يكن أمامه فى هذه الخطوة مثل على الشر الحىث الذى يضمع السوء ويتوارى عن النظر - أقرب إلى الحسن والخيال من الخية التى ترحف على التراب وتندس فى الجحور كيدا وخديعة وتمكنا من الدس ولأدى فيما توهمه ولم يكن فى وسعه أن يتوهم شيئا سواه ، ولهذا بقيت صورة الحية مفترية بقوة الشر حقيقة أو رمزا إلى أحدث العصور .

وعاش الإنسان عصوراً مديدة يعمل الأعمال أو يتركها لأنها مأمونة نافعة أو محدورة وحكمة العقبة ، فلما أخذ يعملها أو يتركها لأنها واحدة مطلوبة أو لأنها محرمة ومحظورة كانت هذه خطواته الأولى في طريق التمييز بين الواجب والمحرم وبين الخير والشر في أصيق الحدود .

ولم يزل حيره وشره حير قبيلة واحدة أو شر قبيلة واحدة حتى تجمعت القبائل في أمة ذات مجتمع واحد وشريعة واحدة ، نعتت نظوته إلى الشر والخير ولم تقل تتسع في عمومها حتى برزت في ذهنه فكرة «النوع الإنساني» ووحدت مع هذه الفكرة نرفعة فكرة أرفع منها وأشرف جد في معازيها وثمراتها وهي فكرة الإنسان عن صميم الإنسان ، ولم يكن في توسع أن يعمل شيئاً عن «الصميم الإنساني» قبل أن يعرف أن لإنسان نوع واحد من وراء العشائر والقبائل والشعوب والأقوام

وكانت الحضارات الأولى خطوة بل خطوات واسعة في هذا الطريق ، ولكنها خطوات متفرقة تتقبل أحياء ولا تتقابل دائماً في الاتجاه إلى معنى الخير والشرور ، وقد كانت خيروت وشروراً قبل أن تجتمع في خير واحد بمقياس واحد أو في شر واحد بمقياس واحد يتقارب فيه جميع بني الإنسان .

كانت مسألة العالم مسألة دولة وشريعة ونظام في عرف الحضارة المصرية الأولى . والخير شريعة تستتب عليها الأمور والشر مروق من تدك الشريعة وإحلال بالنظام الذي استتب عليه .

وكانت مسألة كونية في عرف الحضارة الهندية الأولى ، فالكون الظاهر كله باطل وزيف وشر ولا حير في غير لإعراض عنه والنقد إلى ما وراءه ، وبعل مجز هنا قد فعل فعله في المشابهة بين صيرفة الخواهر وصيرفة ابوحودات على عمومها ، فقد كانت صيرفة الخواهر فنا قديماً في حضارة اللائع والحجارة الكريمة وحلى التيجان والمصور وما عداها أو ما دونه من الخلى الرائف والمجلى المبذول ، وكلها كثيرة قديمة في بلاد الهند .

وكانت المسألة مسألة فلكية في حضارة «بين النهرين» بفرعها من فارس وبابل فما عدا النور فهو ظلام ، وكل ما في الوجود بين النور والظلام ، وهذه هي خلاصة الديانات الثنوية في مختلف المذاهب والتأويلات

وتختلف عقيدة فارس وعقيدة بابل في تلك الحضارة ، أو تلك الحضارات

الواسعة ، ولكنها لا تزال فلكية في الصميم ؛ لأن الخير والشر فيها مقسومان بين
السعود والحوس كما سطرت في أزياج الكواكب ودرت عليها أفلاك السماوات .
أما الحضارة اليونانية ، الأولى فالخير فيها مسألة حظ والشر فيها مسألة اعتراض
لذلك الخط الذي لا حية فيه للمحفوظ ولا المعارض عليه .

فلم يكن « زيوس » رب الأرباب لأنه أطيب منها أو أعلم منها أو أرفع منها حلقا
أو أشرف منها مقصدا ، إذ إنه في الواقع أقل من الأكثرين بين الأرباب في جميع
هذه الخصال ، وإنما « الخط » وحده هو الذي يصير عبوه عليها تعبير تلك المضائل
والمرايا ، ولم يكن هذا « الخط » عرضا من الأعراض أو مصادفة من المصادفات في
الثقافة اليونانية المتقدمة فصلا عن الأساطير البدائية التي لم تخلص من سداحتها
واختلاطها ، بل كان « الخط » مذر القصائد الكبرى والدرامات التي وضعها نوابغ
الشعراء ومثلوا فيها مصائر الأبطال وما كتب عليهم قبل مولدهم من قسمة مرمية
وقضاء محتوم لا مهرب لهم منه بحية أو اجتهد ، ولا نجاة منه لدى حسنة أو ذى
سيئة من المتفائلين أو المتشائمين ، وإذا لخص النزاع بين زيوس وبرومثيوس في قصة
مفهومة فليس لفهمه وجه من الوجوه على غير معنى واحد وهو النزاع بين صاحب
حظ عالى وصاحب حظ مغلوب ، ولعل فلاسفة اليونان لم يحتهدوا اجتهداهم في
كلامهم على السب والمصادفة - أو البحث كما ترجمه الفارسي - إلا لأنهم كانوا
يلقون « البحث » أمامهم عقبة قائمة في طريق كل تفكير ، وكان إيمان العظماء به قد
بلغ من الرسوخ والخطر ألا يقدم أحدهم على حطة من حطط السلم أو عروة من
عروات الحرب إلا بعد استطلاع العرافين عن « الخط » المكتوب له أو عليه .

عنى أنا - فى هذه العجالة - فى مقام اأحد الفاصل بين الحضارات الأولى
والأديان الكتابية من وجهة النظر إلى « قوة الشر العالمية » أمام قوة الخير أو أمام
المشيئة الإلهية التى آمن بها الناس وهم يعلمون فكرة « النوع الإنسان » وما تلاها من
فكرة أرفع منها وأشرف وهى فكرته عن « ضمير الإنسان »

وبحسب أن الحد الفاصل إنما هو الفارق بين التقدم والتأخير بين صفتين من
صفات الإله الأكبر ، وهما صفة السيادة والسلطان وصفة خلق والتكوين .

فالأقدمون قد آمنوا بخلق الله للأكوان ولكهم لم يبرزوا صفة الخلق كما أبرروا

صفة السيادة ، ولعلمهم كانوا منساقين في ذلك مع عقائد الفطريين الأسبقين الدين كانوا يؤمنون بأرواح لم يسيبوا إليها خلق شيء من الأشياء فضلاً عن خلق الكون الذي يحتوى جميع الأشياء . ثم تدرج الناس من عبادة الروح لمتسلط إلى عبادة الإله المتسلط ، فجعلوا صفة الخلق تابعة لصفة السيادة والسلطان

أما الديانة الكتابية فقد أبررت صفة الخلق وجعلتها شاملة لكل ما عداها من الصفات الإلهية ومنها صفات السيادة وتصريف المقادير .

ويأتى من هذا الفارق شيء كثير

بأتى منه أن الشر في الحانة الأولى إنما يحسب من قبيل الحماسة قبل أن يحسب من قبيل الكنود والفساد ، ولا يقال عنه أنه يلىق أو لا يلىق كما يقال عنه أنه عمل حكيم أو غير حكيم .

وبين هذا وبين وصف الشر بالسوء والكفران بون واسع ، لم تعبده الأمم الإسمائية طهرة واحدة بل تقدمت فيه خطوات بعد خطوات كما سنرى في عقائد الأديان الكتابية مما قبل التوراة إلى ما بعد الإسلام .

الأديان الكتابية (أ) العبرية

سميها العبرية لأنها لا يعرف تسمية تصدق عليها منذ نشأتها في بلاد بين
النهرين كما تصدق عليها هذه التسمية .

فلا تصدق عليها اسم «اليهودية» لأن النسبة إلى يهودا حدثت بعد موسى عليه
السلام .

ولا تصدق عليها اسم «الموسوية» لأن موسى قدم بالدعوة بعد يعقوب وإسحاق
وإبراهيم عليهم السلام .

ولا تصدق عليها اسم «الإسرائيلية» لأن الإسرائيلية تسمب إلى إسرائيل وهو
يعقوب بن إسحاق ، وكان إبراهيم الخليل حدهم أجمعين يلقب بالعبري في بعض
كتب العهد القديم ، وإطلاق اسم العبرية على العقائد التي دانت بها العشائر التي
نشأ فيها إبراهيم أصدق من كل اسم آخر في الإحاطة بديانة القوم من أوائل
ريحتها وفي جميع أطوارها المعلومة إلى أن عرفت أحيرا باسم ديانة التوراة .

وينبغي أن يميز العبرية في نشأتها الأولى من ديانة التوراة كما تلقاها المسيحيون
لأوائل وكما انتهت إليها مهدبة في القرون الكريمة .

فقد حملت «العبرية» عند التوسط بين الوثنيات الأولى وعقائد التوحيد من
قبل ظهورها إلى ما قبل المسيحية بحو مائتي سنة ، فلم تستقم على عقيدة الإله
الوحيد لمسه عن انلوثة الوثنية إلا حوالي القرن الثاني قبل الميلاد .

ولم تكن قط قبل ذلك ، ولا بعد ذلك ، ديانة إسمائية عامة تتساوى فيها جميع
السلالات وتساو فيها العقيدة بضمير الإنسان غير منظور فيه إلى عنصر أو سبب ،
وإنما نشأت وعاشت ديانة «قبيلة خاصة» أو قوم معلومين .

ولم ترتفع قط بإدراكها للتنزيه للإلهي إلى الأفق الذي ارتفع إليه آخر الأديان
الكتابية وهو الإسلام .

بل كان العبريون الأوائل يسكبون حيناً بعد حين إلى شعائر الأوثان والأصنام وعبادة البعل وتور وعشروت ، ويعرضون عن أسياهم الذين يعارون من مفسدة هذه الأرب الرب إراهيم فلا يعودون إلى اللوحانية - أو م يشه اللوحانية - إلا بعد تقرير الدعوة من جديد .

ولشوا رمانا يصفون الإله بالصفت التي لصقت به فى الوثنية أو فى ديانات الحضارات الأولى ، فكان الإله عندهم يعار من المجلس البشرى ويشفق من يوم يهتدى به إلى شجرة الخلود ويتوعده بالموت إن أكل منها فيقيم الملائكة الأشداء حرساً حولها كما روى عن الأرباب السليين فى حواشى قصة الخلق وقصة الطوفان ، وكانوا يقولون لموسى عليه السلام إنهم يتهمون يهوا بالكيد لهم ونصب الفحاح فى البرية للتغريير بهم ، وأنه لم يستدرحهم إلى سيناء إلا لأنه يبغضهم ويتمنى لهم الهلاك بعيداً من أرض وادى النيل التى أخرجهم منها .

وكانت فكرة السيادة فى عبادتهم للإله عالية على فكرة الخلق كما كانت غالبية على أديان الحضارات الأولى ، فلم يسكبوا وجود الأرباب التى تدين بها العشائر الأخرى ، ولكنهم أنكروا سيادتها ودانوا بالولاء للإله «يهوا» وحده كما يدين الشعب لمكه وهو يعلم بملوك غيره لا يجب عليه طاعتهم ولا يأمن العاقبة إذا أشرك بينهم وبين ملكه فى فرائض الولاء

ويتضح من مقاربات الأديان أن العقيدة تعزل قوة الشر وتحصرها فى «الشخصية الشيطانية» كلما تقدمت فى تنزیه الإله واستكبرت أن يصدر منه الشر الذى يصدر من الشيطان .

وبهذا لم يشعر العبريون الأوائل بما يدعوهم إلى عزل الشيطان أو إساد الشرور إليه ؛ لأنهم كانوا يتوقعون من الإله أعمالاً كأعمال الشيطان ، وكان العمل الواحد عندهم يسب تارة إلى الشيطان وتارة إلى الإله كما حدث فى قصة حصاء الشعب على عهد داود ، فإنه فى المرة التى ورد فيها اسم الشيطان بصيغة العلم قيل إنه هو الذى أعزى داود بإحصاء الشعب كما جاء فى الإصحاح الحادى والعشرين من سفر الأيام الأول ، ولكن الرواة يروون هذه القصة بعينها فى سفر صموئيل الثانى فيقولون إنه «حمى غضب الرب على إسرائيل فأهاج عليهم داود قائلاً امص واحص إسرائيل ويهوذا . . .» .

ولم يكن الشيطان هو الذى أعوى حواء بالأكل من الشجرة المحرمة بل كانت الحية هى صاحبة العوية هـ حرب على سنن الأقدمين الذين كانوا يوحّدون بين الصبر الحسى وبين الخطيئة الأخلاقية ، وقبل أن تصبح الحية محرّك رمز إلى الشيطان تلاحظ فيه المشابهة بين نبت السم ونبت الشر على أسلوب الخاز .

ولم يذكر الشيطان قط فى كتاب من الكتب قبل عصر المسيح إلى أرض بابل سنة (٥٨٦ ق م) ثم كان ذكره فيها على الوصف لا على التسمية ، وجاء مرة بمعنى الخصم فى القصة وجاء مرة أخرى بمعنى لقاوم فى الحرب ، وأطلق مرة على الملك الذى تصدى لبلعام فى طريقه ؛ لأنه كان يعنى المعترض أو الصّد أو الخصم المقاوم ، ولم يذكر بضعه العلم إلا حيث قيل فى الإصحاح الحادى والعشرين من سفر الأيام أنه «وقف الشيطان صد إسرائيل» .

وقد كانت فرايب الكفارة تقسم على التساوى بين الإله وبين عراريل رب الصغار أو الحى الذى بهيمن على الصحراء ، وكان يمتدحهم بوجود الأرباب الأخرى التى يعبدونها غيرهم من الأمم بديلاً من صور الشياطين ؛ لأنها كانت تعمل عمل الشيطان كلما صرفت الشعب عن عبادة «يهوا» إلى عبادة غيرها تثير النقمة على العصاة ، وإنما تأتى النقمة بدم من «يهسوا» ولم تأت قط من أولئك الأرباب الأحسين ، البدلاء من الشياطين .

وقد تمثل الشيطان فى صورة الواشى لموخر للمصدور فى قصة أيوب عليه السلام ، ولم يكن معزلاً عن الملائكة بل دخل معهم إلى الحضرة الإلهية وجرى سياق القصة على النحو الآتى كما جاء فى الإصحاح الأول من سفر أيوب «وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله يمشون أمام الرب وجاء الشيطان أيضاً فى وسطهم فقال الرب للشيطان : من أين جئت؟ فأجاب الشيطان الرب وقال : من الحولان فى الأرض ومن أتمشى فيها ، فقال الرب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدى أيوب؟ إنه ليس مثله فى الأرض رجل كامل ومستقيم يتقى الله ، ويحيد عن الشر ، فأجاب الشيطان الرب وقال : هل مجاناً يتقى أيوب الله؟ ليس أنك حميته بحياطتك إياه وحياطة بيته وكل ما يملك من ناحية؟ .. باركت أعمال يديه فانتشرت موشيه فى الأرض ...» .

ثم تبتدئ المغنة بتسليط الشيطان على أيوب لامتحان تفواه وصبره على ضربات المرض والسلا والعقر والحرمان .

وقصة أيوب عربية باتفاق الشراح والمؤرخين ونقاد العهد القديم ، ولها نظائر في الأدب العربي إن لم تكن هي القصة بعينها مقولة في رواية أخرى ، ونعني بها القصة التي أشار إليها مرؤ القيس حيث يقول في معلقته

وواد كجوف العير فعر قطعته

ببه الدنوب يعوي كالخليج المبين

فإن الحروف بدعة اليمين هو الوادى وكلمة العير في هذا السبيل تدل من كلمة الحمار اسم صاحب القصة ، ولم تستقم كلمة الحمار في وزن الشعر فجاء الشاعر بكلمة العير لتدل على معناها ، وكان حمار بن مويبع هذا رجلا من العمالقة له مال وبنون وروع وصرع وعلت على أنثاه صاعقة في بعض أسفارهم أحرقتهم وما معهم فكمر الرجل بالله وقال لا أعود ربا أحرق بي ، ثم عكف على عبادة الأصنام فأرسل الله على واديه نارا أتت عليه وجعلته مصربا مثل في الخراب فيقال على هذه الرواية أحلى من جوف حمار .

وأيا كان القول في هذه القصة فلا خلاف على قصة أيوب ولا على نسبة أيوب إلى العرب ولا على المراد هذه القصة بين كتب العهد القديم تمييز قوة الشر والغواية في شخصية الشيطان . وتلك قيمة من القيم الاعتقادية التي لم يبرها العبريون لأنهم لم يبلعوا من التمييز بين طبيعة الخير وطبيعة الشر أن يفرقوا بين الملائكة والشياطين ، وأن ينزهوا الإله الذي يعبدونه أو تعبداه الأقوام الأخرى عن قبائح الشيطان .

وقد سهنا إلى تحرير موارد السعد قبل النظر فيما كتبه الأوربيون عن اليونان ، وليست الحاجة إلى تحريرها في صدد المأثورات العبرية بأقل من الحاجة إليه في صدد المأثورات اليونانية ؛ لأن الأوربيين لا يتجردون من الهوى والعصبية كلما خلطوا بين تاريخ عقائد العبريين منذ القدم وبين تاريخ العهد القديم على اعتباره كتابا من كتب المسيحية التي يؤمن بعض الكنائس بتبريدها وينظر إليه بعضهم كأنه تراث أدبي موصول بتراث الدين .

فقد وهم الكثيرون من قدم الديانة العبرية وأنها أسبق الديانات الكتابية في التاريخ أن هذه الديانة سبقت المسيحية والإسلام إلى أصوات العقائد والشعائر في

جميع الفرائض والعبادات ، ولكن الواقع أن العبريين استعاروا كل ما دأبوا به ولم يعيروا المسيحية والإسلام شيئاً غير ما جاء من تطور لأفكار ولم يكن محيطه على يديهم في أكثر الأحيان .

وعلى خلاف الشائع بين أصحاب الدعايات والعصبيات كان أنبياء العرب أساتذة الأسياء العبريين في أهم الأصول الدينية وهي مسألة الخير والشر ومسألة الثواب والعقاب . ففي سفر أيوب قبل جميع الأسفار التوراتية ظهرت هذه الأصول ، وقد تتبعنا التنبؤات في بلاد العرب قبل أن يكون للسوء شأن بين العبريين ، وذكر القرآن الكريم من الأسياء العرب هود ، وصالحا وشعيباً وذا الكفل . وجاء في التوراة ذكر بلعام وأيوب وشعيب ، وجاء فيها أيضاً أن شعيباً علم موسى وهداه إلى سياسة قومه وأن بلعام كان حكام بين إسرائيل وحصومها في جنوب فلسطين ، ومن صحيفات النسي «أرميا» يتبين أن المجهول من أحبار الأنبياء في بلاد العرب كان أكثر من المعلوم المذكور في كتب العهد القديم ؛ لأنه يستعيت متسائلاً عن هداية الجنوب ، وينادي : أما من حكمة بعد في تيمان ؟

وإنما تصخمت مآثورات العبريين بعد احتلالهم بأهل بابل ومصر وبلاد العرب واليونان ، واحتوت كتب التلمود والمشا أهم عقائد القوم في مسألة الخير والشر ومسألة الثواب والعقاب ، ولا بد أن يذكر على الدوام أن هذه الكتب جمعت بعد المسيحية وظلت تجمع ويضاف إليها حتى القرن العاشر للميلاد ، وفي هذه الكتب خلاصة ما استعاد العبريون من محاوراة الأمم التي تقدمتهم في إدراك الصفات الإلهية والصفات الشيطانية ، ومن هذه الكتب أخذ الأخذون ما حسبوه تراثاً إسرائيلياً وهو في حقيقته تراث الخصارات الغابرة من أقدم العصور

مثل واحد يدل على نصيب القوم من الأصالة والنقل في القصص الدينية والتعليق على المسائل الغيبية ، فإنهم ظلوا إلى ما بعد الإسلام ينقلون عن العرب قصصاً كان موطنها في أرض بابل وأشور كقصص هاروت وماروت ، وأحق ما يكون بالنسبة في هذا المقام أن اليهود خرجوا من أرض بابل وعادوا إليها أيام السبي قبل الميلاد ستة قرون . ولكنهم لم يأخذوا هذه القصة إلا نصيبتها العربية بعد عصر السبي بأكثر من ألف سنة ، فليس من شروط التقدم في الديانة الكتابية أن يكون القوم معبرين وأنهم لا يستعبرون .

ويدل تأخر المصادر التي فصلت أوصاف الشيطان على تأخر القوم في التمييز بين الخير والشر كما ميز بينهما أساء ، لخصارت التي تقدمت الإشارة إليها ، وفي الروايات السمودية للتأخرة يسأ كل تفصيل عن العداوة الشيطانية للإنسان وعن أثر هذه العداوة في خروج آدم من النعيم وفيها ارتقاء من وسوسة حبة إلى وسوسة شمائل رئيس الملائكة الذي عمل في القصة مع إبليس ، وتوسع رواق اليوبيل حوالي القرن الثاني قبل الميلاد في الكلام على «مشطيم» اسم الفاعل من مادة شط في اللغة العربية يقابله كلمة «شيطن» في شنتاق اللغة العربية ، وتحتوي التلموديات في مثل هذا العصر كلاما عن الشيطان بلبعال روح الكذب والخداع وهو يقابل في العربية «بلاعول» أي لا معول عليه ولا أحلاق له ولا خير فيه . ويحتوي كتاب أحشوح قرابة هذا الوقت كلاما عن الملائكة الهابطين بقيادة كبيرهم المطرود من رحمة الله ، ويقول كتاب الحكمة إن الموت نزل على الدنيا من جراء حسد الشيطان . وأما قبل هذا العصر بعدة قرون فقد كان كتاب التوراة يذكر الشياطين بأسمائها السانية كما ذكروا «الشعريم» أي الشياطين دوات الشعر ، والليليت أي الشياطين الليلية والكتيب والدبير^(١) وغيرها من الحمة والعصريت التي اقتبسوها منلولها أو فاتهم منلولها ونقلوها بأسمائها وبعوتها .



ونعود فنقول إن الديانة العسرية تحملت أعناء التوسط بين الديانات الوثنية وديانات التوحيد الكتابية ، وصورة الشيطان في عقائدها هي أوفق مقياس لسلم التطور الذي ارتقت عليه من أقدم عهدها في التاريخ إلى العهد الذي ظهرت فيه المسيحية .

وفي أقدم العهود لم يكن عند العبريين هارق بين حلائق الكائنات العلوية وحلائق الكائنات الأرضية من إنسانية وحماسة ، ولم يكن عندهم كذلك فرق بين هذه الحلائق وحلائق الشيطان .

فكان الشيطان يحصر بين يدي الله مع الملائكة ، وكان الملائكة يهبطون إلى الأرض فيعاشرون بنات الناس وكان الإله نفسه يمشي في ظل الحديقة مسترد.

(١) أهم المراجع التي اعتمدت عليها في هذه الأسطر كتاب (الشيطان) صبرة لمؤلفه إدوارد لانجتون Edward

ويأكل اللحم والخير ويحب ريح الشواء ويعار ويحقد ويستقم كما يفعل كل مخلوق من مخلوقته هي الأرض أو في السماء .

وتطورت عقائدهم في الملائكة فأصبح منهم نضراء لقوى الطبيعة في أساطير الوثنيين القدمين ، فمهم ملائكة للآبار وملائكة للأنهار وملائكة لنتلال وأحرون للمعاور والوهاد وأحرون للأسماك والحيتان ولكل صيد من حيوان البر والبحر والهواء . ومن هؤلاء الملائكة من يعمل في طاعة شيطان ويستقل بين الأعمال السماوية وأعمال الأرض والهاوية كأنها نط واحد من الأعمال يحدث باختلاف الرؤساء والدعاة .

وتروى «الرواهار» أن الملائكة هم الذين استكبروا آدم يوم صعبه الله لأول مرة ملء السماوات والأرضين فتساءلوا مستكبرين . أهى الكون إلهان؟ فصعره الله وحمل له جسما من التراب .

وفى ميثاق أخنوخ أن الملك شمهارى قاد رهطا من الملائكة إلى الأرض فسق وعصى وخاف أن يصرود بالعقاب فدعاهم أن يقسموا معه ليفعلن مثل فعله ، فأقسموا معه على جبل حرمون وسمى الجبل بهذا الاسم لأنهم أقسموا عليه بحرمة الحرمان وعقدوا الية على محرمات ، ثم فحرو مع النساء وعلموهن الررع والحصاد وهموا بإهلاك رجالهن فعلم الرجال منهم العك والعندوان .

ويروى عن أحوج أنه هو الذى عرر الملائكة المتمرسين شهوت لأرض ودل لهم حين تشبعوا به : أولى لكم أن تهجروا الأرض وأن تعيشوا سماويين لا تأكلون ولا تشربون^(١)

ومن علماء الأساطير العبرية - مثل بشتين وجرنوبوم - من يقررون أن اليهود أخذوا طائفة من قصص الشيطان روية عن المصادر الإسلامية وأن سعديا وابن سابا نقلوا أساطير سقوط إبليس عن هذه المصادر ومعها كثير من الأوصاف والفعال التى يتمير بها الشياطين .

وكان الحكماء والربانيون يختطون بكهان الديانات البدنية والمجوسية ويسمعون منهم أوصاف أهريمان إله الظلام وحيوده فيسقلوبها إلى الشيطان ويضعون هذا الشيطان سينا فشيئا فى موضع العدو الساحر لله والإسار رعا اقتسموه من أولئك

(١) تراجع فى كل هذه العقائد مجلدات الأساطير اليهودية جمع حجبرج

The Legends of The Jews by Ginzburg

الكهان - من الفصل الثالث فى كتاب البنداهش Bundahesh - أن أهرمان تشكل بشكل احية وملاً أفاق الفلك الأعلى والأرضين حتى لم يبق فيها سفد لإبرة ونفت سموه فامتلات بها الأفاق وسرت فى كل شىء بين الأرض والسماء ولم ينهزم حتى هبط إله الخير «أورمزد» إلى الأرض فردّه إلى قراره

وبوخط فى المقاربات بين العقائد أن احتصاص الشيطان بحلائقه التى تناور الأحلاق العليا إنما كان يزداد ويتمكن كلما استعار العبريون شعائرهم ومأثوراتهم من أبناء الحضارات الكبرى ، وأن أسياهم الذين أكدوا لهم عقيدة التوحيد والتنزيه لم يحدوا منهم سمياً قبل القرون الثلاثة الأخيرة التى سفت ظهور لمسيحية ، ولم يكن تمييز الشيطان بحلائقه المنافرة للخير «عقيدة رسمية» يقرها الرؤساء المسئولون ولكنه كان من قبيل التراث المحفوظ الذى تعرف مصادره حين وينقل من رواته فى البيئة التى يشيع فيها بغير مصدر معلوم .

فلما تلاقى العبرية والمسيحية فى الزمن كانت صورة الشيطان على ما أسهت إليه يومئذ ميراثاً مشاعاً لا يستند فيه اليهود إلى نسحتهم من التوراة ولا أساندهم «الرسمية» ولكنها كانت صورة لا يختصون بها ولا يمتنع أحد على غير ملتهم أن يقلبها ؛ لأنهم نقلوها كما نقلها سواهم من مصادرها المعلومة أو مصادرها المجهولة ، ولم ترجع بها كتب التلمود والمشا إلى بى من أسياهم المعبودين .

* * *

الأديان الكتابية (ب) المسيحية

ذكر الشيطان بأسماء متعددة فيما روت الأناجيل من أقوال السيد المسيح أو أقوال المتحدثين إليه على اختلاف المعتقد والنية

فذكر باسم الشيطان واسم «روح الصعف» واسم الشرير واسم رئيس هذا العالم واسم يعزبول وقيل عن يعزبول بلسان الفريسيين إنه رئيس الشياطين .

وتذكر الأناجيل أحبار المجانين الذين شفاهم السيد المسيح فنقول عنهم تارة إنهم صرعى الشياطين وتورد كلمة الشيطان في الترجمة السودانية مقابلة للكلمة اليونانية التي تطلق على إبليس Diabolos أو مقابلة بكلمة التي تطلق على العفريت والروح المتسلط Demon سواء كان شريراً أو غير شرير .

وفي أحد الأحبار ذكرت امرأة مصابة فقيل عنها إنها «كان بها روح صعف ثمانى عشرة سنة ، وكنت منحنية ولم تقدر أن تتصب البتة ، فلما رآها يسوع دعاها وقال لها : يا امرأة إنك محلولة من ضعفك » الإصحاح الثالث عشر من إنجيل لوقا .

وبصدد المجبولين والمصروعين وشفائهم على يد السيد المسيح قال الفريسيون إنه يحالف رئيس الشياطين ويأمرهم باسمه وسلطانه فيطيعونه ويخرجون من أجسام صرعاهم ، وقد جاءت هذه القصة بصيغ مختلفة في الأناجيل ورواها إنجيل متى فقال إنه «أحضر إليه مجنون أعمى وأخرس فشفاه وتكلم الأعمى الأخرس وأبصر فبهت كل الجموع وقالوا : ألعن هذا هو ابن داود؟ أما الفريسيون فلما سمعوا قالوا : هذا لا يخرج الشياطين إلا سعلربول رئيس الشياطين ، فعلم يسوع أفكارهم وقال لهم : كل ملكة منقسمة على ذاتها تحرب وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت

فمن كان الشيطان يخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته فكيف يثبت ملكه ؟ وإذ

كنت أنا سعلربول أخرج الشياطين فأسأؤكم بمن يخرجون؟ لذلك هم يكرهون قصاتكم ولكن إن كنت أنا مروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله .

وموضع الالتفات في كلام السيد المسيح هنا هذه المقابلة بين ملكة سعلربول وملكوت الله ، وأن السططان الذي لا يكون بقوة الشيطان إنما يكون بروح الله

وأصرح من ذلك هي الإشارة إلى سلطان إبليس على العالم قصة التجارب التي امتحن بها السيد المسيح في البرية ، وكان إبليس هو الذي يحربه ويحاول إغواءه بما يملكه من العروض والمعريات ، ويستوفي الإنجيل لوفنا هذه القصة إذ يقول إن يسوع «رجع من الأردن مبتلياً من الروح القدس ، وكان يقاد بالروح في البرية أربعين يوماً يحربه إبليس ، ولم يأكل شيئاً هي تلك الأيام فلما تمت حاح أخيراً وقال له إبليس : إن كنت بن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبثاً ، فأجاب يسوع قائلاً : مكتوب أن ليس بالخبر وحده يحيا الإنسان ، بل بكل كلمة من الله ، ثم أبعده إيسى إلى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان ، وقال له إبليس لك أعطى هذا السططان كله ومجدهن لأنه إلى قد دفع وأنا أعطيه لمن أريد . فإن سجدت أمامي يكون لك الجميع ، فأجاب يسوع وقال : اذهب يا شيطان ! به مكتوب بلرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد ، ثم جاء به إلى اورشليم وأقامه على حناح الهيكل وقال له إن كنت ابن الله فاصرح بنفسك من هنا إلى أسفل لأنه مكتوب أنه يرصي ملائكته بك لكي يحفظوك وأنهم على أياديهم يحملوك لكي لا تصدم رحلك بحجر ، فأجاب يسوع وقال له : إنه قيل لا تجرب الرب إلهك ، فلما أكمل إبليس كل تجربة فارقه إلى حين . . .

وهذه القصة أوفى ما جاء في الأناجيل عن سلطان إبليس على ممالك العالم وأنها دفعت إليه ليعطى منها ما يشاء لمن يشاء ، فهو قريب من صورة أفرعئاد إله الظلام في ديانة الفرس القديمة ، ولكنه لا يملك إلا ما يدفع إليه بمشيئة الإله القادر على كل شيء ، وتلك أول تفرقة في الديانات الكتابية بين إله الظلام وأمير الظلام كما سمي إبليس بعد عهد السيد المسيح .

وأحره إبليس كما جاء في كلام السيد المسيح تاسع موضع هذا من العالم ومن العرة الإلهية ، ولا تصعد إلى المنزلة التي أنزل بها الفرس الأقدمون إله الظلام

فى دياتهم الثوية ، وفى الإصحاح الخامس والعشرين من أنجيل متى شرح هذه الأخرة كما ينتهى إليها الملائكة والقديسون وينتهى إليها الشياطين والأشرار «ومتى جاء ابن الإنسان فى مجده وجميع الملائكة والقديسين معه فحينئذ يجلس على كرسى مجده ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيمير بعضهم من بعض كما يميز الراعى الخراف من الجداء ، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار . ثم يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يا مبركى أبى . . رثوا^(١) الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم . ثم يقول للذين عن اليسار ، اذهبوا عني يا ملاحين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته . . »

ويقول السيد المسيح فيما رواه لوقا إن الشيطان يغربل بلاميذه . . وقال الرب : «سمعان : هوذا الشيطان طلبكم لكي يعربلكم كالخطة . . »

الإصحاح الثانى والعشرون .

ويذكر إنجيل لوقا قبل ذلك أن الشيطان يداخل من يوسوس لهم وأنه «دخل فى يهودا الذى يدعى الإسحريوطى . فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقواد الجدد يسلم المسيح إليهم .

ويصرد إنجيل يوحنا بكلام منسوب إلى السيد المسيح يصف فيه إبليس بأنه رئيس هذا العالم ، وتكرر ذلك فى غير موضع فجاء فى الإصحاح الثانى عشر أن السيد المسيح قال لتلاميذه لئلا وداعهم : «الآن ديانة هذا العالم الآن بطرح رئيس هذا العالم حارحاً ، وأنا إن ارتفعت عن الأرض أحذب إلى الجميع»

وفى الإصحاح الرابع عشر يقول : « . . إن أبى أعظم منى ، رقلت لكم الآن قبل أن يكون لا أنكلم معكم كثيراً لأن رئيس هذا العالم يأتى وليس له شىء»

وفى الإصحاح السادس عشر «الآن أنا ماضى إلى الذى أرسلنى وليس أحد منكم يسلكنى أين تمضى لكن لأنى قلت لكم هذا قد ملأ لحرن قلوبكم لكنى أقول لكم الحق أنه حير بكم أن أطلق ، لأنه إن لم أطلق لا يأتىكم المعزى ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ، ومتى جاء ذلك يبكى العالم على خطية وعلى بر وعلى ديانة . أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بى ، وأما على بر فلأنى ذاهب إلى أبى ولا تروننى أيضاً ، وأما ديانة فلأن رئيس هذا العالم قد دب» .

(١) رث هو فعل الأمر من (رث)

وفى إنجيل لوقا وردت الكلمة التى شتهت لقراء الأماجيل اسم الشيطان باسم «لوسيفر» حامل النور كما كان يدعى بعد عصر الأناجيل بعدة قرون ، وفى الإصحاح العاشر من إنجيل لوقا يقول السيد المسيح للسلاميد السبعين الذين أرسلهم للبشارة من قبله : «إبنى رأيت الشيطان ساقطاً كالقرق من السماء» .

أم غاية ما وصف به إبليس من السطوة فهو قول بولس الرسول عنه فى رسالة كورنثوس الثانية «إن كان إنجيلنا مكتوماً فإنما هو مكتوم فى الهالكين الذين فهم إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين» .

وإنما كان بولس يذكر سطوة الشيطان وهو يرى إمامه معاند «مترا» فى كل مكان يرحل إليه ، ويسمع أتباع مترا يدكرون إله الظلام وإله هذه الدنيا السفلى التى تنحصر لسلطانه وتنتظر نور الخلاص بعد رجعة مترا بالظفر والحلقة فى الدهر الموعود ، وقد أخذ العبريون تقسيم الدهر إلى دهرين من أقول أهل بابل وفارس ، ولم يكن من شأن المسيحيين الأوائل أن يهوبوا من شرور إله الظلام فى هذه الدنيا بل كانوا يسبقون أتباع «مترا» إلى تعظيم الفارق بين النور الإلهى والظلمة الشيطانية ، وتسمية بولس للشيطان بإله هذا الدهر إنما هو من قبيل تحقير الدهر الذى يعيدونه فيه ، وتلك عادة من عادات العبريين الأقدمين فى الرراية بأدعياء الربوبية عند الأمم الأخرى ، فكان من أساليبهم فى إنكار ربوبية بعل أن يسموه - على رأى الكثيرين من الشراح - رب الدياب ورب الربالة ، ومن ثم اسم بعلربوب وبعلربول .

وتمتزع بأقوال بولس على الدوام تعبيرات محارية تدل على إمامه «الأساليب اليونانية فى التعبيرات وسماعه بالآراء التى كانت تنقل عن حكماء اليونان ويسوقونها مرة فى معرض الطبعيات ومرة فى معرض الدينيات ، ومن ذلك قوله عن إبليس فى رسالة أفسس «أنه رئيس سلطان الهواء الذى يعمل الآن فى أبناء المعصية» ومنه قوله فى تلك الرسالة «لبسوا سلاح الله الكامل لكي تقدرُوا أن تثبتوا ضد مكن إبليس ، فإن مصارعنا ليست مع لحم ودم . . بل مع أحفاد الشر الروحية فى السموات»

ويرى اللاهوتيون المحدثون أن أقوال بولس هنا تحمل الإشارة إلى الطبعيات اليونانية كما تحمل الإشارة إلى التراث العبرى فى مسائل الروحانيات قال الدكتور هوجو راهنر Hugo Rahner فى بحثه عن الروح الأرضى والروح الإلهى فى

علم اللاهوت القديم «إن عبارة رئيس سلطان الهواء في كلام بولس الرسول تشير أسئلة شتى في التاريخ الديني ينبغي أن نعرض لها إن أردنا أن نفهم آراء آباء الكنيسة الرفيعة في طبيعة الأرض الروحية الشيطانية . أفلا يقع في أحلامنا أننا نسمع هه نعمة مألوفة؟ أليس تصور الروح الشيطاني سلطانا على الطعمة المظلمة من الهواء صدى واضحاً من نظريات أفلاطون وريقرات وبلونارك؟ إن التشابه الظاهر وإن الحوث التي عرّضت لهذه المسألة لكثيرة موعة ، ولكن الأرحح على ما يبدو أن بولس الرسول ، اتخذ هذه الصورة من الروحانيات اليهودية المتأخرة ، فقد كان من العقائد الشائعة بين اليهود أن الأرواح الشريرة لا تهبط إلى ما دون الهواء المحيط بالأرض وإنما من هه المهبط مباشر عمل الشر عليها وإما ترمز هذه الصورة في ذهن بولس الرسول إلى خصرمة أصبحت خلقية نفسية ولم تبق كما كانت قبل ذلك كوتية طبيعية . فالعالم عنده في أساسه إنما هو الإنسان ، وهذا الإنسان الذي يوصف أنه رضى وأنه موثق إلى الأرض وأنه خاطع خليق أن يتخضع لسلطان أرواح الشر عليه ، ولكنه قادر كذلك على أن يرتفع بنفسه من الظلام إلى النور ومن الشيطان إلى الله»

ومعلوم أن كتاب «العهد الجديد» هو مرجع المسيحية لأكثر الدي تتفق الكنائس على اعتماده في العقائد الجوهرية ، ولكن العهد الجديد ينقسم إلى ثلاثة أقسام «أولها» الأناجيل و«ثانيها» أقوال الرسل و«ثالثها» أقوال الصحابة والرواة المتصلين بالرسل ، وترتيبها كما جاء في شروح بعض اللاهوتيين المحدثين أن الأناجيل وحي غير مصحوب تفسير ، وأن أقوال الرسل وحي وتفسير ، وأن أقوال صحابتهم تفسير غير وحي ، وقد جاءت في أقوال الرسل وما بعدها تفسيرات في المرحلة الأولى من مآثورات العقيدة المسيحية يتقدمها جميعاً ما جاء من خطبة آدم وعن تكفير الخطيئة وعن الحية والشيطان ولم تسبق الإشارة إليه في الأناجيل .

ففي هذه المراجع أول إشارة إلى تسمية الحية بالشيطان كما جاء في الإصحاح الثاني عشر من أعمال الرسل حيث يذكر التين ويقال عنه «أنه الثنتين العظيم ، الحية القديمة ، المدعو إبليس والشيطان الذي يضل العالم .» .

وفي رسالة يوحنا الرسولي الأولى «من يفعل الخطيئة فهو إبليس ، لأن إبليس من البدء يحطى ، ولأجل هه طهر اس الله لكى ينقض أعمال إبليس»

وفي هذه الرسالة أيضاً أن الإنسان من الله أصلاً ولكن «العالم كله قد وضع في الشر»

وتتكلم الكتب «الوكيفية» عن دخول الموت إلى العالم بدخول الخطيئة فيه ، ومعظم هذه الكتب لا يرتقى إلى طبقة الأقول «لأنثورة عن الرسل مباشرة ولكنه يعتمد لتزجيج والتفسير ، وسمى بالكتب «الوكيفية» بمعنى «السرية» أو الخاصة في اليونانية لأنه كان من المراجع التي يصن بالاطلاع عليها على غير الواصلين في الإيمان والمعرفة .

وعندما أن المرق هو أوصاف الشيطان بين لأناجيل وما تلاها إنما هو المرق بين الأوصاف السماوية و لأوصاف القياسية أو العقيدة فإن الشيطان لم يتقرر له «شأن» أو دور معلوم في الأديان الكتابية قس القرن الأول للميلاد ، وإنما كان في الكتب العبرية أو اليهودية واحداً من الملائكة المعضوب عليهم أو واحداً من الأرواح المتمردة فلا يعرف إلا بما سمع من أوصافه ولا شأن له في ذلك إلا كشأن الأبطال التاريخيين أو «الشخصيات التاريخية التي تعرف بين المسموعات المختلفة ولا يمكن أن تعرف بأوصاف عامة يقتضيها العقل والقياس» .

أب الشيطان الذي تقرر له «دور» معلوم أمام الله فلا يتوقف العلم بأوصافه على السماع بل يحور للمفكر أن يسب إليه كل ما يقتضيه ذلك الدور من الأيون والملاحم والخصائص والتبعات ، ويحور له كذلك أن يسب له ما سوف يأتي به بعد أرمئة طويلة في نهاية العالم ومصيره المقدور .

وقد تقرر دور الشيطان وتقرر سلطانه على الشر وعلى العالم الأرضي في مقابلة العالم الإلهي في السماء ، فكل صبح بوصف بالشر فهو من عمله عبر حاجة إلى رواية السماع ، وكل خطيئة أو عواية أو صلالة أو عاقبة محذورة فيما تنسب إليه كما تنسب الخصائص إلى معديها بحكم البداة التي لا تحتاج إلى عيان أو إلى إسناد ، وعلى هذا القياس قل بولس الرسول في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس أن رؤساء هذا الدهر - أي الشياطين كما جاء في تعبيراته السابقة - هم الذين صلبوا السيد المسيح ، ورماهم باخهر وفاة الدراية بعقبي ما يصنعون لأنهم ظنوا أنهم يخدمون مقاصدهم بتقديم المسيح إلى الصليب وما كانوا يخدمون غير مقاصد الله منذ الأزل بما دبروه ورتبوه ، فقال عن حكمة الإيمان وحكمة الشيطان «إننا نتكلم بحكمة بين أكاملين ، ولكن بحكمة ليست من هذا الدهر ولا من عظماء هذا الدهر الذين يطلون ، بل نتكلم بحكمة الله في سر الحكمة المكتوبة التي سبق

الله فعبيها قبل الدهور لمجدنا ، ولم يعلمها أحد من عظماء هذا الدهر ، لأهم لو عرفوها لما صلبوا رب المجد . . . » .

فإذا كان الأئمة الأسبقون في صدر المسيحية يذكرون الشيطان بصفات لم ترد في الأنجيل ولا في كتب العهد القديم فيما يذكرونه بالصعفات التي تكون له لا محالة بحكم طبيعته المميرة أو بحكم دوره المعلوم ، وهو الدور المقابل للحير والحق وصدق الية في كل عمل مصي وكل عمل يتكشف عنه الغيب

وينبغي أن تلاحظ النقلة الواسعة هنا في تطور الأحلاق ومقاييس بين أوائل العقائد العبرية وبين العقائد التي شاعت في القرن الأول للميلاد

فقد كان الضرر والشر معنى واحد في العقائد البدائية ، وكان الروح الصار كالحیوان الصار في مقاييس الأحلاق أو مقاييس النعمة والبلاء ، وكان من الحائر أن تستقل الحية بالضرر دون أن يلقتها الشيطان عواية آدم ، فهي حيوان صار يؤدى ويخيف وكفى بذلك وصفا للشرير في العقائد البدائية ، فمارال الضرر والشر يتمزأ ويختلفان في الميران حتى وجب عفلا أن يكون الشيطان وراء الحية في عواية آدم وحواء ، وحتى وحد في عالم الصمير فرق واسع بين الخوف من لدعة الحية الماكرة ودسيمة الشهوة والعصيان .



إلا أن المسحيين الأوائل استرسلوا في حديث الحية لأهم وجدوا فيها أصح صورة لتمثيل الشيطان للحس ، وكان تمثيل الشيطان للحس يتتبع في «رؤى» السالك والمتبئين مستقلا عن تمثيله للحس في بحوث العقهاء وعلماء اللاهوت . فإذا تكلم اللاهوتي عن الشيطان فيما يستتبط أوصافه بالمقاييس إلى طبيعته وعمله كما تقدم ، وكن السالك المتبئ صاحب الرؤى والمشاهد الغيبية إنما يقل رمورا وجدانية قابلة للمشاهدة في الحس كما هي قابلة للمشاهدة في الرؤيا ، وليس في الأشياء التقليدية ولا هي تشبيهات الخيال أقرب من الحية القديمة ود. بولغ في تشويها وتشويهها وتعظيم صورها فهي الثنين الذي يصيف إليه الخيال من الأشياء والطابع ما لم يتحقق في الحية لمعهودة . فهو ذو رأسين أو ذو أرحل وأجنحة أو ذو ساد يذلع بالشرر ويقذف بالهف ، وقد ساعد على انتشار هذه الصورة للشيطان أنها كانت شائعة من أقصى الصين إلى أرض سس وآسيا الصغرى ، وأنها كانت

شائعة كذلك في كتب العهد القديم ، وصادفهم خضر التنين الأكبر أو خطر أحية الشيطانية في مقر عبادتها بأسس الصعري فكثرت في رسائل العهد القديم إشارات السك إلى «برحاموم» عاصمة هذه العبادة التي يظهر أنها كانت متوارثة هناك منذ زمن قديم وتجددت دعوتها بعد قيام الدعوة المسيحية على سبيل المقاومة ورد الفعل مع غيرها من الدعوات التي كان أصحابها يتألبون عمداً أو على غير عمد لمقاومة الدين الجديد .

ويمكن أن تعتبر رموز الرؤى معدمة للصور الفنية التي اختارها المصورون والمثاليون بعد انتشار المسيحية وقيام هياكلها واشتغال أصحاب الفنون برسومها ومبانيها ، فهناك صور للشيطان على مثال النمل وصور أخرى على مثال النمل في جميع أعضائه غير الرأس فقد كانوا يجعلونه رأس إنسان ذي قريش أو أذنين صاعدين في مكان القرنين ، وكلم تقدم اللاهوت في وصف طبيعة الشيطان عابت ملامح الحية والتنين وحلمتها ملامح إنسان حيث الطلعة يعمل العن عمد في إيداعه دلائل الشر التي تغني عن استعارة الشبه الشرير من مثابه الحيوان ، ولكنهم طلوا إلى زمن أحير يصورون الشيطان بظلف مشقوق ويحتفظون في هذا الشبه بصورة «الساتير» اليوناني المتهاك على الشهوات ومعاقرة الحمور .

أما الصورة اللاهوتية فقد أفاض الأباء الأولون في شروحها وفروضها واحتهد كل منهم على حسب علمه وإطلاعه في تطبيقها على الطبيعة المفروضة للشيطان ، ويعتبر ترتوليان Tertullian المتوفى سنة ٢٣٠م وأوريجين المتوفى سنة ٢٥٤م أوفر الفقهاء المتقدمين مشاركة في وصف الطسعة الشطامة وإستاد الأفعال والسات التي تلائمها إلى الشيطان وأحاده على حسب درجاتهم في السبادة العالية ، وعند ترتوليان أن الشيطان الأكبر يرصد شيطانياً من جنوده لكل إنسان من بني آدم وحواء ، وأن أدلة وجود الشياطين عامة متواردة في عقائد المهتدين والوثنيين المصلين ، وكنهم يسمون أن الشيطان يتعقب الإنسان ويتسلل إلى مخادع نفسه على عمدة منه أو بعلمه واحتيازه ، ولكن المسيحي المؤمن بقدرة السيد المسيح المستقيم على منهجه يحد السلطان النافذ في هذه الشياطين ويستطيع أن يقدر منها فرائسها إذ صدقت ببتهم في طلب الخلاص منها ، وبسبب المسيحي الذي يعجز عن قهر الشيطان حليفاً عنده بوصف الإيمان .

ولاشك أن «أوريجين» كان وفيه القرون الثلاثة الأولى غير مدافع ، وكان له من

العلم بحكمة عصره ما لم يكن لأحد من معاصريه ، وكان إلى جانب ذلك مؤمناً
رسخ الإيمان نقياً شديداً التقوى ، ولم يكن له مطمع فى رئاسة كهوتية أو غيمة
دنيوية ، فقد جب نفسه ليتقى فتنة الشيطان وهو يعلم النيات والفتيات ويعط
النساء فى البيع والبيوت ، وقد علم وهو يفعل ذلك أنه يحرم نفسه ماصب
الكهوت العليا التى تحرم على المحبوبين والمشوهين ، فلم يستعظم هذا الحرمان
حماية لسريته من غواية الشيطان ، وهذا مع إسهامه فى التفرقة بين دواعى الشر
التي يوحى بها الشيطان وجنوده ودواعى الشر التي ركبت فى طبيعة الإنسان وهى
شهوات الطعام ولذات الجسد وهى مقدمتها اللذة الجنسية ، ولعله فى كل ما كتبه
عن تسخير الشيطان لهذه الشهوات له يثبت قدرته على الغواية كما أثبتتها على
ذلك الحق الرهيب .

ولم يجد أوريجين مشقة فى إسعاد الشر والخطيئة إلى سيادة هذا العالم ، فإنه
عاش فى زمن قد اجتمعت مدهيه على تحقير المادة واعتبارها جرثومة النفس
والكثافة والفساد ، وعم فيه القول بين الساك والرهدين بأن طلب السيادة هو لمحمة
التي أسقطت إبليس وجنوده وأن «التواضع» هو شعار ملكوت السماء وهو آية المسيح
المخلص الذى يرهد فى المواكب رباتى كما أتى من قبل على حمار ابن آتان عبر أن
أوريجين كان يمزج اللاهوت بمعارفه الفلسفية ويقرر طبيعة الشيطان وفقاً لما تلمذ عليه
الفلسفة والدين ، ورأيه فى تكوين الشيطان أنه ذو جسد يلائم مقامه فى الهواء
الكثيف المحيط بالأرض ويتطلب الغذاء من الدواخين ولأبحرة والدم الخالص
مجرداً من اللحوم والعظم ، ولهذا يحاول أن يفسد القرايين الإلهية ويختلس أحرنها
ودماءها ليتحول بها عن مقصدها .

ويفرق أوريجين بين الملك الساقط والشيطان الرحيم ويوافق بعض الذين سبقوه
فزعمو أن الطيبين تلتقيان فى درية الملائكة الذين هبطوا إلى الأرض فعشقوا
بنات الناس وقالوا إبهن حسنات ولم يقصدوا العصيان بل وقعوا فيه وهم لا يعرفون
عقابه .

وللشيطان سبلان إلى عواية الإنسان فى رأى العقبة الفيلسوف . أحدهما أن
يوسوس له من حيث لا يراه لأن طسعة جسده كما تقدم من طبيعة الهواء ، فهو
يجرى من سريرة الإنسان مجرى النفس الذى لا تراه العبدان ، والسسل الآخر أن

يستولى عليه ويتخبطه على هواء ويبتليه بالأمراض والعاهات ، وقد يسلط الأوثنة والطواغيت على المدن والأقطار الواسعة ليدودها عن رحمة الله ، وله جنود في كل مدينة وكل قطر وبين كل معشر يعبدون الأوثان أو يعبدون ربا من الأرباب غير الإله الواحد الذي يدين به أتباع السيد المسيح ، فما كانت هذه الأرباب والأوثان إلا شياطين من جنود إبليس تترع أساء آدم وحواء من سلطان السماء وتموه عليهم العقيدة الصالحة بما يشبهها من الشعائر المسيحية ، ليحتلط عليهم الحق والباطل وطريق الهدى وطريق الضلال .

وكان من عقائد أوريجين أن التمييز بين الخير والشر فطرة في كل موجود عاقل يدرك ويختار ، ولا استثناء في ذلك بشياطين عامة ولا لرئيسهم الأكبر إبليس ، فهم لم يخلقوا محرفين مصلين ولكنهم انحرفوا وضلوا بما داخلهم من الكبرياء والتعرد والحسد فعلمتهم الشقوة وعز عليهم أن يستمعوا لنداء الخير والمحبة والسلام ، فأقربوا على الشر وأمامهم سبيل الصلاح يحصون فيه لو سلسلت له قيادتهم ورفعوا على أعينهم تلك الغشاوة التي وصعوها عليها بأيديهم ، ولا بد لهذا الضلال من نهاية بعد زوال المحبة وانقضاء التجربة التي يتلى بها العالم كله آخر الزمان .

ولما أراد أوريجين أن يقدر للشيطان مصيره في نهاية العالم لم ينبع أقوال المتسنيين وأصحاب الرؤى بل اتبع النصوص القديمة وفسرها على هدى الحكمة الحديثة في عصره ، ولم تكن في عصره حكمة أحب إليه من الحكمة الرواقية التي تلقاها اليونان قديماً من الهند وبثوا فيها من عقائد فلسوفهم فيثاغوراس قبساً يقر بها إلى العلم وأدب السلوك .

فقد وجد أوريجين في عصره قصصاً دينياً مستميضاً عن وقائع الشيطان مع الملائكة ومصيره بعد الهزيمة الحاسمة في آخر الزمان ، وفي هذه القصص ملاحم الحرب بين ميخائيل رئيس الملائكة وإبليس رئيس الشياطين ، وأطوار القتال لدى تدور سجلاً بين الفريقين ويؤسر فيه بعض الشياطين فيحبسون في باطن الأرض أو يقيدون بالأغلال حتى الموعد الأخير ، وتروى هذه القصص أحباراً عن الشياطين والملائكة المطرودين الذين لا يستطيعون الصعود إلى السماء أو الذين يصعدون إليها فترتدون عنها خوفاً من الرحوم الإلهية ، فمقامهم بعد ذلك عند السماء الثانية أو في مغاور الأرض يتحصنون بها من محمات الملائكة الصالحين

والقديسين المقربين ، ثم تشب الملحمة لأحيرة قبل القيامة وبعد ظهور المسيح الأول بألف سنة ، فيذهب أهل النار إلى النار ويرتفع أهل النعيم إلى النعيم أما «أوريجين» فهياة العالم عنده هى بهاية الدورة الكونية التى اعتقدها الهنود من قبل ثم اعتقدها الرواقيون بعدهم وفرصوا لها آدانا من آداب السلوك تكفل لمن يسلكها أن ينجو من الكارثة الكونية مظهرا من شوائب الحياة الأرضية ، فيخلص إلى الوجود الحق فى آفاق عيين .

وستتهى الدورة الكونية وتتطهر الخلائق بالنار الأبدية ويبطل الفناء ويموت انوت فلا خطيئة ولا عقاب فى عالم لا موت فيه ، ويتعذر - طبعاً وعقلاً - أن يبقى الشيطان على شره بعد روال معدنه وخلص العالم من الموت الذى ابتلاهم به من طريق الخطيئة ، ومن الخائر ألا يتم اخلاص والتطهير على درجة واحدة بل باتى تساعاً على درجات مترقيات ، ولكنه لا يكون متى أتى لا كما يسعى أن يكون بلا موت ولا خطيئة ولا عقاب



ونكتفى بما لخصناه عن شروح أوريجين وهروصه فى التعريف بالشيطان أو التعريف «بالشيطانيات» على الأصح لأنه قد جعل هذا التعريف دنا من أبواب الدراسة اشتهر فى الأزمنة لأحيرة باسم «الديمووحى» أى علم الشيطانيات ، ولكننا لا سنقل منه إلى ما بعده دون أن نلاحظ على هذه التعريفات ملاحظة حديرة بالتوقف لديها فيما يروى عن القرن الثالث للميلاد على التخصيص - فى ذلك العهد المريب لم تكن فى العالم عقيدة غير المسيحية توحى إلى المؤمن بها مثل هذه الثقة بالأمور المغيصة فى أدق الحريثات ، وذلك هو سر قوتها وإرتياح النفوس إليها من ظلمات الحيرة والريبة التى رات على المذاهب جميعاً وتركتها لمعتقديه أشبه شىء بالسوى التى يزحى بها الصراع ولا تمضى مع الحد خطوة إلا عادت إلى اللعب خطوات ، وقد كان أشبه المذاهب بالحد فى ذلك العصر مذهب المعروفين Gnostics الذى كان فى حقيقته عنواناً لكل مذهب يرد على الخطا فى تلك الآونة ، إذ كانت المعرفة ألواناً وكانت ألوان الوسائل التى تطلب بها لا نقل عن ألوانها ، ومنها - فيما نحن بصددده من حديث الشيطان - معرفة الحيرة بالمعدات والردائل الحرمه لأن الخهر بها يسلب طلاب المعرفة حظاً يتاح للجاهل ولا يسقى لهم أن ينجتوه .

وقد أتاحت طائفة من هؤلاء المعرفيين عبادة الشيطان مع أصحاب النحل التي كانت تعدّه وتتقرب إليه باستباحة الرذائل ولأرجاس ، وتسميها المعرفة بالنور من طريق المعرفة بالظلام ، ولم تنقُض فترة طويلة على هذه النحل المتفرقة حتى تجمعت منها نحلة كبيرة أو شكت أن تعم القارة الأوربية من أقصاها شرقاً إلى أقصاها غرباً في القرون الوسطى ، وبقيت منها - كما تقدم - بقية إلى أوائل القرن العشرين

ولا يتوقف تاريخ اللاهوت بعد أوريجين على أسماء أكبر من أسماء القديس أوغسطين والقديس توما الأكويس ومارتن لوثر رفيع علم الثورة الذي سعى هو نفسه شيطاناً وسمى الحبر الأعظم في زمانه بالشيطان

عاش القديس أوغسطين بين أواسط القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للميلاد (٣٥٤ - ٤٣٠) وأحاط بما تقدمه من الشروح والفروص في موضوع الشيطانيات ، وذهب في عدة سقوط الشيطان مذهب كمذهب أوريجين فقال به خلق للنجير ولكنه أشقى نفسه بجسده وكهريائه فأمر الله من سماء الأثير النصارى إلى هواء الأرض الكثيف ، ولا يتمتع عد أوغسطين أن يكون هذا الجسد ملائمة للتناسل من الأجساد الشريرة لأن الحديث عن علاقة الشياطين بالنساء الأدعياء متفق عليه بين الوثنيين عباد الشياطين وبين المؤمنين الذين يلعنونها ويؤمنون بوجودها ، واطلع أوغسطين على أطراف من الفلسفة اليونانية كما اطلع عليها أوريجين ، فلم يستبعد أن يكون حسد الشيطان أربع من حسد لإسكان كما رعم الفيلسوف لأفلاطوني أبولبيوس APuleius الذي كان به بعض الخطوة بين المثقفين من رجال الدين ، ولكنه أبى أن يقول إن امتداد الشيطان بالحسد يرفعه رتبة على الإنسان فإن الحيوان يمتاز على الإنسان بالحس كما يمتاز السر بالنظر والكلب بالشم والطير بالخفة ، ولا يقال بها أربع منه رنة لرححائها عليه في هذه الحواس ، وقد يحف جسم الشيطان عن الجسم البشري ولكنه يصلى بحسده نار العذاب كما جاء في وعيد السيد المسيح .

وأوغسطين هو صاحب الكتاب المشهور عن مدينة الله أو عن ملكوت الله ، وتقبله مملكة العالم التي قد سطر عليها الشيطان عموة أو بالكبد والخدبة ، وهي

وسعه أن يتسلل إلى الأرواح من مسكنه في طبقات الهواء أو يترصد بها وهي صاعدة إلى أعلى فإياها في معراجها لا تنى تعبر بالشياطين اللعويين والملائكة الأبرار ، فإذا كانت في حياتها قد علت سيادة الشر بقمع الشهوات والرهق في المطامع فلا سلطان للشيطان عليها في معراجها إلى عليين ، وإذا حرحت من الدنيا وفيها شائنة من عواية الشيطان عالقة بها فتلك هي العلاقة التي يقتصها منها الشيطان ويعرفها بها من الصعود ويهبط بها إلى هوانه أو هاوئنه حيث يشاء

ويرى أوعسطين كمن تقدموه وأتوا بعده أن الشيطان علم بالسحر قادر على شر الأوثان واندوأة منها ، وأن الأوثان المعبودة شياطين لها هذا العلم وهذه القدرة وهي وسعها أن ترصى عبادها بقضاء المطامع وترههم بالخوف والمرص ، ولكنها قدرة محدودة تقصر عن عرعة الإيمان إذا صدقت بية المؤمن عليها ، ولم يترك المؤمنون صدى في حريهم معها لأبهم معانئون عليها بكفارة السيد المسيح



وأعظم الأعلام في اللاهوت المسيحي بعد أوعسطين فيلسوف القرون الوسطى توما الأكويني (١٢٢٧ - ١٢٧٤) الذي فلسف العقائد المسيحية على مثال لم يسبق إليه ولم يحققه أحد بعده ، ومحور فلسفته حرية الإرادة التي يملكها كل محبوق عاقل ، وأولهم الشيطان لأنه كان في المرحلة العليا بين مخلوقات العلوية وكان امتحانه من ثم أعسر من امتحان سواه ، وكان قدرته كذلك على الثبات والنجاة أعظم من قدرة الآخرين ، فأذهلته العظمة عن كل شيء غير نفسه وضمح إلى مساواة الله في عظمته ومشاركته في وحدانيته ، وتنعه من تنعه عن هم على غراره فهو من عليائه وهو مع تابعه .

ويسمى الفيلسوف هؤلاء الشياطين جميعاً بالكائنات العقلية أو الكائنات الذهنية ، تمييزاً لها من الكائنات الحيوانية لمولدة من التراب ويقول إنها مسلطة على عقول الشر لاستدراجها واستدراج عاية ما انطوت عليه من الصديق والمباغة ، وقد يحدث ذلك بإذن الله وقصائده ، وقد تكون برائعه الكبرى مستقرة في عرائز الإنسان ويكون الإنسان فيها عدو لنفسه إذا غلب عليه هواه قبل أن يغلبه وسواس الشيطان

وبجاري الفيلسوف من تقدموه في الاعتراف للشيطان بالقدرة على العجائب والأهين التي تشبه المعجزات ، ولكنه يحده هذه القدرة حد العالم الفيلسوف الذي

يرفض عقله التسليم بالعث في نظام الطبيعة ، فلا حوارق على التحقيق في طاقة الشيطان ، ولا تعقل الحوارق إلا من عمل الإله الذي وضع للعالم نظامه وأحراره عليه ، وإنما يستطيع الشيطان إثارة المادة بعناصرها فيدمر بها من ترد له الفتنة ولا يتعدى هذه العوارض إلى تمديل جوهر مادة أو تبديل جوهر الروح ، وكل ما يصنعه الشيطان مما يتنس على الناس بالمعجرات وإنما هو حذوع خص الإنسان حتى يرى لأشياء عسى غير صورها ، أو تمديل لأشكال تلك الأشياء لا يبعد إلى الصميم .

ولعل القديس توما الأكويني قد قال كلمة اللاهوت الأخيرة في هذا الموضوع ، فلم يحدث بعده رأى غير هذا الرأى في تصوير الشيطان أو تصوير قدرته على شئ لإسان .



وبأتى أكبر الأعلام بعده في اللاهوت المسيحي على اتجاء غير هذا الاتجاه ، ولكنه لا يعير شيئاً من وصف الشيطان كما يعير الشئ الكثير من وصف الدينستهواهم الشيطان في رأيه بين رجال الدين ورجال الدين .

جاء مارتين لوتر في أواخر القرن الخامس عشر وعاش إلى ما بعد منتصف القرن السادس عشر (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) ولم يتغير بين عصر الأكويني وعصره معتقد واحد من المعتقدات التي كانت شائعة عن الطبيعة الشيطانية .

فكان لوثر يؤمن بوجود السحرة ومساعدتهم سراً أو علانية لأرواح الشر وزمرة الشيطان ، وكان يؤمن بقدرتهم على تسخير الأوبئة والآفات واستحقاق السحرة قضاء الموت الأبدى إذا نشت عليهم بمائة الشياطين على المؤمنين الأبرياء ، وتغلي أحداث المائدة التي نقت عنه بما كان يرويه لجلسائه من قصص الشياطين السحرة في زمانه وقبل زمانه ، ومنها أن رجلاً من المؤمنين نطق على الشيطان ولاد بالمرار ، وأن رجلاً آخر بقيه فكسر له فرساً من قرونيه وحاوون رجل آخر دونه في الإيمان فطش به الشيطان . وبصيحة لوثر للمؤمنين أن الشيطان سخرة فاصحكوا منه ولا تهابوه!

وبما تحدث به في محالسه قصة عن الإمبراطور فردريك الذي كان يصادق علماء العرب ويطلع على علومهم ويتهم بالريغ والكفر لاشتغاله بالمجربات من العلوم والصناعات ، وخلاصة هذه القصة أن الإمبراطور دعا إلى مائده ساعراً مشهوراً وأراد أن يباخره في القدرة فجعل به في بدنه مخالب كمخالب الرجاج الأسطورية

دات الأجمة والقوائم والأنياب ، فحجل الساحر ولم يمد يديه إلى الطعام .
وإنهم لعلى المائدة إذا بصيحة من انطريق ترعج الإمبراطور فيهض إلى النافذة ليطل
عليها ، فيعتنم الساحر فرصته الساحة ويحعل للإمبراطور قرونا على رأسه كقرون
الأيائل ، فلا يستطيع أن يرتد برأسه من الباعدة وعليه تلك القرون . .

وعلى حدار من حدران قلعة «واربرج» مداد سائح بقيت أثره ، وعلم الروار عما
يرويه حراس القلعة نقلا عن المعاصرين أنه من مداد الدواة التى ألقاها لوثر على
الشيطان حين تراءى له ليصله عن دعوته ويكفه عن هجماته على أحبار رمانه ،
ولم يبرح لوثر طوال أيامه إلى أحر حياته يادى بأنه فى حرب مع الشياطين
ويحسب لقائمين بالسلطان فى الأرض باسم الدين ثوار على ملكوت السماء .



ثم انقصت القرون الوسطى وتقدمت النهضة العلمية فاصطدمت فى كل وجهة
يتحده إليها بالكلام فى «الشيطانيات» أو علم «الديمولوجى» كما عرف فى الزمن
الأخير .

كنت النهضة العلمية تصطدم بهذا البحث خاصة لأنه كان يدور على السحر
والسحرة ومحالفة «المعرفة الديوية» للشياطين أعداء الله وأعداء الدين وكنت
مجالس انتقش تعمل عملها فى مطاردة السحرة أو المتهمين بالسحر لأهم يطرون
فى الكتب التى لا يقرأها اللاهوتيون .

وانقسم الدحثون فى «الديمولوجى» قسمين متنازعين . قسم اللاهوتيين وهمهم
لأكبر أن يوهقوا فى النصوص الكتابية ومعارف الزمن الحديث ، وقسم العلماء
لتجربيين وهمهم الأكبر أن يدفعوا عن أنفسهم تهمة التحلف مع الشيطان ،
ويشككوا فى وجود الشيطان أو يجرموا بإنكاره لأنه لا يظهر لهم عيانا ولا يظهر لهم
بالتجربة والرهان .

غير أن اللغة التى تدولها الناس من قبل القرون الوسطى قد تنقت من
«الديمولوجى» تعبيرات مفهومة غير منبسة على أحد يتكلم بها أو يسمعها ،
وحررت هذه التعبيرات على ألسنة المتدينين كما جرت على ألسنة المنكرين
أو المشككين فى العقائد الدينية فلما كان لوثر يقول - مثلا - عن الربا وبيوت التجارة
والمصارفة فى القرون الوسطى إنها «مخترعات» شيطانية وأن الشيطان هو الذى يدير

تلك السيوت لحسابه ، سم يكن أحد يحمل كلامه على المجاز أو يشك في قصده إلى شيطان غير شيطان الصوص الدينية الذي يجوز أن يبدو للمعيان أو يعمل مع أصحاب تلك السيوت في الخفاء ولكن المتدينين وغير المتدينين شهلوا بعد ذلك قيام الصناعة الكبرى وأهرة السحر الصخمة فوسموها «بالشيطانية» ونعتوها بالصناعة السوداء أو بصناعة الظلام وهم يأخذون من هذه الكلمات معناها الذي لا يختلفون فيه ويصهمون منها أن تلك الصناعة حلو من الرحمة والعطف ، مظلمة من ظلام الفحم والدخان أو ظلام الغشم والقسرة ، سواء نسبوها إلى الشيطان أو جعلوا الشيطان علما مفهوما على كل هذه مساوي والنسوت

ويعلب على الظن أن سهولة التعبير المجاري على هذا النحو سولت لأساس في القرن التاسع عشر أن يقحموا فوراق اللون والعصر في أحاديث «الدينولوجي» وأن يزعموا كما رعم الدكتور كارترايت أن الشيطان لم يتكلم في الجنة بلسان الحية بل كان كلامه بلسان رعي أسود على مثل الشيطان الذي كان يصع بالسواد في القرون الوسطى ، وكأنا أراد كارترايت أن يترقى بالمكرة درجة فوق الدرجة التي وصل إليها لأسقف آدم كلارك في تعليقاته على سفر التكوين (سنة ١٨٢٥) فجعل الحية رنج بعد أن كانت في رأي كلارك قرداً في فصيلة الأوراع أو تاج . وفي هذه الآونة - أو حواليها - كان الرحالون يسبحون في أمريكا الجنوبية فيسمعون من أهلها البيض أن الرخي هو الهيمه الكبرى التي ذكرت في كتاب الرؤيا الأيكريفية^(١) ويتشكك الكثيرون منهم في نسبه إلى حام ، لأنهم لا يسبون إلى فصائل الأدميين .



نعود نقدر ، لاحتما المحدثون إلى عقيدة الخطيئة ورلة آدم في الفردوس وهبوطه معصوبا عليه إلى الأرض فيحاولون تفسيرها بأحوال الطبقات واختلاف هذه الأحوال بين عصر البلاء وعصر ناء الطبقة الوسطى ، ومن هؤلاء البقاد جون فلكسر Flexner الأمريكي الذي يقول في فصل كنهه عن الملك والفان «إن عقيدة القرون الوسطى أن الإنسان سيى بطبيعته من أثر الخطيئة المتأصلة فيه وقد وافقت الميول الأرستقراطية لأنها سوعت كبح الفرد والحد من حريته . بيد أن

(١) كتاب «الكيناه المعصرى» تأليف ديموال Racial Pride by Dixgwal

الطفة الوسطى الدهشة باحتمالها لسبق الفرض الساحة لها أضرت على براءة الإنسان وأنه قد ولد ملكاً وأسدته العظم التي فرضها عليه الملوك

ويس في الممارسة بين العقائد والأحوال الاجتماعية ما يرحح هذا التفسير أقل ترجيحاً ، لأن عقيدة سقوط آدم تشكل الإنسان الحاكم وتشكل الإنسان المحكوم . وقد اهتمت بها عقيدة ملازمة لها أشد فسوة على الحاكمين من كل عقيدة شاعت في العصور الحديثة ، وتلك هي عقيدة السيادة الشيطانية على الأرض وأن سادة هذا العالم شياطين أو حلفاء للشياطين .

ولم تقرر المسيحية دعوة كما قررت هذه الدعوة التي تفرق بها كل التفرقة بين مملكة العالم وملكوت السماء أو ملكوت الله ، وتكاد المسيحية كلها أن تكون مجموعة في هذه الدعوة قس غيرها من دعواتها الأصيلة ، فقد كان حتماً لازماً أن تجتهد المسيحية احتشادها كله في التفرقة الكامنة بين ملكة الأرض وملكوت الله الذي بشر به السيد المسيح . كان ذلك حتماً لزاماً لأنها نقلت رسالة المسيح المخلص من إمامة العروش على الأرض - أو تحديد منك داود - إلى الملكوت الإلهي في السماء ، وكان ذلك حتماً لزاماً لأنها جاءت بالعراء للمحرومين من سيادة الأرض والمبتلين بطغيان سادتها ، فهم في حضي الله صاحب الملكوت الأعلى إذ يكون أصحاب السيادة والطغيان في حضي الشيطان وفي هاوية الأرض وما وراءها من هاوية الجحيم . « طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات طوبى للحراسي لأنهم يتعرون ، طوبى لودعاء لأنهم يرثون الأرض طوبى لدجياج والعطاش إلى السر لأنهم يشبعون ، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعبسون الله ، طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعرون ، طوبى للمضطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات . . » .

فرسالة المسيحية في جانب الإنسان العلوب ، وسياده العالم هي ثمرة الخطيئة التي ناء بها العالون ، ولم يتسم الشيطان بوسم السيادة على العالم تعظيماً له بل بهوي من شأن العالم وتحمير لعائمه ومطامعه وشهوته ، ولم يكن أيسر على طالب الحرية الفردية في الحضارة الحديثة من أن يقول إنه هدم سياده الشيطان وأنه غلب الخطيئة في معقلها وكسر عن جرائرها بالثورة على أصحاب السيادة الشيطانية وعلى هذا الصهم ينسعى أن تفهم رسالة المسيحية التي بشرت بملكوت الله

وجعلت هذه الشارة مصارة للنعي على السيادة الشيطانية والإرراء بها ، هكل
تعظيم لسيادة الشيطان فهو في لبابه تهوين للعالم الذي يسوده وتصديس للملكوت
الإلهي الذي يرجوه المساكين ، والحراني ، والودعاء والمطرودون من أجل البر وصابعو
السلام .

أما رسالة المسيحية في تقرير طبيعة الشيطان نفسه فهي تفرقة أخرى لا تقل في
قوة مغزاها عن تلك التفرقة بين منكة هذا العالم ومملكة السماء .

لقد كان الضرر والشر متردوين في الديانة العبرية أو كالمترادفين ، فالمسيحية هي
التي فرقت بين الضرر الذي هو نقيض السلامة والأمان والمصعة ، وبين الشر الذي
هو نقيض الخير والمضييلة والصالح ، فذلك ضرر مرتبط بالأناية ، وهذا شر مرتبط
بالمروءة والتقوى .

إن المسيحية هي التي فرقت بين مثال الضرر في الحية الحيوانية ومثال الشر في
الروح الخبيث الذي يبعث سمومه في القنب ولا يضير الإنسان إلا حيث يضار
حقا في أشرف خصال الإنسان .

وكلمة عابرة تقال في دبل هذا الفصل عن رسالة المسيحية التي جاءت بها
للتعريف بمعاني الشيطان .

إن الكنيسة الرومانية إذ رفعت أحد إلى مرلة القديسين لم تعمل ذلك قبل
التحقق من براءته من العيوب التي تنفي معها القداسة ، ونعهد في هذه الحالة
إلى وكيل للخصومة عليهم بكل ما يقال عنه لا انتفاصه بالحق أو بالباطل .

ووكيل الخصومة هذا يسمى بالمحامى الشيطاني Advocatus Diaboli تشبه
لعمله بعمل الشيطان في إكثار فضائل أيوب أمام الله ، وآية جديدة على عمل
الشيطان في امتحان الخير ، وأنه دور لازم في تقرير كن قداسة بخلقه الناس
مختارين ولا يصح من أجل هذا أن يقال أنه وهم من اخترع الخيال

الأديان الكتابية (ج) الإسلام

دور الشيطان في الديانات الكتابية الثلاث مختلف .
واختلافه بينها جوهري يدخل في كيان كل ديانة منها ، وترتبط به مفاهيمها
للخير والشر والتبعية والعقاب .

فهو في الديانة العبرية دور عامل مستعمى عنه ، لأنه شبيه بغيره
وهو في الديانة المسيحية دور عامل فعاب لا يفصل من حكمة الوجود كله .
وهو في الديانة الإسلامية دور عامل فضولى مردول ، يحتلس ويروع ويتدخل
مريسته بالنية الخفية والعمل المكشوف .

على مسرح الخلق دور الشيطان هي الديانة العبرية دور «الكرة» الذى يبوب عنه
كل كرة مثله ، إدليس بين الشيطان والملث طريق مسترق ولا عمل مقسم ، وليس
بين الإله الذى يعبدونه والإله الذى يعبدونه حلاف فى الرصد والتقص ولا
فى النعمة والنعمة غير اخلاف بين أنطواء فى السلطان

أما فى المسيحية فدوره على مسرح الخليقة دور الشرير فى قصة الخلق كله ، إذ كان
قوام الخليقة سجالات بين الخطيئة والكهارة أو العمران ، فلولا عودية الشيطان لم يسقط
آدم ، ولولا سقوط آدم لم تكرر به ولا بسريره حاجة إلى خلاص من طريق الفداء

وليس فى الإسلام ذنب يرثه أحد من أبيه أو يورثه لسيه ، فعواية الشيطان لا
تخلق الخطيئة ولا تعمى منها ، وشوكة الشيطان لا تحمى أحدا ولا هو بسحرها
لحماية أحد ، وحدود التمتع وصحة حيث يعمل الشيطان وحيث لا يعمل ، فهو
لا يحمل عن شريك من شركائه نعمة ورر من أوراره ، ولا يدارى حماقة الغافل
الذى ينقاد إليه

وفى القرآن الكريم يحمل آدم وحواء نعمة الخطيئة على علمهما بعواية الشيطان
﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

وكلما ذكرت في القرآن الكريم غواية إبليس ذكر معها أنه ما كان له عليهم من سلطان .. ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر ٤١]

وكذلك تقول الشياطين من يرجع إليها بدببه . ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاعِينَ﴾ [الصافات ٢٠] .. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [١٢] ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين﴾ [الروم ١٧] .

ولا يبعد من صل أن يعتذر من ضلالتهم بوسواس الشيطان ، فإن الشيطان ينكره ويرأ منه ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر ١٠] . ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلْتَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم ١٢] .

وليس شياطين الجن بأقدر على الغواية من شياطين الإيس ، فإن الشيطنة هي عداوة الحق حيث كانت . ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ سَيِّئٍ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام ١١] .

بل ليس للشياطين من الجن علم الغيب ولا علم السحر إلا أنه حذاع لحسن وهمة للنفس تخيل إلى الخدوع ما ليست له حقيقة قائمة في غير وهمه ﴿... يَعْلمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكِيِّ بِبَابِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا بَحْرُ فِتْنَةٍ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِبَصِيرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ [البقرة ١٠٢] .

وهي سورة سبأ عن حدود الجن التي جهلت موت سليمان وهو قائم أممهم ﴿فَلَمَّا قُضِيَ عَلَيْهِ الْمَوْتُ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبا ١٠] .

وَإِنَّمَا الْمَسْحُورُ كَالْمَخْمُورِ مَحْدُوعِ الْخَوَاسِ ﴿٢٠﴾ إِنَّمَا سَكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مُّسْخَرُونَ ﴿٢١﴾ [الحجر ٢٠].

﴿يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أُنْثَى تَسْمَى﴾ [طه ٦٦].

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [يونس ٧٧].

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر الجن الذين يعملون للإنسان بإذن الله ومنهم جنود سليمان ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَرِغِ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (٢) يعملون له ما يشاء من محاريب وتمائيل وجفان كالجواب وقُدُورٍ رَأْسِيَّاتٍ ﴿[سبا ١١].

وهيه ذكر الجن التي تؤمن بالدين وتصدق بالكتب ، وذكر الجن التي تسترق السمع من السماء ، وذكر الجن التي تقارن الإيس ، وذكر الجن والعفريت الذي تطوى له المسافة وتنقاد له المصاعب ، ولكنه لم يذكر لها في مجال التكليف عملا فط يستقط عن الإنسان تبعته أو يجعل لها سلطانا عليه بغير مشيئته ، ولا يستعاد فيه من شر يأتي به الجن إلا وهو كذلك من الشرور البشرية ، أو من الوسواس الخناس ﴿الَّذِي يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ (٥) من الجنة والناس ﴿[ناس ٦٥].

وعلى هذه الصفة تروى نعات الخطيئة حيث رويت في قصة آدم وما بعدها من قصص الأولين .

وقد رويت قصة آدم في مواضع متفرقة من القرآن الكريم ، ورويت توبته من عمله أو قوله في بعض هذه المواضع ، وهي جميعا مال التكليف الذي يفرص على الإنسان ، يسأل عن خطيئته وإن وسوس له الشيطان ، وتحسب له توبته وإن كانت بهداية الله .

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴿٣٣﴾ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴿٣٤﴾ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴿٣٥﴾ فأرلهم الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴿٣٦﴾ فتلقى آدم من ربه كلمات كتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴿٣٧﴾ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿البقرة ٢ - ٧٨﴾.

وحاءت في سورة الحجر حيث يفاضل إبليس بين خلقته وخلق آدم : ﴿ ولجأ خلقه من قبل من نار السموم ﴾ (٧٧) وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ﴿٧٨﴾ فإذا سويته ومصبحت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴿٧٩﴾ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴿٨٠﴾ إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴿٨١﴾ قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين ﴿٨٢﴾ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴿٨٣﴾ قال فأخرج منها فإنك رجيم ﴿٨٤﴾ وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴿٨٥﴾ قال رب أنظرني إلى يوم يبعثون ﴿٨٦﴾ قال فإنك من المظرين ﴿٨٧﴾ إلى يوم الوقت المعلوم ﴿٨٨﴾ قال رب بما أغويتني لأرسلنهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ﴿٨٩﴾ إلا عبادك منهم المخلصين ﴿٩٠﴾ قال هذا صراط علي مستقيم ﴿٩١﴾ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من العاوين ﴿الحجر ٢٧ - ٤٢﴾.

وقد تساءل المعقبون على قصة آدم من الشراح العربيين عن معنى الشجرة التي أكل منها آدم في الدين الإسلامي ، وقال بعضهم إن القرآن تركنا في حيرة من أمر هذه الشجرة ، ما معناه وماذا جناه آدم وحواء من جرء الاقتراب منها وأكل ثمراتها ، وليس في الأمر ما يدعوا إلى التساؤل ولا إلى الحيرة ، لولا أن هؤلاء الشراح وصعوا

في أدهانهم معنى معلوما وأردوا أن يحلوه في القرآن فلم يجدوه كما أرادوه ، إذ لا يحصى على الناظر في القصة أن ثمرات هذه الشجرة هي ثمرات «التكليف» بجميع لوازمه ونتائجه ، وما كان الفارق بين آدم قس الأكل منها وبعد الأكل منها إلا الفرق بين الحياة في دعة وبراءة والحياة «المكثمة» التي لا تخلو من المشقة والشقاق والامتحان بالفتنة ومعاينة القاتص والعيوب ، وكلما تكررت القصة في الآيات القرآنية كان في تكرارها تشيت لهذا المعنى على وجه من وجوهه المتعددة ، ويبدو ذلك حلياً من المقابلة بين ما تقدم وما جاء عن هذه القصة في سورة الأعراف ، وذلك حيث يذكر التصوير بعد الخلق ، أو إعطاء الصورة بعد إعطاء الوجود ، ثم تنمضي القصة على ما يلي

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (١) قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير مما خلقتني من نارٍ وخلقته من طين (٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَعْتُودُ (٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٥) قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) ثُمَّ لَا تَهْتُمُ مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُورًا مِمَّنْ يَبْعَثُ مِنْهُمْ لِأَمَلٍ أَهْتَمُ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (٨) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٩) فَوسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيَدِيَ لَهُمَا مَا رُورِي عَنْهُمَا مِنْ سَوَاءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (١٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا مِنَ الْبَاصِلِينَ (١١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاءَاتُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِمَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَبَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَرْعُ عَنْهُمَا لِبَاسُهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرَائِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿

[الأعراف ١ - ٢٧]

ومن تمام التوكيد لحدود التكليف في هذه القصة أن خطاب آدم به لا يعنى عن خطاب سبه وأعقابه ، فهو مكلف وهم مكلفون ، وكلفته لا تلمهم وتوتته لا تغنى عنهم ، ومولدهم منه يخرجهم على سة الأحياء المولودين حيث يحيون وحيث يكسحون وحيث يموتون .

ويميل الشرح الغربيون إلى النقد كلما وحدوا له بدحة في قصص القرآن ولا سيما هذه القصة ، وآخر من وقعا على نقد له من هذه القليل «ما يسي» الإيطالي صاحب كتاب الشيطان ، فإنه يستعرب أن يؤمر إبليس بالسجود لآدم مع غلو القرآن في تحريم الشرك وتبريه الوحدانية الإلهية ، ولكن انطلقين من الشرح الغربيين على اللغة العربية يفهمون معنى السجود ها ولا يخرجون به عن معنى التحية والإكبار ، ومنهم من يفعل ذلك لأنه يريد أن يرجع بعقائد الإسلام إلى الأصول الإسرثيلية كما فعل تورى Torrey في كتابه عن أسس الإسلام في التراث اليهودى ، ولم يكن في التراث اليهودى ذكر لعبر الحية في هذا المقم ، وهو فارق شاسع تقوم عليه الفوارق الشاسعة جميعا في التفرقة بين الضرر والشر أو بين الشر الحيوانى والشر الأخلاقى كما قدمناه .



وقليل من النقاد الدينيين في الغرب من يعطى للمخاضة الإسلامية الأخرى التى تتمثل في قصة آدم مع الملائكة وجان ، فإن العالب عبيهم أن تتكلمو عن زلة آدم فيسموها «سقوطا» ويرتوا عليها ما يترتب على السقوط ،لما لازم لطسعة التكرس ، وليس في القرآن أثر قط لسقوط بهذا المعنى في حق كائن من الكائنات العلوية أو لأرضية ، فليس فيه شيء عن سقوط الإنسان وإنما هو انتقال من حال إلى

حال ، أو من عهد البراءة والدعة إلى عهد التكليف والكلفة ، وليس فيه شيء عن سقوط الملائكة وانحدارهم من طبيعة عذب إلى طبيعة نوبها من طبائع الشيطان ، وقصة الملكين هاروت وماروت فاصل بين ما يعزى إلى الملك ويعزى إلى الشيطان من صروب السحر المنح أو السحر الحرام ﴿ وَتَبْعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكيين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفروا . . ﴿ [البقرة : ١٠]

فالمثل الذى يعرف السحر لا يحدث به أحدا ولا يعلم من يريد أن يتعلم إلا أن يطلعه على حقيقته ، وليس الخداع ولا الإصرار بالعلم من طبيعته المثل بل من طبيعة الشيطان .



هذه القصة بعينها - قصة هاروت وماروت - يطول فيها الجدل بين اللاهوتيين الباحثين عن أصولها ، لأن شراح التلمود من اليهود يعتسمون الأقوال والشواهد لردّها إلى المصادر الإسرائيلية ، وكثير من الشراح اليهود أنفسهم وغير اليهود ينهون العلاقة بينها وبين تلك المصادر فمن الدين ردّها إلى المصادر الإسرائيلية من يرى أن الملكين هما أريوخ وماريوخ الموكلان بحراسة كتاب إدريس ، ويستند صاحب كتاب أساطير اليهود إلى مراجع كثيرة لتصحيح هذا الخطأ وترجيح مصدرها لفارسي^(١) . ويرغم جيغر Geiger أنهما الملكان شمهازي وعزائيل اللذان هبطا إلى الأرض في عهد نوح فتروحا من سات الناس ووجدوا أنهما «حسانات» كما جاء في سفر التكوين ، ويعتمد جورج سيل مترجم القرآن على تحقيقات هيد Hyde في تصحيح هذا الخطأ والرجوع بها إلى أصل نابلي كما جاء في القصة القرآنية ، وكاد الخلاف على هذه القصة أن يعدل الخلاف على قصة آدم وتعليمه الأسماء ومخالفته أمرربه بمواية الشيطان ، وهى القصة التى يحسها بعضهم من الأحبار التلمودية ، ويقول ابشتين وجرنيوم إن التلمود انتبسها مباشرة من المراجع الإسلامية وبطريق غير مباشر من المراجع المسيحية .

(١) ص ١٦١ من الجزء الخامس من مجموعة جتر بيرج

غير أن هذه المناقشات جميعاً يعتمدها النقص الشامل لتحقيقيات النصوصيين
والحرفيين أجمعين ، وهو الوقوف عند النص أو عند الحرف وإعمال الجوهر الذى من
أجله استحدثت الفصاة أن تكون موضع اهتمام ومناقشة فى مباحث المقارنة بين
العقائد والديانات ، فليست المسألة فى هذه القصص مسألة أسماء ومواقع ولكنها
مسألة القيم الروحية التى ترتبط بها وتتميز مع الزمن حسب تفسيراتها ولو بقيت
نصها وحرفها فى الرويات المتعاقبة .

وجوهر المسألة كله فى القصة التى نحن بصددنا أن القرآن الكريم لم يذكر قط
شيئاً عن سقوط الخليفة من رتبة إلى رتبة دورها ، ولم يذكر قط شيئاً عن سقوط
الخطيئة الدائمة أو سقوط الخطيئة التى يدان فيها الإنسان بغير عمله ، إذ العقيدتان
— كلتها — عريبتان عن روح الدين الإسلامى كل الغرابة ، ولا يعرف الإسلام
إرادة معاندة فى الكون لإرادة الله يكون من أثرها أن تازعه الأرواح وتشاركه فى
المشيئة وتصنع فى الكون أصلاً من أصول الشر وتسقط الخلائق التى رتعت سوية
محيطة الخالق . فقد جاء لإسلام بهذه الخطورة العظمى فى أطوار الأديان فقرر فى
مسألة الخير والشر واحساب والثواب أصبح العقائد التى يدب بها صميم الإنسان ،
وقوم ذلك عقيدتان أولاهم وحدة لإرادة الإلهية فى الكون ، والثانية ملازمة
التبعة لعمل العامل دون وسطة أخرى بين العامل وبين صميمه وربه

فليست الخطيئة فى الإسلام أصلاً كونياً يعاند الإرادة الإلهية بإرادة مثلها أو مقاسمة
لها فى أنظار الوجود العيا والسفلى ، ولكنها اختلاس وحلل وتقصير ، وبه علاجه من
عمل العامل نفسه بالتوبة والهداية أو بالتكفير والجزاء ، ولما كانت فصيدة آدم على
الملائكة والجن أنه تعلم الأسماء التى لم يتعلموها ، كانت هدايته إلى التوبة كذلك
بكلمات من المعرفة لإلهية ولم تكن بشيء غير عمله وقوله .

فاذا هممت العقيدة الإسلامية على هذا الوجه فهذه هى القيمة الروحية التى
تجربى المقارنة والموازاة عليها كائناً ما كان القول فى تشابه الأسماء والقصص وتوافق
المراجع والأسايد ، وما من دين قط حلا من الأسماء والقصص التى سبقت إليها
الأديان المتقدمة عليه فى تاريخ دعوتها ، وليس أكثر من الأسماء البابلية والفارسية
فى كتب العهد القديم وكتب التلمود . وليس أكثر من هذه جميعاً فى المراجع
المسيحية ، وإنما العبرة بالقيمة الروحية التى تناط بها فى مسألة واحدة قبل كل

مسألة يتناولها الإيمان ، وتلك هي مسألة الخير والشر والتسعة واخزاء ، ولا خلاف - مع فهم هذه المسألة - على فصل الإسلام في هذه السيرة .

إن لأديان الكتابية لم تتعاقب عبثا ولم تأت المقدمات فيها بغير نتائجها . فالعبريون تلقوا ديانتهم وهم على حالهم من الوثنية فلبثوا رميا يخلطون بين فواصل الخير والشر وفواصل المنفعة والضرر ، ولبثوا رميا أطول من ذلك يخلطون بين الوحدانية في الوجود كله وبين الوحدانية التي تميزهم بإله لا يقبل المشاركة من الأرباب الأخرى ، كأنهم شركاء - لمناصرة ولماضرة بغير حق وبغير قدرة .

ثم جاءت المسيحية فصطلت بين الخير والشر بفواصل كبيرة ، وحققت معنى الخير الروحاني الذي يعصل من معنى لمعة والسلامة ، وباعدت بين العالمين وتركتهما من بعدها كأنهما دولتان تتقابلان ، هذه في السموات وهذه في الأرضين ، وتكاد الأرضية منهما تيسط يدها إلى حوزة الأخرى وتأخذ منها إلى حوزتها معقلا يسرد ويستعاد ، ولا يملك الإنسان فيه حيلة أمام الإله وأدم الشيطان ، وإنما يحىء الذنب بعمل الشيطان ويزول الذنب بعمل الإله

ثم جاء الإسلام فبسط على الوجود كله وحدة لا مثوبة هيها على وجه من الوحده ، ومنح الإرادة الإنسانية حقها وتبعتها وجعلها طاملة لنفسها إذا سمحت للشيطان أن يظلمها ، وإنما هو خداع وضعف ، وإنما هما طريقان يبدآن لا يحدع عنهما سوى المأخوذ أو المسحور ، إلا أن يؤثر الصلابة على الهدى وبصر على صلاته بين دواعي التوبة والندم .

فهذه الديانات لم تتعاقب عبثا ولم يكن لها في أطوارها سبيل أقوم من هذا السبيل ، ولو نظروا إليها فرص وتقديرا ولم سطر إلى وقائع التاريخ

وكل ما تقدم إما يتبين لنا من العقائد الإسلامية كما نتلقاها من القرآن الكريم ، وقد أحسن فهمه مفسرون وأساء فهمه معسرون ، ولعله لا يصف العقائد الإسلامية شيء كما ينصفها في هذا المقام أن يرجع إلى المسيئين فنراهم جميعا قد أساءوا فهم كتابهم لأنهم فسروه بالاسرائيليات والتلموديات وحسوها سدا محققا

عند أصحابها الأولين ، وما كانت عندهم غير أحاديث يتلففونها عن تقديمهم لأنهم لم يفهمو كتبهم فالتمسوا فهمها معونة من تلك الأحاديث .

وليس من عملنا هنا أن نستقصى أقوال المفسرين في شئون العيب ، ولكن بلخصها إجمالاً فيما نحن بصدد من طبيعة الشيطان وطبائع الخلائق العلوية كالملائكة والأرواح ، فأضعف الأقوال أن الملائكة والجن ، تشملهم كلمة الاجتنان لمعناها اللعوى الذى يفيد معنى الخفاء ، وأرجحها القول الذى أخذ به الفيسوف الراى فى تفسيره حيث يقول : « لما ثبت أن إبليس كان من الجن وجب ألا يكون من الملائكة لقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَخْشَوْنَهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ (٢١) » [سأ ٢٠]

وهذه لآية صريحة فى الفرق بين الجن والملائكة

ولا حاجة بنا إلى إسهاب أو إيجاز فى نقل أحاديثهم عن الجن واسمائهم وأجسامها ومن يأكل منها وما يأكله أو لا يأكله ، فهو على لغوه وحطه ليس له مساس بما نعنه فى هذا السياق .

عبادة الشيطان

تحلقت - بعد الأديان - نحلة تتسم بالشذوذ المطلق في جميع أطوارها لأنها شاذة في موضوعها ، وشاذة في انتسابها إلى أصولها ، وشاذة في تلفيق مقوماتها وأركانها ، وشاذة في وسائل نشرها والدعوة إليها .
مرضوعها شاذ وهو عبادة الشيطان .

ونتسبها إلى أصولها شاذ لأنها تأخذ من الهندية وبخوسية والشامانية واليونانية وأديان الحضارة الأولى والأديان الكتابية .

وجميع مقوماتها وأركانها شذوذ في شذوذ ، لأنها تجمع المقائض في شعائرها وتعمل أحياناً على مرصاة الشيطان ومرصاة للإله الأعلى بفريضة واحدة .

ووسائل الدعوة إليها شاذة لأنها سرية يبالعون في كتمانها مع امتداد معاندها في آسيا الوسطى إلى أورب العربية وإفريقية الشمالية ، ويعجب لناطرون في أمرها من الذي يتولى نشرها وما بواعثه النفسية أو القومية التي تحبسه على نشرها ، وهي مع الأديان الأخرى بين موافقة تأاها تلك الأديان ومناقضة تثيرها عليها .

ومن العسير أن توضع هذه النحلة في سق مستقيم مع تطور العقائد في مجموعة الأمم الإنسانية ، ولكنها تحاول وضعها في مدرجة من هذه الأطوار جهد المستطاع ، مع ملاحظة الأصول الجغرافية والعنصرية .

ومن الراجح المعقول أن عبادة الشيطان تنتمي قديماً إلى الشعور بقوة الشر هي البيئة التي نشأت فيها وأحاطت بها .

ومن الراجح المعقول أيضاً أن الشعور بقوة الشر قد كان على أشده حيث آمن الناس بقسمة العالم بين النور والظلمة وبين الطيبة والخيانة ، وجعلوا للإله الشر حصاة في الكون مساوية لحصاة إله الخير أو قريبة منها ، وتلك هي الثبوية «الزرادشتية» منذ أقدم أطوارها .

ويسعى أن يذكر أن الشنوية كانت تفرض لإله الشر في بعض الأزمنة سبطاً
أكبر من سبط إله الخير في العوالم الأرضية ، وتسوع هذا المرض العريب بأن
سلطان الشر سلطان موقوت يندثر بعد حين ، فالتور والخير منفردان بالسموات
العلي ، والطلعة والشر غالبان على الأرضين السفلى إلى الموعد لمعلوم ، ثم يتفهم
هذا السطان في العالم الإساسى ليحلفه سلطان الخير أبداً الأبدى .

قامت هذه العقيدة قديماً في أرض فارس على تحوم السهوب الآسيوية ، حيث لا
تعرف العثائر المترحلة غير شياطين الصحارى أو أرواحها المتمردة ، ولا تزال في كل
رحبة من رحبها عرضة بعصف الثلوح والحرور وفكك السباع والأفاعى وبكبت
القحط والظنون ، ولا تأمن في طريقها ما لم تكن على هوى الشيطان .

ولم يكن هوى تلك العثائر في حياتها لأولى منخالاً كل المخالفة بهوى الشيطان
في عنقه وعنفه أو في كبده أو حته أو في اندفاعه مع شهوته وأطماعه ، فكانت
تنساق لأهوائها حين ترغم أنها تنساق لأهواء الشيطان

في تلك الأرحاء تأصلت العبادة الشنوية وتأصلت معها العبادة الشامانية وهى
عبادة الأرواح والشياطين

وهى بلاد العمار - أو بلاد الحصار الفارسية - تهيأت الأدهان للعقائد الكوبية
الواسعة وتأصلت الشنوية وعلمت الناس أن الشر غالب على الأرض ولكنه مغلوب
بعد حين ، وأن «أهريمان» رأس الأرواح الخبيثة نافذ السلطان في عالم الإنسان

وهى السهوب المقفرة تأصلت الشامانية وشعائرها التي لا تفصل بين الكهانة
والسحر بماصل محدود ، فقد يكون الروح الواحد طيناً هادئاً إذا رضى واستراح إلى
مقامه واستوفى مطالبه من فرائسه وصحباؤه ، وقد يكون حيناً عارماً يتخبط فريسته
فلا تجدى عنده شفاعة الكاهن الساحر أو يثوب إلى السكنية بمحصن هواه

لما ظهرت المسيحية كانت الشنوية والشامانية على أقوى ما كانتا عليه قبل
الميلاد .

ونشطت مع المسيحية في محال واحد عقيدة ثنوية حملها جنود الرومان من
تخوم الهند إلى الحزر البيطانية ، وهى عقيدة «مترا» بطل النور الذى «استشهد في

حرية لإله الطلام ، ووعد عباده بالعودة إليهم بعد حين مظفرا متمكنا من الأرض
والسما ما دامت الأرض والسما .

وانهزمت عقدة «مترا» أمام المسيحية .

ولكن هزيمة العقيدة المترية لم تفتلح الثنوية من حدررها ، ولم تكن أحوال العالم
فى القرون الأولى بعد الميلاد مما ينسى الناس وطأة الشر وسلطان الشيطان ، ولم تكن
المسيحية فى دعوتها تنفى علبة الشيطان على العالم و بقياد السادة المسطرس على
الأم لوساوسه ورذائله ، فتحملت من بلاد الثنوية رحلة أخرى تسمى المابوية
منسوبة إلى «مانى» الذى ولد فى بابل الجنوبية حوالى سنة «٢١٦ للميلاد»
واستهل دعوته فى إيران قيام الدولة الساسانية فكان له من ملكها الثانى «سابور
الأول» بصير قوى أيام حكمه ، على أمل منه فى توحيد السحل المجوسية على قواعد
الدين الجديد ، ولكنه أمل لم يتحقق ولم يستطع مانى أن يصمد لأقطاب السحل
الأخرى بعد حكم سابور ، فألقى فى السحل حيث مات وهو يبهر الستين ، ووسم
أسعه باسم الربادقة أى الكدبة المفاقر ، وقيل عنهم أنهم «أهرمايون شيطانيون» .
إلا أن «مانى» كان من المجددين فى عقائد قومه وفى ثقافتهم وفى كتاباتهم
الأنجدية ، ومن مساعيه فى تجديد الثقافة تيسير الكتابة بالحروف الآرمية

وتنقيح أورن الشعر والأناشيد المقدسة وتقريب مذهب المعرفيين Gnostics إلى
مذهب المجوسية والمسيحية وتحقيق الخلاص الروحانى من طريق الحكمة والتعمق
فى أسرار العلوم .

ولم يحرج مانى من نطاق الثنوية فى آفاقه الواسعة ، فمعظم مذهب ثنوية
«زردشتية» أو مجوسية ، وقليل منه مقتبس من آراء معرفيين وعقائد لمسيحية فى
النصدر الأول قبل أن يتوسع فيها الآماء المتأخرون

فالوحد من أرل الآرال وجودان معصلان عالم النور وعالم الطلام ، ولا فاصل
بينهما مع أحدهما أن بنى على الآخر إذا شاء ، ولكن عالم النور لا يعرف النغى
بل يعرفه رب الطلام حسدا لرب النور ، فيرحف بجوده كرة بعد كرة ويأبى رب
النور أن يقبل العدا بالعداء لأنه بطبيعته محبة وسلام وحسه أن يتحنى حيث
شاء فيجعل منه الطلام .

ولما تكررت هجمات رب الطلام على العالم النورانى يحاول أن يكمن فيه ويتترع

منه ما استطاع ، خلق رب النور آدم السماوى وأرسله إلى الأرض يبرح من طبيعة الملك العنوى والحيوان الأرضى ليلقى حدود الظلام فى ميدان القتال ، وكان آدم هذا - أو حايو مارت كما يسميه المجوس - طيباً سليماً القلب يحارب شراً مروداً بسلاح الخدعة والدهاء ، فانهزم ووقع فى أسر الظلام ولم يجد رب النور بداً من الهبوط نفسه إلى الميدان لإنقاذ مخلوقه الأثير ليدى من عياهب العالم السفلى ، فألقاه ورفع به إلى الشمس حيث يقيم بعيداً من الأرض وعالمها المهدد بغزوات الشياطين

إلا أن الإله السفلى عرف من تركيب حايو مارت سر لآدمية العليا فصنع على يديه «آدم» آخر يمتزج فيه أخير والشر والروح والحسد ، وطل آدم حائراً بين طبيعته حتى أشفق لإله السماوى عليه فأرسل إليه المسيح ليندله على أشرف طبيعته ويعلمه الغلبة على أحسن هاتى الطبيعتين ، فجعل آدم ينادى منذ ذلك الحين «ويل لمن خلق حسدى واستبعد روحى» وحدثه حواء فهبط بها الملائكة إلى الجحيم ومعها دريتها من أسماء الشياطين ولم يكن للملائكة منذ تلك اللحظة من رسالة تحت السماء إلا أن يستخلصوا العوالم النورية من شوائب الظلمات ، ثم ينقص العالمان ويقضى على العالم السفلى بالدمار .

سرى هذا المذهب المانوى شرقاً إلى الصين والهند وغرباً إلى إفريقية الشمالية وآسيا الصغرى ، وسرت معه عقيدة خلق الشيطان للشريعة وسيادته على العالم الأرضى وبفائه متسلطاً عليه إلى اليوم الأخير

ووافق ذلك السريان الرحلة الشامانية بين أواسط آسيا وأوروبا الشرقية ، فدخلتها المسيحية وعشائرها مؤمنة بالسحرة والشياطين تتسمع بأن إله المسحيين ترك الأرض للشيطان لأكرم فلا حية لها معه غير أن ترضاه وتردلف إليه ، وقد بقست المسيحية الصحيحة محمولة فى تلك الأقطار إلى ما بعد القرن الثانى عشر ، وبقت نحلة «اليوحوميل» - أى النحلة الشيطانية - عالية على عشائر السعار والعشائر البلغارية عدة قرون .

ومع المانوية والشامانية نحلة أخرى - أو نحل شتى على لأصح - تعرف باسم النحل الأورفية Orphism وتشارك فى المراسم الخلقية التى تعاقب فيها الخمر وتستباح الشهوات ، ويعلمون اسم ديونيسوس Dionysus الذى يعتقد اليونان أنه ابن زيوس رب الأرباب من بيرسبون وأنها حملت به منه وهو متسكر فى صورة الحية ،

فقتله المردة واستحلصت الربة «أثينا» قلبه فهو القلب المقدس الذى كان أصحاب السجل الأورفية يحتفون به ويتخذونه رمزا للأهواء والآلام .

ويعتقد الأورفيون أن الإله أورفيوس يهذى صحابته فى طلمات العالم الأسفل بعد لموت ، ويحفظون لرحلته هذه مراسم منقولة من كتاب الموتى المعروف فى الديانة المصرية القديمة .

وطاهر من صور الشيطان التى شاعت بين الأوربيين لمشاركة فى صدر المسيحية أن عباده يقارنون بيه ربيى ديونيسس صاحب التحلى الأعظم فى حملات الخمر والمجون ، وكانوا يتقربون لديونيسس بجدى يربوه لهذا الغرض ويصورونه - أى ديونيسس - فى صورة «الساتير» الذى يتزيا بجلد المعر ويلبس قرونه على حبهته ويحر وراءه ذبا طويلا كأدائها ويمشى بقدمين لهما طيفان مشقوقان ، وكذلك كانت صورة الشيطان فى محافل عبادة الأولين

ومع اتوبة والشامانية والأورفية يسخر المعرفيون من بلاد فارس إلى عاصمة الدولة الرومانية ، ومنهم من يؤمن بالخلاص إلى النور من طريق الطلام ، والخلاص إلى الطهارة من طريق المرجس ، والخلاص إلى الله من طريق الشيطان ، والخلاص إلى المعرفة من طريق الجهة بمعانيها جميعاً فيما شملت عليه من جهالة العقل وجهالة الطباع .

هذه فلول العقائد التى تجمعت منها رحلة الشيطان وطال بها الزمن قبل شيوع المسيحية فى دور الصراع بين بقايا الأديان الوثنية وطلانع الدين الجديد ، ويؤخذ من ألقاب الشيطان فى بعض اللغات الأوربية الشرقية أن المظلم الاجتماع كدت بعض أسباب الكفر بالإله السمووى والإقبان على عبادة الشيطان المتمرّد الذى يباونه ويعلى الثورة عليه ، فقد كانوا يسمون هذا الشيطان «بصير العسد» وكانوا يحسون أنه صحبة القضاء الكوسى الذى هم ضحايا .

ولم يكتب عباد الشيطان أسرار عبادتهم ، لأنهم كانوا يكتُمونها خدرا من خصومهم ويكتُمونها مجارة بطبيعة العبادة «الشيطانية» التى لا ضى لها من الطلعة والخفاء ، وم رواه عنهم خصومهم لا تنفق فيه روايتان على جميع التفصيلات ، ولا يحال أن عبادات الشيطان كدت متفقة بينها فى أماكنها المتباعدة

بين آسيا الوسطى وأوروبا الغربية . فإن العبادات الصريحة المكشوفة تختلف وتتباين
حيث تنتشر على هذه المسافات الشاسعة من الأقاليم والسلالات واللغات والأحوال
الاجتماعية والنفسية ، فلا جرم تختلف العبادات السرية إذا ما عدت بينها مسافات
كهذه المسافات .

إلا أن المشهور من بحر العبادة الشيطانية ثلاث ، هي الكاثارثية والوجمولية
والألسية ، وبرجح المؤرخون لها أنها أسماء متفرقة لدرجة واحدة تختلف في التسمية
حسب علاقائها المحلية ، مع وحدتها في مصادرها والتقاء مصادرها جميعاً في الرقعة
الوسطى بين القارتين الآسيوية والأوروبية .

عبت الكاثارثية على العشائر الألمانية ، واسمها مستعار من كلمة Gathar بمعنى
الطهارة في اللغة اللاتينية المتوسطة ، وكنت في أصلها بحلة زهد وورعانية ثم
انحرفت قليلاً قليلاً إلى حليط من الوثنية وبقيت الديانات المتحللة من الخصبات
الأولى .

وعلبت الوجمولية على بلاد البلقان ، واسمها مأخوذ من السلافية بمعنى أحاب
لله ، أو مأخوذ من اسم داع مشهور من دعائها حولها من العبادة الصريحة إلى
عبادة الخلفاء Bogomil .

وغلبت الألبيية Albigenses على فرنس الجنوبية وسببت إلى «ألبي» Albi التي
كان مركزها الأشهر في غرب القارة وجنوبها .

ولم تنفك هذه التحل في شعائرها وعقائدها كما أسلفنا ، ولكنها تنفك في قاعدة
مشتركة بينها وهي قاعدة الديانة الدنيوية ، فكلمها مانوية تصاف إليها حوشى الوثنية
المحلية والمقتبسات المشوهة من العقائد المسيحية ، ولا تحلو عباداتها جميعاً من
إباحة بعض المحرمات وتحريم بعض المباحات التي تخالف بها جميع الأديان
الكتابية ، وإن لم يكن بينها وفاق شامل للمحرمات والمباحات .

بمنها ما يحرم الزواج لأن الزواج يستبقى النسل في عالم الشر وانفساد ولكنه لا
يحرم المصق ولا الشدود ، بل يدخلهما أحياناً في الشعائر المهرطقة لأبهما يرصيان
الشیطان .

ومنها ما يحرم اللحم والخمر والبص وكن ما جاء من تناسل بين ذكر وأنثى ،
ولكنه يبيح السمك لاعتقادهم أنه لا يولد بالتلاقح بين الجسدين .

ومنها ما يزعم أن آدم طلق حواء وتروح بالربة السالبة التي تسمى لبليت أو ليلي ، وأن حواء تروجت بعده عارد من الحن فجاء النوع الإنساني حليطاً من الأدميين واردة وذرية الأرباب الوثنية .

ومنها ما يقدس المسيح وينكر الصليب ، ولا يكروه لتكديبهم صليب المسيح ، بل لأنهم يقولون «إنه ما من أحد يعبد المشنقة التي حنقت أناه!»

واشتهر من عباداتهم عبادة القديس لأسود ، ومحوره صورة الشيطان عارياً وصورة فتة عارية تتقدم لمصلين إليه وتنقل إليهم «المركة» بلمس أعضائه ، وتنتهي الصلاة بضروب من الإباحيات كالتي كانت تقرب في عبادات أرباب النسل عند الوثنيين

وكن جماعة «سرية» ظهرت في القرون الوسطى فهي على صلة طائفة من تلك الطوائف ، ومنها الجماعة التي سميت باسم الهيكليين وبلجاليين ، وكان هؤلاء يتقلدون حلاً قصيراً ويلبسون قميصاً يسمونه الكميسية (Gamista) ويقال إنهم نقلوا الاسم من جريرة مالطة التي كانت معقلاً ليهكليين وكانت الكلمات العربية شائعة في لغتها منذ القرون الوسطى ، ولا تزال كذلك إلى اليوم

والعقيدة الغالبة بين هذه الطوائف ، على تنوع مذاهبها ، هي سيادة سلطان الشر على العالم لأرضى حاضرة وتنازع الكون بين القوة العدا والقوة السملى ، وضرورة «التماهم» مع الشيطان في أمور هذه الدنيا أو ضرورة هذا التفاهم في كل أمر من الأمور ، لأن إله الخير على قوته وحكمته قد نقص يديه من دنيا بسى آدم لا عو حاحهم ودحيلة السوء في طباعهم باختيارهم لا بدسية عليهم من قبل الشيطان

وقد بنيت على هذا المعتقد طائفة كبيرة من الأوربيين الغربيين ، وسبق ثلاثة وستون رجلاً وامرأة إلى محكمة التفتيش في طولوز (يولية سنة ١٣٣٥) فقالت إحداهن أن ماري حيورجل «إن الله ملك السماء والشيطان ملك الأرض ، وهما بدان متساويين سرمديان يتساجلان النصر والهزيمة ويسهر الشيطان بالنصر البين في العصر الحاضر»^(١)

ويسقل رودس صاحب كتاب القديس الشيطاني ندأ من تاريخ فرنسا للمؤرخ الكبير ميشليه Michelet يفهم منها أن هذه العبادات قد مترجت زماً بالثورة

(١) القديس الشيطاني تأليف رودس Rhodés The Satanic Mass by Rhodés

الاجتماعية وانحلال الأخلاق وفتور الإيمان بالدين ، فقد كان القداس الأسود صلاة إلى الشيطان يتنادوه فيها باسم رئيس العبيد ، وتقوم فيها بوظيفة الكهانة فتاة عارية تعن في الرقص حتى يأخذها الدوار ، ثم يتصدى من الجميع أحد الرجال المنسوب للعبادة فيتم الصلاة بانحاز دور الشيطان واعتبار الفتاة محررا حيا للمعبود^(١) .



وعاشت هذه النحل الشيطانية حقبة طويلة ، لاشك أنها كانت أطول مما يتاح لها لو لم يكن لها سد من الحوادث غير مرآها الخنقة أو الوجدانة ولكنها استمدت من تصارع الكنائس وانحلال الدولة الرومانية وعبادات الهرم وما اقتربت به من السبي والسلب والإباحة ، واستمدت من مظالم المجتمع وجهالة المؤمن بالسحر وسلطان الشيطان على المقيدين لأرضية ، فلما استقرت المسيحية وشاع الخوف والحذر من الجماعات المستترة لاشتباك الخصومات السياسية واتهام كل فريق من عداه بامتداد ثلث الجماعات في محاربتة والقدس عليه ، تألفت القوى على جميع تلك النحل وأحدها الكنيسة والدولة معا بالقمع الشديد والرقابة الملاحقة فلم تنق لها بقية بعد القرن السابع عشر ، إلا إدا صحت لإشاعات عن قصة النحلة الشيطانية التي كانت تستتر باسم الناسوت فيما روه الصحفي الفرنسي جوكاند Jogand وأثار حوله حمته التي سماها «الشيطان في القرن التاسع عشر» ولم تقم عليها البيئة الفاطنة بعد البحث في أساليبها ودعاؤها .



أما النحلة التي ينسونها إلى الشيطان ولا تزال لها بقية في العصر الحاضر فهي النحلة اليزيدية التي تقيم في شمال العراق ويسمى أساؤها جميعا إلى الكرد ولا يعرف أحد على التحقيق سبب تسميتهم باليزيدية ، ولا يعول على أقوال أحد علمائهم أو جهلائهم لأنهم يحرمون التعليم على عامتهم ويحعلونه وقفا على أسرة منهم تتولى الكهانة وأمانة الأسرار في هذه الديانة ، فمن كان منهم عالما سلك الأسرار فهو لا يوح بها ومن كان من جهلائهم وعامتهم فهو يلقي ما يسمعه ويؤذن له بعلمه ، وجميعهم مع ذلك يتوارثون التقاليد ولا يفقهون حسابا سواها منهم من أباحوا له العدم أو حرموه عليه .

(١) صفحة ٥٢ من الكتاب نسقم

ويرجع بعض الباحثين بالاسم إلى يريدس معاوية ، ويرجع آخرون به إلى مدينة
برد الفارسية ، ويرجع به غيرهم إلى اسم يردن الإله الأقدم في الملة المجوسية ، وغير
بعيد أن يكون الاسم منسوباً إلى يريد ، الخليفة الأموي ، لأن الصراع بين الكرد
والفرس قد فرق بين عصيانهم في السيادة وفي الدين ، فكان الكرد من علاة
السيين إذ كان الفرس من علاة الشيعة ، وربما كانت الطائفة الكردية التي تؤله
«يريدا» في صورة الإله الأرضي مقابلة للطائفة الفارسية التي عرفت باسم «على
الإلهي» لأنها تغلو في حب الإمام على رضى الله عنه إلى حد العبادة

تؤمن الطائفة اليريدية بسبعة آلهة خلقت من نور إله واحد كما تصاء الشمعة
من الشمعة ، وقد خلق كل منهم في يوم من أيام الأسوع وندبه الإله الأكبر
لإنداع جزء من العالم الأعلى أو العالم الأدنى ، وهم يعتقدون أن الله خلقهم من
بطمة آدم غير ممتزجة بحسم حواء ، خلافاً لساثر الشر من يتنسبون إلى آدم وحواء ،
لعلهم أحدوا معتقداتهم هذه من ملابوة أو من المعرفيين الذين يرون في أساطيرهم
أن آدم طلق حواء فأسلمتها الأرباب إلى شياطين الجحيم ، وعندهم أن آدم هذا هو
ادم الحادى والسبعون ، كلهم ذهبوا بالمعصية من الوجود ولم تبق منهم على صلاح
غير ذرية آدم من صلبه دون محالطة المرأة ، وهم اليريديون

ويعتقدون بتسامح الأرواح وعودة الأشرار إلى الحياة في أحساد الحيوان ،
ويحرمون ألوانا من الأطعمة والأكسية لا يعرفون علة لتحريمها غير العائلات التي
هي أشبه بأحاحى الأقاصيص ، ومنها تحريم أكل الخس لأن قديسهم الشح عادى
مر به فلم يعرفه وسئل عنه فلم يحب ، وتحريمهم لبس الثوب الكحلى لأنه عدو
السماء .

وهم يقدسون السيدة مريم والحلاج ويحجون إلى جبل الدرور كما يحجون إلى
مكة ، وكتابهم المقدس يسمى كتاب الخلوة يلحن به كتاب يسمى مصحف رش
أو المصحف الأسود ، ولكن الفصل الثالث من كتاب الخلوة يعلمهم أن الله يرشد
بغير كتاب ويحصن عباده المقربين بالإلهام من غير سماع

وليس فيما روه الثقات عنهم ما يثبت عبادتهم للشيطان ، ولعل القول
بعبادتهم للشيطان ليس حياء من اعتقدتهم أن الإله الذى يسمونه «طاووس ملك»
نصح لآدم بأكل الحنطة فاتمخ بطنه وضاق به اخنة فأخرجته طاووس ملك

العراء وصعد إلى السماء ولم يكر لأدم مخرج فأرسل إليه طائراً نقر بطنه فاستراح من أكلة الخبطة ، وعاش بعيداً من الجنة ، مطهرة يأكل هو وسوء من ذلك الطعام الأرضي إلى يوم القيامة .

فالدين سمعوا أنهم يعبدون «طاووس ملك» الذي أخرج آدم من الجنة قد وحدوا بين هذا ملك وبين الشيطان وحسبوه من النحل الشيطانية التي تعدده عبادة الأرياب .

على أننا نعرض النحل الشيطانية جميعاً فلا يرى نحلة منها تعبد الشيطان بالمعنى المفهوم من العبادة وهو الحب والتثنية والتسليم ، وإما يقصدون بتلك المراسم التي يسمونها العبادة أن يردفوا إليه بالترصية والمدرسة ، وأن يتقوا منه الشر الذي لا يقيهم منه رب سواء ، لأنه موكل بحكم الأرض إلى اليوم المعلوم

فهى مصانعة خوف أو بقمة على الخير الذي لا ينالونه ، وليس فى شعائر هذه النحل أثر واحد يحق لنا أن نطلق عليه اسم العبادة حيث نعى بالعبادة إيمان الحب وانتعظيم ولرصا بالفداء والسلاء فى سبيل ذلك الإيمان فليس فى تلك الشعائر كافة علامة على قبول العداء فى سبيل العقيدة الشيطانية أو قبول الامتحان والصر عليه إثراً لرصا لإله المعبود ولو لم يكن فيه نعمة أو هبة من هبات الدنيا والآخرة ، وكأنما كانت «عبادة الشيطان» تهمة جرت على السنة المكرين لعقائدهم رراية بهم وضاً عندهم أن يحسبوا فى رمرة «العبادة» المؤمنين بالله .

وإذا كان لفداء شرطاً من شروط العبادة ،خالصة فما من نحلة شيطانية تنفل المؤمنون بها أن يخسروا كثيراً أو قليلاً فى سبيل الشيطان ، فهى مساومة وانتفاع بالواقع الذى لا مهرب منه ، ومثل هذه المساومة لا تسمى بالعبادة إلا من قبيل الحار والتمثيل



خلفاء الشيطان

بدل ناربح السحر على تضامن النوع الإنسانى فى التهدى إلى العقائد العميقة التى تعرب عن نظرة شاملة إلى الحياة أو إلى الكون كله ، وتبسو أفكار الناس فى هذه العقائد كأنها تصدر عن عقل واحد يتعاون فيها ببداهته وحياله وبدهنه وحسه وتمازج فيه ملكة الشحيص والرمز فى وعى الإنسان السادج وملكة التجريد والتعميم فى تفكير الفيلسوف المدرب على دقائق التفكير .

لو قال قائل فى هذا العصر أن الكون كله فكرة ، أو أنه كله عدد وحسنة رياضية ، لما احتاج فى قوله هذا إلى تعمق بعبد ولا تظهر منه أنه يشتط فى نزعات التصوف أو برعات التجريد ، لأن الخاصة والعامة فى زمان يسمعون أن المادة كلها على اختلاف عناصرها وتركيبتها وأحسامها إنما هى درات تتألف من النواة والكهرباء وأن الدرة حين تنشئ تزول إلى شعاع ، وأن الشعاع هرات فى الأثير ، فلا صعوبة على العقل الساذج فى تجريد المادة من تلك الكثافة أو نكد الصلابة التى كانت عنده وصفاً عاماً لكل مادة ، وكان الهواء عنده غدية ما يتصوره من الخفة والشفافية والانطلاق من قيود الجسم الكثيف

لا يؤحد العقل الساذج مأخذ الدهشة إذا سمع اليوم أن الكون كله عدد وأن طبيعة العالم المحسوس من طبيعة الفكر المجرد أو صيغته المعنى المعنى عن التجسيم . ولكن كيف كان موقع هذا القول عنده حين سمع قلبيب وعشرين قرناً أن الوجود كله عدد وأن «الكلمة» أصل كل شيء ، كما قال بعض فلاسفة اليونان بقلا عمن تقدمهم من الكهنة والفكرين؟

كيف كان موقع هذا القول عنده حين سمع باللوحس Logos لأول مرة وحين سمع معها أو قبلها بالنسب الهندسية التى تفوق موجودات الكون لمادى كلها فلا تتمحص عن شيء سواها .

كان هذا كلاماً أشبه بالتحريف أو هو التحريف بعبه ، وطل أناس من المطبعين إلى عصر الدرة يسمعون فلا يصغونه بأكثر من أنه هراء ، ولم يكن قول من الأقوال

أُعد في الشطط عند حمهرة الساس من إحانة هذه الموجودات إلى فكرة حالصة
أو إلى عدد لا يعرفون معه ما هو المعلوم .

وقد كان حقاً من الإعجاز في التفكير أن تستطيع عقل قبل خمسة وعشرين قرناً
أن يشف تلك الشهادة بهذه الأحسام ذات الأوران والأحجام .

كان إحصاراً أو كان معوله كله على الطفرة من الحس واللمس إلى التفكير المجرد
أو الصوفية الرياضية ، ولكنه في الواقع لم يكن كله طفرة من هذا القبس ، وقد نظر
إلى خطواته القريبة عياناً إذا تذكرنا تاريخ السحر وفهمنا منه ذلك التصاميم في
البديهة الإنسانية بين ملكة التشخيص والرمز وملكة التجريد والتعميم .

كان الناس يهتمون من عمل الساحر منذ آلاف السنين أنه يحرك الطبيعة
وعناصرها بكلمة يعرفها وبأعداد مقدسة يوفق بينها فتعمل في القوى العنوية
والسفية عملها .

كان تلك الكلمة يطل الأحكام والأوران ويجعلها في يديه كالهواء أو أحف
من الهواء . وكان تلقى الكلمة أو يجمع العدد فيحرك الحبال ويرلزل الأوتاد وبطير
بالأحسام ويمد إلى ما وراء الحجاب ولا يتعد منه أو يتعسر عليه عسير .

ولم يكن أصحاب العقيدة في السحر فلاسفة يحدرون لأحسام وينظرون من
ورائها إلى الحقائق في العقل الإلهي أو في عقل من العقول العلي ، ولكنهم كانوا
أبصاراً حسيين واقعيين يهتمون أن الساحر يعمل بالكلمة ما يعمل كل منهم حين
يأمر إنسان مثله فيطيعه ، وعادة ما هالك أن الساحر يأمر بالكلمة أرواحاً واعية وأن
الطبيعة كلها أرواح .

غاية ما هالك أن الساحر يعرف الكلمة التي تعطيها تلك الأرواح ، وأنه هو —
الإنسان الساذج — لو عرفها لحرك الخيال كما يحركها ويزلزل الأوتاد كما يزلزلها ، فلا
تعمق عنده ولا تصوب ولا تجريد .

وإلى اليوم يستطيع الإنسان الساذج أن يقول أن الكلمة تعمل الأعاجيب وتحكم
الدنيا لأنها تحكم الإس والجان ، ولكنه بقولها ولا يشعر بعمق فيها ولا يشعر السامع
بدهشة عند سماعها ، وإنما «تعمقها» الفلسفة لأنها تعطيها المعنى الذي لا يقدر عليه
العقل الساذج ، ويعمل التصاميم في البديهة الإنسانية فعده فلا تسو هذه البقعة كأنها
الطفرة المنقطعة بين الحس واللمس وبين الصوفية العقلية في أعلى الدرجات .

ولما فرق الإنسان السادح بين السحر والعبادة لم يعتمد في تفرقة هذه على مقاييس الشعرة الذي استخدمه علماء العصر الأخير في مراجعته العقائد وضم الأشياء منها وفصل المختلف منها بكن فارق دقيق أو حليل .

ولكنه فرق بين السحر والعبادة غير عمد ولا ملتفت إلى فارق بينها عبر الفارق بين حالته وهو يذهب إلى الساحر وحالته وهو يذهب إلى إمامه في العبادة ، وربما كان الساحر وإماماً شحصاً واحداً ولكنه يشعر من نفسه بالعارق بين حالته وهو يذهب إليه طلباً للسحر أو يذهب إليه طلباً للصلاة .

فحيثما ذهب إليه يطلب سحراً فهو يحس من نفسه أنه يذهب إليه حمية ويستر عنده ما يطلبه ولا يسرح به لغيره ممن لا يأمنه ولا يطمئن إليه ، وحيثما ذهب إليه يطلب صلاة فهو يذهب مع غيره ويعلن ما يفعله وما يرجوه ولا يحظر له أنه يتواطأ على دسيسة من دسائس الظلام

ومنذ افترق الساحر والكاهن وظيفة وحلقاً أصبح السحر عملاً من أعمال الظلام وإن اختلف الأعوان عيه بين الأرواح الخبيثة والأرواح الطيبة ، أو بين الأرواح التي يحكمها الشيطان والأرواح التي لا حكم به عليها ولا يرجع إليه في تسخيرها .

ومع الزمن ظهر التخصيص في صناعة السحر كما يظهر في كل صناعة تنزع وتتشعب وتتميز فيها التشابهات والمتحالفات ، فانقسم السحر إلى أنص وأسود ، وإلى سحر الحكماء وسحر الكذبة والمشعوذين ، ولم يصهم الناس من وصهم بالكذب والشعوذة أنهم لا يقدرّون على صناعتهم التي لا شك فيها ، وإنما فهموا من هذا الوصف أنهم يحتالون في الصناعة ويسلكون مع طلابهم مسلك الشياطين وحلفاء الشياطين ، ولا غرابة في الكذب أو الشعوذة من شيطان

وبقيت «السرية» شرطاً ملازماً للسحر سوعية ، وبقيت هذه السرية معنى مرادفاً بمعنى الظلام وتديراً لا يؤمن على الدين باعتقوبه ولا يروونه ولا يعرفون كيف يكون تدبيره ومتى يكون وعلى أي وجه يكون : بقي الساحر محيقاً غير مأمون : وغار منه الكاهن على سلطانه فوقعت الجفوة بينهما ونس الكاهن عريمه ولم يستطع غريمه أن يلغته لأن الناس لا يصدقون لغته ولا يرون اللعبة من حق الساحر وإن لم يكن سحراً من عمل الشيطان .

وقد وجد الكهنة والمتشئون ووحيد معهم السحرة «وأصحاب الجان» جساً إلى

جنب في 'تخيار التوراة' من أقدم أسفارها بعد موسى عليه السلام ، ولكن الرؤساء والولاة كانوا يخرجون الأنبياء لأنهم ينكرون أنهم أنبياء ، ويخرجون السحرة وأصحاب الجان إذا عرفوا أنهم سحرة وأصحاب جان ، وكذلك فعل الملك شاول قبل موت النبي صمويل ، فلم مات النبي بحث عن السحرة الذين نفاهم ليحضروا له روحه بعد موته ، وقصته مع النبي في محضره ومع السحرة بعد عيبته غودح لعقائد الأولى التي لم تفصل بعد كل الفصل بين الوطيعتين ، وإن فصلت بينهما في التحلة والتقديس .

ويقول الإصحاح الثامن والعشرون من كتاب صمويل ' ١ . ومات صمويل وتدينه كل إسرائيل ودفنوه في الرامة في مدينته . وكان شاول قد نهي أصحاب الجان والتوايع من الأرض ، فاجتمع الفلسطينيين وحاءوا ونزلوا في شوم ، وجمع شاول جموع إسرائيل وبرل في حلوب ، ولم رأى شاول جيش الفلسطينيين خاف واصطرب ، فسأل الرب فلم يحبه الرب بالأحلام ولا بالأوريم - أى القرعة الكهوتية - ولا بالأنبياء ، فقال شاول لعبيده فمشوا لى على امرأة صاحبة جان فأذهب إليها وأسألها ، فقال له عبده . هو ذا امرأة صاحبة جان في عين دور ، فتكر شاول ولبس ثيابا أخرى وذهب هو ورجال معه وحاءوا إلى المرأة ليلا وقال لها . اعرفى لى بالجان وأصعدى لى من أقول لك . فكانت المرأة . هو ذا أنت تعلم ما فعل شاول . أنه قطع أصحاب الجان وتوايع من الأرض . فم بالك تصنع الشريك لنفسى تريد لها الموت ؟ فحلف لها شاول بالاله الحى لا يلحقها ، ثم من هذا الأمر ، فسألته المرأة . من أصعد لك ؟ فقال . أصعدى لى صمويل . صرحت بصوت عظيم قالت لشاول . لماذا خدعتنى وأنكرت بصمتك ؟ قال لها الملك . لا تخافى ماذا رأيت ؟ فقالت المرأة : رأيت آلهة يصعدون من الأرض . ثم قالت . رجل شيع صاعد معطى بحبة . فعلم شاول أنه صمويل فخرس حدا على وجهه ، وقال صمويل لشاول . لماذا أفلقتنى بأصعادك ياى ؟ قال شاول : قد صاق بى الأمر عاية الصبق . إن الفلسطينيين يحاربونى والرب يتحلى عنى ولم يعد يجسنى لا بالأنبياء ولا بالأحلام ، ودعوتك لتعمنى ماذا أصنع ؟ فقال صمويل : ولماذا تسألنى وقد تحلى عك الرب . وعداك ؟ لقد فعل الرب لنفسه ما أسأتى به وتكلم به على يدي ، وقد شق الرب المملكة وأعطاها لقريبك دارد لأنك لم تستمع لصوت الرب ولم تهعد عصه في عماليق ، فهو صاع بك ما صعه اليوم وعدا يدع بك

وبإسرائيل إلى أيدي الفلسطينيين ، غدا تلحق بي أنت وسوك ويدفع الرب إلى الفلسطينيين جيش إسرائيل فسقط شاول على الأرض وعشيه الوحل من قول صمريس ، ولم تكن له قوة لانه لم يذق طعاماً نهاره كله وليله ، ثم جاءت المرأة إلى شاول ورأته مرتاعاً فقالت له : لقد صدعت حاربتك بأمرك ووضعت نفسها في كفها تلمية لكلامك ، والآن تسمع أنت لصوت حاربتك وتأكل من هذا الخبز الذي أصعبه أمامك كل فتكون لك قوة على المسير في الطريق . فأبى أن يأكل ، وألح عليه عبداه والمرأة فاستجاب بهم وقام من الأرض وفعد على السرير ، وكان للمرأة عجل مسمن في البيت فأسرعت ودسخته وأخذت دفيء وعجنته وحزرت منه فطير ، وقدمته أمام شاول وعبيده ، فأكلوا وذهبوا . ١٠ .

هذه القصة كثر من كنوز البحث في مقارنة الأديان ينبر العثور على قصة مثلها فيما احتوته من شواهد المرحلة التي بدأ فيها التمييز بين الخير والشر والثواب والعقاب والإمامة الدينية والكهنة السحرية دون أن ينتهي التمييز إلى حدوده الواضحة .

وها هنا تمييز بين من يحتره الله ومن يغضب عليه كالتمييز بين مقام صمويل ومقام شاول ، ولكنه يجمع بين الاثنين في مكان واحد بعد الموت فيذهب شاول إلى حيث يلحق بصمويل .

وها هنا تمييز بين الإمامة الدينية وبين السحر ، ولكن السحر تنسب إليه القدرة على تخصيص روح النسي بغير مشيئته

وها هنا تمييز بين السحر الصالح والسحر الخبيث أو السحر الأسود ولكن الساحر يستعين بالجان كما يستعين بأرواح الموتى ، ولا يقال عن اجان إياهم من أعوان الخير أو من أعوان الشر ، لأنهم في خدمة شاول وهو معصوب عليه .

وها هنا استطلاع للغيب يطلب من النوة كما يطلب من القرعة أو يطلب من صاحبات الجان والأرواح .

غير أن العريس لم يسبقوا غيرهم في مراحل كثيرة من أطوار المسائل العيسية والعبادات . فمن قبل هذه المرحلة تميز السحر في الحضارة القديمة فانقسم إلى السحر الأبيض والسحر الأسود وإلى عمل الحكمة والمعرفة وعمل الخث والدرس ، وجاء عصر السيد المسيح وقد عرف السحران بوصيفتين وقمتمين وأثرين محتلفين ،

فتكلمت الأناجيل عن حكماء المجوس الذين رصدوا الكوكب وعرفوا منه مولد السيد المسيح في مهده ، وطل هذا السحر وغيره من ضروب السحر الممزوج مختلفين بالاسم والعمل فيما نقله الغربيون من حكمة المشرق وثقافته وظلت بقاياه إلى اليوم

فالسحر يسمى عندهم باسمين : أحدهما سحر المجوس ويدل عليه اسم «الماحي» Magic الذي بقي في اللغات العربية بلغظه القديم

والسحر الآخر يسمى بصناعة الساحرة Witchcraft ويؤخذ من اسمه هذا أنه كان مقصور على المرأة منذ كانت المرأة في العرف الشائع أداة في العوابة وعون الشيطان على كيده وعصيانه .

فقد كان الأقدمون يخطون بين فئة المرأة بوحى الغيرة الجنسية وفستها بوصفها الشيطان ، ويحسبونها من ثم حيالة شيطانية سخرها الشيطان أو تستعين به هي على تسخير المفتونين لأغراضها ومشتهاياتها ، ويقع في أدهانهم أنها أقرب إلى الخلسة والخداع لأنها تعاشر الشيطان في زواج غير مشروع ولا يحسونه إلا من قيل السفاح الممزوج بن هم يحسونه شر من السفاح الممزوج ؛ لأن السفاح الممزوج بين الرجل والمرأة من الإفساد لا يبع في العصيان والمكر مبيع المعاشرة التي تجمع بين بنت من بنات حواء وبين عبدو الله .

وتتكرر أدوات السحريين كما يتميز السحرة في المقصد والوسيلة ، فسحر الحكمة والمعرفة له أدواته من رصد الكوكب ورعاية النفس والروائح الزكية من الطيب والبخور وعلى نقيض ذلك سحر الحث والأذى ، أو سحر الشيطان بعبارة أخرى ، فإنه يتوسل إلى مقاصده الخبيثة بكل دس كره من الأدوات والآلات ويقال عن سحرته بهم بلوثون كل طهر وتبدلون كل قداسة ، ونهم بدسون اللس وانكتب الشريعة وسقربون إلى الشيطان بإحلال الدعوات والصوت محل الحطة والهدوء ، وبرغموا أن انصواء الشيطانى أيسر لمرأة من الرجل لأنها تستخدم فيه الدم البطرود ، ويعتمدون التشيع والتهمير جهدهم من التحيل فيبرعمون أن الساحرة تمسح قدميها شحم مترع من حثة طفل ديبج وتخرج للضيران من مدحة البيت وهي تمتطى المكنسة المتسحة ، لأنهم لا يريدون أن يسلمو لها القفرة على الطيران إلا أن تكون من طريق الحريق والسود وعلى أداة من أدوات الأوساح والأرجاس

ومن أصول السحر ، في عصور الحضارة الأولى ، ما يسمى بعلم التنجيم ويطلق على علم الفلك وعلم الغيب في وقت واحد .

كان التنجيم أصلاً من أصول السحر يوم كان الكاهن يتولى وظيفة الإمام ووظيفة العالم ووظيفة الساحر . وكان الناس يؤمنون معه ربوبية الأفلاك وسريان مشيئتها في الأرضين ومن عليها ، فكان الكاهن إماماً يصلي لها وعاماً يعرف حسابها وساحراً يستطلع أسرارها ويتوحي التوفيق بينها وبين مطالب أتباعه ومقاديرهم التي يستنئى عنها الغيب ويعلم كيف يتعجلها ويتقيها .

وبقي التنجيم أصلاً من أصول السحر بعد زوال عادة الأفلاك وبطلان القول ربوبيتها . ولكن بطلان القول بهذه الربوبية لم يبطل القول بسلطان الأفلاك وتأثيرها بأمر الله في العوامل السعوية ، واحتلف المتدينون في مدى هذا التأثير ، كما قال الكشاورى في كتابه عن خلاصة السحر والطلاسم ، إذ سقل آراء المختلفين فيقول : «إن الذي احتضن به الصائفة وبعض الفلاسفة الدين وفقوهم على رأيهم إنما هو القول بالهوية الكواكب واستحقاقها للعبادة واستقلالها بالتأثير والتدبير في هذا العالم ، فهذا كفر مجمع عليه في جميع الملل والأديان . لأن الملل كلها مطابقة على أن المستحق للعبادة والذي يبله التأثير وتدبير الكائنات إنما هو إله واحد واجب الوجود منصف بصغات الألوهية وربوبية وإن كل ما عداه حادث معتقر إليه على الدوام لا يستقل بنفسه في شيء من الأشياء ولو لحظة واحدة وأما القول بأنها مؤثرة بقوة أودعها الله فيها ثم تركها تؤثر بتلك القوة في العالم بإدبه تعالى بحيث لو لم يرد ذلك تبارك وتعالى لما أثرت أصلاً ومشو ذلك بمك يولى شخصاً سقط من لأقصر فيفوض له الأمر واحكم هناك فيصير ذلك الرجل يحصى الأحكام في ذلك المطر بإذن ذلك الملك بحيث لو لم يرد ذلك منه لعرله عن تلك الولاية - فهذا القول قد قائه جميع المللين ومنها إمام الحرمين ولم يرخصه السنوسى بل عده من ببدء المكرة وشيع على الفائلين به ولم يصل بهم إلى حد الكفر وأما من يقول إنها أسباب عادية أخرى إله عادته بوجود الحوادث عندها لا بها مع مجوز التحيف عن خرق تلك العادة كما هو الحكم في سائر الأسباب العادية من الأكل والشرب والقطع والإحراق ، فهذا القول لا يتكره أحد .

إلى أن يقول : «وثاني الشئتين المذكورين إثبات القوايل السعوية الأرضية ، لأنهم

قالوا إن حصول الفاعل ، المؤثر لا يكفي وحده في حصول الأثر بل لابد معه من حصول القابل ولا يكفي أيضاً حصول القابل وحده بل لابد مع وجوده من كون الشرائط المعتبرة للقبول حاصلة وأنواع رثله ، لأنه ربما حدث في العالم الأعلى شكل عريب صالح لإفادة أثر عريضة في مادة العالم الأسفل ، فلا تكون المادة السفلية متهيئة لقبول تلك الآثار لعدم الشرط أو لوجود مانع فعلى هذا لو تيسرت لنا معرفة طبيعة تلك الشكس ومعرفة طبيعة الأمور المعتبرة في كون المادة السفلية قابلة لتلك الأثر ، لكان يمكننا أن نهيئ تلك المادة لقبول تلك الأثر .»

وعلى هذا التأويل بقى سحر التنجيم بعيداً من شبهة الاتهام بطاعة الشيطان بين أهل المشرق والمغرب ، حتى ظهر في كليهما من يدعوه بالوسائل الشيطانية ويعتبر السحرة تلاميذ الشيطان في هذه الصاعقة لفدريته على الصمود والهبوط بين الأفلام والعوالم السفلية وعرفانه بخفايا العوالم السفلية وبرعاتها ونهيؤ أحوالها للتأثير والانفعال به فوقها .

وقد أورد صاحب الكتاب المتقدم أقوالاً مختلفة في التعريف بما سمى علم السحر فقال : « اعدم أنهم احتلوا في تعريفه لاختلاف المذاهب فيه . وعرفه صاحب إرشاد القاصد بأنه علم يستفاد منه حصول منكة بمسانية يقتدر بها على أفعال عريضة بأسباب خفية ، وعرفه ابن العربي الفقيه المالكي بأنه كلام مؤلف يعظم فيه غير الله عز وجل ونسب إليه الكائنات والمقادير ، وبعضهم عرفه بأنه ما يعبر الصع ويقلب الشيء عن حقيقته ومسميته عند الإسلاميين أن يعرف ليحذر منه لا لعمل به ، ولا براع في تحريم العمل به بنا ، وأما مجرد تعينه ففیه خلاف بين الأئمة ، فبعضهم منعه وحرّمه حسماً للباب كمالكية ومن وافقهم ، وبعضهم أباحوه ، وأعرب بعض النظار حيث عدوه من فروص الكهانيات لجوار طهور سحر يدعى السوة فيكون في الأمة من يكشفه يقطعه ، وقد حكاه ابن صاعد في إرشاد القاصد . ولتعلمه فائدة أخرى وهي أن يعرف منه ما يقتل فيقتل فاعله به قصداً عند من يقول بذلك .»

ثم مضى المؤلف يذكر أقسامه فقال : « إنه حقيقى وعبر حقيقى . . وأن الطرق فيه احتلفت على أربعة مذاهب . أحدها طريقة تصفية النفس وتعليق الوهم وهي طريقة أهل الهدى ، لأنهم يعتقدون أن تلك الآثار السحرية إنما تصدر عن النفس

الناطقة ولذلك يلازمون الرياضات الشاقة حتى تصفو بموسمهم وتتحدد عن جميع الشو عن البدنية بحسب الطاقة البشرية . . . وهذا المذهب مسمى على ثبوت التأثير لتوحيه النفس وتعليق ألوههم . . . والمذهب الثانى من المذاهب الأربعة التى للسحر ، طريقة السط وهى عمل أشياء مناسبة للعرض المطلوب مصانة إلى رقية ودخنة بعزيمة نافذة فى وقت محتار ، وتلك الأشياء تارة تكون تماثيل كالطلسمات وتارة تصاوير ونقوشاً كالشعايد وتارة عقداً تعقد ويغث فيها وتارة كتبا تكتب وتقدس فى لأرض أو تطرح فى الماء أو تعلق فى الهواء أو تحرق بالنار ، وتلك الرقية التى يرقى بها تصرع إلى الكوكب الفاعل للعرض المطلوب على رعمهم ، وتلك الدخنة منسوبة لتلك الكواكب لا اعتقادهم أن هذه لأثار إنما تصدر عن أحرام الكواكب ، وكتاب سحر السط نقل ابن وحشية يشتمل على تلك الطريقة . . . والمذهب الثالث من المذاهب الأربعة السحرية مذهب اليونانيين المتقدمين وهو تسخير روحانية الكواكب والأفلام واستئصال هواها بالوقوف والتضرع إليها لا اعتقادهم أن هذه لأثار إنما تصدر عن روحانية الأفلام والكوكب لا عن أحرامها ، وهذا هو الفرق بينهم وبين الصائنة أهل المذهب الثانى وأهل الطلسمات . والمذهب الرابع من المذاهب الأربعة السحرية مذهب العبرانيين والقبط والعرب وهو الاعتماد على ذكر أسماء مجهولة المعانى كأنها أفسام وعمر ثم تترتب حصص كأنهم يحاطبون بها حاصر لا اعتقادهم أن هذه لأثار إنما تصدر عن الحس ويدعون فى تلك الأقسام أنها تسحر ملائكة فاهرة للجن .

وقد أورد لأوغنستانى فى رسالة البولث والمزجان فى تسخير ملوك الحان ، أمثلة فى آيات وحملات إعدادها بحروف الحمل وتقسيمات هذه الآيات ولأعداد إلى جداول مناسبة لدعوة الملائكة الذين يسحرون الحان ليعود ولأعداد هؤلاء فيسخرها الطبيعة والناس ، فى زعم أصحاب هذه الأرصاد .

وأنفهوم من مؤلفات الأوربيين فى السحر والطلاسم أنهم نقلوا جميع النفسيات واقتدوا بالشرقيين فى الحكم عليها فى الوجهة الدينية ، واتخذوا من عطارد كوكب راعياً للسحر كأنه حليط من الرب اليونانى القديم والشيطان ، وجعلوه ولياً للشطار والخنشاء وأدعياء الطغم وأصحاب الخداع بالنس والخطاة ، وانتهى بهم الأمر إلى

تُحرّم هذه المعارف السحرية جميعاً وتقسيم المعارف كافة إلى قسمين قسم حلال وهو ما يشتغل به رجال الدين برحمة من الرؤساء ، وقسم حرام وهو كل ما عداه بلا استثناء لمذاهب الفلسفة وتحارب العلوم الحديثة ، فدخل في عداد المعارف الشيطانية والسحر الممنوع كل علم يتولاه أناس من غير رجال الدين ، ولم يستثن - كذلك - كل سحر يرغم أصحابه أنه من العرائم التي يستعينون فيها بالملائكة ، فقد شاع في تلك القرون أن الشيطان يتشكل بأشكال الملائكة والأرواح العلوية كما قال بولس الرسول في رسالة كورنثوس الثانية «لأن هؤلاء هم رسل كذبة فعنة ما كرون معيرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح ، ولا عجب لأن الشيطان نفسه يعبر شكله إلى شبه ملاك النور ، فليس عطيماً أن كان خدامه يعيرون شكلهم كخدام للنور»

واحتتر أحرار الكنيسة من دعوى كل مدع يسب إلى نفسه القدرة على مخاطبة الملائكة واستحياء العيب ، فعم التحريم كل عريضة من عزائم السحر وما إليه ، وكان الصواب يعاقب على جريمة السحر بالموت إذا ثبت أن الساحر استخدم طلاسماً لإهلاك المسحور ، ثم صدر في إنجلترا قانون معدل له (سنة ١٦٠٣) يقضى بأنوت على كل من يشت عليه تعاظم السحر ولو للعلاج وشفاء الأمراض ، لأنه مخالفة مع الشيطان وكل مخالفة مع الشيطان حيابة لله ، وكانت إنجلترا مع هذا معدودة من البلاد التي تحصص كل الخصوع للسيطرة الكهنوتية ، ولم تعمل محاكم التفتيش فيها كما كانت تعمل في القارة الأوروبية حيث أحرقت النساء عقاباً على السحر وأحرق الأطفال لأهم من ولد الشيطان ، وصدرت آخر هذه الأحكام في منتصف القرن الثامن عشر ، وكان بعضها ما صدر في الولايات المتحدة

وانتهى القرن الثامن عشر والرأى العالِب على أهل الغرب أن السحرة جميعاً حلفاء الشيطان ، وأن من السحرة كل من يروم الطيعة بعلم غير العلوم التي يقرها الديتيون

الشیطان والفنون

قال أبو العلاء :

وقد كان أرباب الفصاحة كما

راوا حسنة عدوه من صفة الجبن

وربما كان أبو العلاء يحصى العرب دون غيرهم بهذا القول ، ولكنه في الواقع قول
يعم جميع الأقسام ويعم جميع أنواع الإحسان في الكلام وفي غير الكلام
فالعبقريّة عند الأوربيين مسوبة إلى الحسن ، ومعنى العبقري عندهم أنه صاحب
الحكمة أو الشبيه بالحكمة في القدرة والتفوق كشأن ما كان العمل الذي يتفوق فيه ،
وكلمة «جينياس» Ginnas تطلق على كل صاحب قريحة خارقة للمألوف في
الابتكار والابتداع سواء كان ابتداعها في الشعر والنثر أو في التصوير والنحت أو في
الإشياء والتلحين أو في العلم أو الصناعة أو ندير المال وسياسة الشعوب .
والعبقريّة في التعبير العربي الحديث مأخوذة من كلمة عبقّر ، موضع يقولون إن
الجبن تسكه وإن الصناعات الفائقة كلها تنسب إليه ، ومنها صناعة السيوف كما
قال امرؤ القيس :

كان صليل النمر حين تطيره

صليل سيف يتقطن بعبقري

ويقولون إن سكانه أنفسهم موصوفون بالجمال كما قال الأعشى : «كهولا وشبان
كعبة عبقري» .

ويرد بعضهم أن الكلمة مأخوذة من الكلمة الفارسية «أنكار» بمعنى الرونق ، وهو
بعيد لأن اقتباس كلمة الرونق لا يفسر القصص المنسوجة حول البلد المسمى بعبقر
ولا يوحد في الأصل الفارسي ما يوحي بهذه الفصحة أو يوحي بأسباب اقتباس
الكلمة على حسب العرف المأثور في هذه المقننات .

وتذكر كلمة «عبقري» وصفا للناس بغير نظر إلى اشتقاقها من المكان المزعوم ،

كما جاء في سورة الرحمن من القرآن ﴿مُتَكِينٌ عَلَى رُفْدٍ حُضِرَ وَعَبْقَرِيٌّ حَسِينٌ﴾ .

ومن التعبيرات ، المتشابهة بين اللغات وصف الإبداع بالإعجاز ووصف الإعجاز تارة بالدقة التي تحفى أسرارها على غير دوى الفطنة ، وتارة بالفحمة التي تتعاطم العاملين من غير دوى العزم والقدرة الحارقة .

يقال ذلك فى البلاغة ومعانيها الحفية ومطنتها النافذة إلى الخفايا ولأعماق ويقال ذلك فى المساعى الكبار التي يصطلح بها المردة الحبارون ولا يقوى على الاصطلاح بها من دويهم من دوى الأجسام المحسوسة

وحيث تسرى الخواطر إلى تصوير الخفاء والدقة والقدرة الحارقة لا حرم منهى بمسراها إلى العوالم الخفية التي لا ترى بالعيون ولا يحد قدرتها بما يحد الأيدي والأقدام من 'جسام بى آدم وحواء .

ولهذا الاستطراد الطبعى فى تتابع لخواطر تراقت بذاهة الشر على علاقة الملاحة بالحن يل على علاقه كل «نالع» من الأقوال والأعمال بتدث الخلائق المستتره التي لا تحدها بقائص اللحم والدم ، لأنها منلسة فى الأذهان بخلفة النار والريح ومادة «الحو اللطيف» مما لا يحصر ولا يحال بيه ربيى مسعاه

والعرب ترعم أن شعراءها تستوحى الحن وأن كل شاعر منهم يستعين بشيطان يصاحبه ويعرفه باسمه . فهبيد اسم شيطان عيد ، ومسحل اسم شيطان لأعشى ، وجهام اسم شيطان عمرو بن قطن ، وسقياق اسم شيطان بشار ، ويرعم المرزدق أن الشعر مقسم بين شيطانين أحدهما يسمى الهوجل وهو موكل بالحنيد من الشعر والآخر يسمى الهوبر وهو موكل برديئه وسقطه ، وأنشدته رحل من نعيم بيتا بقول فيه :

ومهم عمر العسمود بالله كأنما رأسه طين الحسواتيم

فصحك وذل : إبهما قد اجتماعا لث فى هذا البيت فكان معك الهوجل فى أوله فأحدث وحالطت الهوبر فى آخره فأصدت .

وكان أبو السجم الرحار يفخر على الشعراء ويقول إن شياطينهم حميها إناث ما

خلا شيطانه فهو شيطان ذكر :

إنى وكل شاعر من البشر شيطانه أثنى وشيطاني ذكر

وكأنه نظر في ذلك إلى فحولة الكلام ، بما اشتهر به الرجز ولم يشتهر به الشعر في زمانه

ويكون مع الشيطان تابع أو «رثى» كأنه الراوية الذي يحفظ ما يلقيه الشيطان القائل عمرو الخاطر .

وفي كتاب «أكام المرحا في أحكام الحان» نظم كثير منسوب إلى الحسن بنغير واسطة الإنس أو مشترك بين قائلين أحدهما من هؤلاء والآخر من هؤلاء ، ومن هذه الشعر المشترك :

قال بعد عننة طويلة : «خرجت مع نفر من قريش يريد الشم فسر لنا بواد يقال له وادي عوف فعرسنا به فاستيقظت في بعض الليل فإذا أنا بقائل يقول ،

ألا هلكت السبائك عني يا بني فـهـر

ودو الباع والمجد التليد ودو الفخر

فقلت في نفسي والله لا جيبته فسقت

الأيها الساعي أحمال الجود والمصر

من المرء تحملاه لب من بني فـهـر

وقال :

بعيت ابن جدعان بن عمرو وأحاليدي

وذا الحبيب القدموس والمنصب القهر

فقلت :

بهمري لقعد نوهت بالسبيدي

به الفصل مسهروا عني ولد الضر

فقل :

مررت بتسوان يعمش ووجهها

صباحا عليه بين رمزم والحجر

فقلت

معنى؟ إن عهدى في عهد عسروية

وتتمتع أيام الخيرة بالشمس

وقال

تثوی عند ایام ثلاث کما واصل

مع السبل أخري السبل أو وصح المسجور

فاستيقظ الرفقة فقالوا من تخاطب؟ فقلت هذا هاتف ينمى ابن جدعان ، فقالوا : والله لو بقى أحد بشرف أو عرة أو كثرة مال لقمى عبد الرحمن بن جدعان فقال ذلك الهاتف :

اری الیم لاتبعقی عمریرزا بعسمرتہ ولاتبعقی دلیلا

فَقُلْتُ :

ولا تبيح في الشققين ثقبلا

ولا تبقي طرود ولا الهولا

وكأنما نظر صاحب هذه القصة إلى حسن بن ثابت في المساجلة الشعرية حيث يقول عن صاحبه الخبير:

وَلِيَّ صَاحِبٍ مِنْ بَنِي الشَّيْبِ صَاحِبًا نَظْمًا لِقَوْلِ وَطْرٍ أَهْوَاهُ

وقد روى صاحب أكام المرجان أبياتاً كثيرة من نظم الجس في رثاء عظماء الصحابة وآل النبي ، منها ما نسب إلى الجس مفردين به ومنها ما اشترك فيه قائلان كالآيات التي رويت في رثاء ابن جدهان

وكانوا يقولون عن توارد الخواطر بين الشاعرين إيهما يأخذون من شيطان واحد فذكر صاحب مواسم الأدب أن الفرزدق وجريرا ركباً ذقة إني لرفافة لاستمناح هشام بن عبد الملك فمزل جرير في بعض الطريق فتلفت نحوه الباقية فأشد الفرزدق:

عبدالام قلمچىيى وايت قىمىتى

وَحُفَيفَةُ بْنُ أَبِي هُرَيْرَةَ

على، فبيما أنا في مجلسي والحرم قد حصص بي، إذا أنا بشيخ ذي هيئة وجمال عليه جمال قصيران وقميصان بعمان وعلى رأسه فلنسوة وببده عكارة مضمعه بعصه ورواح الطيب يموح به حسي ملأت الدار. فدخلني عيظ عظيم لدخوله على وهممت بطرد يوابي فسلم على أحسن سلام فرددته عليه ودعوه إلى الجوس فجلس وأحد في أحاديث الناس وأيام العرب وأشعارهم حسي سكن ما بي من الغضب ففضت أن علماني تحروا، فميرتي بدخال مشه على لاديه وظرفه فقلت: هل لك في الطعام؟ فقال: لا حاجة لي فيه. فالتشرايب؟ قال: ذلك إليك. فشربت رطلا وسقيته مثله فقال: يا أبا إسحاق هل لك أن تغيبنا بشيئا فنسمع من صحتك ما قد فقت به عند الخاص والعام ففطس قويه ثم سهت الأمر على نفسي فأخذت العود فحسنت ثم صريت وعنيت، فقال أحسنت يا إبراهيم! فاردت عيظا وقلت: ما رضى بما فعله في دخوله بغير إذن واقتراحه على حتى سماني باسمي ولم يجمعل محاطبتي، ثم قال: هل لك أن تزيد ويكافك، فتعجبت في نفسي وقلت: يكافني؟ ثم أحدث العود ففويت وتحفظت بما غنيت وقمت به قبيما كافيا لقوله لي أكافك. فطرب وقال: أحسنت يا سيدي! ثم قال: أتأذن لعبدك في العناء؟ فقلت: شأيد! واستضعفت عقله أن يعنى بحضرتي بعد ما سمعه مني، فأخذ العود وجسه فوالله لقد حلت أن العود يسطق بلسان عربي فصيح في يده وانفج يعنى:

ولي كيد مقبروحة من يسيمي

بهب كبد ليست بدات قروح

إلى آخر الأبيات . .

فوالله لقد ظننت أن الحيطان والأبواب والسقوف وكل ما في البيت يجيبه ويغنى معه من حسن صوته، حتى جلب والله أني أسمع أعصاني وثيابي تجاوبه ويقب مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحركة حالط قلبي من الدهاء التي عيبتني عن الوجود، فدمارأي كذلك أخذ العود ثانية وانفج يغنى بهذه الأبيات:

الاياحمامات اللوى عدن عوده

فإني إلى أصواتكن حزين

إلى آخر الأبيات . .

فكاد عقلي أن يذهب صرنا، ثم عنى لريد من الطشيرة

الأيام صبا نجد متى هجت من نجد

لقد ردى مسسرك وجداعلى وجد

إلى آخرها..

ثم قال يا إبراهيم! هذا العناء الماخوري خبده وانح نحوه فى غنائك وعلمه حواريك فقلت، أعده عسى. فقال لست بمحتج، قد أخذته وفرعت منه، ثم عاد من بين عيسى فارتعدت لذلك، وقصت الى السيف فحردته وغدوت نحو أبواب الحرم فوحدتها معلقة، فقلت للجوارى: أى شيء سمعتن عندي؟ فقص. سمعنا أحسن عناء، لم نسمع قط أحسن منه، فخرجت متعيرا إلى باب الدار فوجدته مغلقا فسألت البواب عن الشيخ الذى خرج فقال: أى شيخ؟ والله ما دخل عليك أحد. فرجعت لأتأمل أمرى فإذا هو قد هتف بى من بعض جوارب البيت: لا بأس عليك يا أبا إسحاق! أنا أبو مرة ابليس وقد كنت نديك اليوم فلا ترع.. فركبت إلى الرشيد وأخبرته بالحديث، فقال ويحك أعد الأصوات التى أخذتها فأخذت العود فإذا هى راسخة فى صدري . . .

وقد كان عهد العرب مزيف الحن فى الصحراء قديما جدا لم يتغير ظنهم به فيما نظمه الشعراء للإسلاميون ، كدى الرمة حيث يقول

ورمى كعرف الجن فى عقده

هرير كضراب المغيس بالطيس

غير أنهم حصوا الشاعر بالشیطان الملازم ولم يجعلوا للمعنى شيطانا مثله لأن من الشعر كان أقدم عندهم من من العناء ، وإنما كان عاؤهم حداء أو محاكاة للحداء وكان الحداء نغما شائعا يعبه كل سائق يحلو الإبل فى طريقة لا محل فيها للافتتان والتنويع ، وكان عاؤه على الأكثر فى قافلة لا يفرد عنها بمكان يطن أنه يحلو فيه بالجن لتلقفه ويستمتع منها ، فلما ظهر المعنون أحاد، مقطعين لعملهم مسردين بوصف الحماهم ، أحبوا محاكاة الشعراء بالأخذ عن الجن فى صاعتهم مغالاة بها عن قدرة الإس فى هذه الصناعة ولكهم طرأوا بهذه الدعوى ولم يتأصوا فيها كما تأصل الشعراء فسمعت من أحاد متفرقين ولم تكن إجماعا من وحى البيهة فى البيئة بأسرها .

وفد روى عن الصناعات العلمية كالطب ما روى عن صناعة الكلام وصناعة
الماء فأسد صاحب كتاب الهوائى إلى لنصر بن عمرو الخارنى قصة قال فيها .

«إنا كنا فى الجاهلية إلى جانب عدير فأرسلت ابنتى بصحيفة لتأتى بماء فأبطأت
عليها وطبناها فعيثنا فينسننا منها. قال: «والله إنى جالس ذات ليلة بماء مظنتى إذ
طبع على شيخ فلما دأبمنى إذا ابنتى قلت: ابنتى؟ قالت: نعم ابنتى. قلت: أين كنت أى
بنية؟ قلت: أرايت ليلة بعثتني إلى القدير، حدثني جنى فاستطاريى فلم أرل عمده حتى
وقع بينه وبين فريمين من الجن حرب فأعطى الله عهد إن ظمربهم أن يردي عيك،
فظمربهم فردى عيك. فإذا هى قد شحب وبها ومرض شعرها وذهب خمها وأقامت
عبدنا فصاحب فحظبها بسو عمها فزوجها، وقد كان الجنس جعر يسه ويسه أماراة إذا
رابها ريب أن تدخن له، وأن ابن عمها الداعيب عليها وقال جنية شيطانة ماأت
بأنسية فدخمت فإداه مناد: ماأت ولهذه؟ لو كنت تقدمت إليك لفقات عيك، رعيتها
فى الجاهلية بعيسى وفى الإسلام بديسى.. فقال له الرجل ألا تظهر لنا حتى نرا له؟ قال:
ليس لك ذاك إن أبانا سأل لنا ثلاثا، أن نرى ولا نرى، وأن نكون بين أطباق الثرى، وأن يعمر
أحدنا حتى تبلغ ركبته حكه ثم يعود فتى فقال ابن عمها: ألا تصفى دواء حمى
الربيع؟ قال بى قال: ما رأيت تلك الدويبة على الماء كأهل عكبوت؟ قال بلى قال:
فجدها ثم أشدد على بعض قوائمها خيطا من عهن فشده على عضدك اليسرى ففعل.
قال: فكما نشط من عقل فقال الرجل يهدا ألا تصفى لنا من رجل يريد ما تريده
النساء؟ قال: هل أمت به لرجال؟ قال: نعم قال: لو لم يفعل وصفت لك. »

وحاء فى كتاب أكرم المرجان بعد نقل هذه القصة حملة أخبار من قبيلها يتلقى
فيها الإس عن الحى علم من علوم الطب لعلاج بعض الأمراض ومنها ، أمرص
لها فى عرف الأقدمين علاقة بالحن كالصرع والوهم والهزل وبعض هذا العلاج
دواء وبعضه من الرقى والتمايم التى تدخل فى طب السحر والكهانة

وما من صناعة بلغت مبلغ الإعجاز فى رأى قوم إلا كان لها تفسير من معونة
الحى أو المردة ، ويوجهون فى هذا التفسير إلى الحى المفقول كما يرجعون إلى الجاد
والتخيل . فمما نقله الشعراء من أخبار الرهبان ونسائك البيع قبل الإسلام قول
الناطقة عن معابد بعليك أو تدمر .

إلا سليمان إذ قال إله له

قم فى البرية فسا حسددها عن الفسد

وحسين لجرائي قد أدت لهم
يبون تدمر بالصباح والعمد
وجاراه البعث في قوله :

بني رباد لكبر الله صعدة
من الحجبارة لم يمس بها الطين
كما بها غير أن الإنس ترفسها
مما يست لسياسان الشياطين
والبحتري يصف ديوان كسرى المهجور فيقول :

ليس يدري أصتبع أنس حجر
سكنوه أم صمغ حجر لإنس
فهو ها يرى بناء فحما مهجوراً يصبح أن يكون من صعدة الإنس للحن لأنه
حرب موحش كمساكن الحان ، ويصح أن يكون من صعدة الحن للإنس لأنه مما
هاله من فحاشته أكبر مما تبلغه طاقة الإنسان .

ولا يعهم القول بتسخير الجناد خدمة العنود فهما صحيحا إلا مع التفرقة الواحدة
بين نوعين من التسخير سعى ألا يلتبس أحدهما بالأخر في هذا المقام
فالتسخير الذي يشمل بني آدم جميعا ويشمل القوى والعناصر جميعا غير
التسخير الذي يأتي قلنة من حين إلى حين بالحيلة التي يحالها الشيطان أو يحنلها
الإنسان ، ولا يلع بحال من الأحوال أن تساق مساق التعميم في الكلام على خلق
الأحياء وخلق السماوات والأرضين .

فمن التسخير الذي يجري محرى النواميس الكونية قوله تعالى في القرآن
الكريم : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ النَّهَارَ (٣٢)
وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَأَنَّا كُم مِّن كُلِّ مَا
سَأَلْتُمُوهُ ﴾ [إبراهيم ٣٢-٣٣] .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَأَنفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ [الحج ٦٥].

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [العمان ١٧].

وقوله تعالى عن داود وسليمان . ﴿ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَسَخْنَاهُ مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالِ يُسَبِّحُ وَالطَّيْرِ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبِيسٍ لَّكُمْ لَتُخَصِّنَّكُمْ مِّنْ بِأَسْكُمُ فَهَلْ لَّاتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾ [الأنبياء ٧٩-٨١].
ولم يرد في القرآن الكريم ذكر لتسخير الجن والإنس والحيوان إلا بهذا المعنى ،
ومعه ما جاء عن تسخيرها لسليمان ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل ١٧].

ومنه ﴿ وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴾ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ [ص ٣٧، ٣٨].
فهذا التسخير الذي يفهم منه أن الإنسان قد أوتى علما يسيطر به على القوى والعناصر وما في الأرض ، إما يجرى مجرى التواميس الكونية على عمومها ، ولا يخصص به إنسان من الناس إلا كمن يخصص بعلم ساء السفر وصنع الحديد واستخدام الرياح بأمر من الله في عبر احتيال من الشيطان أو اختلاس من الإنسان وليس من قبل هذا السحير ما يقال عن أسرار السحر والطلاسم وأعراس التحالف والتحادثة بين الأنامى والشياطين .

فذلك تسخير محرى فيه إرادته الله ثم قدرة الإنسان وأحكام القوى والعناصر كمنهم سميهاها ، محرى العموم المطرد في التواميس الكونية التي يعلمها من يفكر على علمها .
أما التسخير المقصود بالسحر وما إليه فهو إلى خرق التواميس أقرب منه إلى مجاراتها والعمل بإرادة الله فيها ، وإما تخرق فيه هذه التواميس ثمن يذله الساحر من روحه أو جسده ، كأنه محاربة الرشوة وحزاء المخالعة والمروق عن مجرى الأمور .

ويعود إلى عمل الشيطان في القرون فلاحظ أن ملكة الخيال تتقارب في رواياته وأفاصيحه بين المشرق والمغرب كأنها تصدر من إنسان واحد ، يتحيل الشيء الواحد في أوقات مختلفات .

والعرب يتحدثون عن شياطين الشعراء ، واليونان - ومن نقل عنهم - يتحدثون عن جنيات القرون التي اصطالحنا على تسميتها بالعراش ولم سلبها بذلك نسبتها إلى الجان وقد قيل عن سقراط إنه كان يستمع وحى الحكمة من جنى أو شيطان كأنه يستمع إلى صوت صديق من الإس يحاوره ويناجيه .

وقصة الموصلى مع إبليس لها نظير من قصة الموسيقى الإيطالى حيوسبى تريتانى فى أوائل القرن الثامن عشر (١٧١٣) حيث كان نزيلا بأحد الأديرة فحاده الشيطان فى المنام وتناول قيثارته وعزف عيها لحنأ أهله ، ولكنه لم يذكره كله حين أيقظه إبليس وتحداه أن يعيده كما سمعه ، ففنع منه عما وعاه وسماه هرة الشيطان .

والمردة الذين كانوا يقيمون الصروح فى الشرق يصارعهم فى اليونان جماعة المردة المشهورين باسم «التيتان» .

والأطباء فى القرون الوسطى كانوا ينامسون الكهنة فى صلواتهم ودعواتهم للمرضى فيتعلمون من الشيطان تلك الرقى والتمائم التى يرفونها باسم الطب ويشترى بها أرواح المصبيين ثم لما يخدعونهم به من مظاهر الشفاء وداطن الهلاك والوار .

والحكم على شياطين القرون من الوجهة الدينية متقارب فى المشرق والمغرب والمالب على شياطين القرون أنها شياطين قدرة وبداع وليست بشياطين غواية وإفساد .

ولكن القرون قد تستخدم للغواية والفسنة كما تستخدم للريرة وإبراز معانى الجمال ، وكان جرير يفخر بشعره فيقول إنه من رقى الشيطان ويعدح الرجل الصالح فيقول ما معناه أن الله عصمه من رقاء .

رأيت رقى الشيطان لا تستفهمه

ولقد كسان شيطانى من الجن راقيا

إذا كان العن من آلات الإصلاح والمطه شيطانه من شياطين القدرة والجمال ،
 وإذا كان من آلات الفتنة والحواية فشيطنه من جند إبليس ، وقد قال الإمام ابن
 الحورى فى فصل من كتابه «تلبيس إبليس» حرم فى نهايه عاء التطريب واللهو .
 «وفصل الخطاب أن يقول يسقى أن يظفر فى ماهية الشىء ثم يطبق عليه التحريم أو
 الكراهية أو غير ذلك، والفاء اسم يطبق على أشياء منها عاء الحجيج فى الطرقات فإن
 أقواما من الأعاجم يقدمون بحج فيشدون فى لطرقات أشعارا يصفون فيها الكفة
 ورمم والمقم وربما ضربوا مع إشادهم بطبل فسماع تلك الأشعار مباح وليس إشادها
 إيها مع بطرب ويخرج عن الاعتدال، وفى معنى هؤلاء العزاة فإنهم يشدون أشعارا
 يعرضون بها على المرو، وفى معنى هذا إشاد المبارزين للقتال أشعار التماحر عند التوال،
 وفى معنى هذا أشعار الحداة وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عال ذات لية بطريق
 مكة إلى حاد مع قوم فسم عليهم فقال: إن حادينا نم فسمعنا حاديكم فملت إليكم وقد كان
 لرسول الله صلى الله عليه وسلم حاد يقن له أنجشة يحدو فتعق الإبل فقال رسول الله يا
 أنجشة رويدك! رفقا بالقوارير.

وفى حديث سمة بن الأكوع قال: خرجنا مع رسول الله إلى حيدر فسرنا سلا فقال
 رجل من القوم لعاصرين الأكوع ألا تسمعتا من هنياتك؟ وكان عامر رجلا شاعرا فى
 يحدو بالقول يقول:

لا هم لولا أنت الاعتديت ولا صعدت دقا ولا صليت
فلم لقيم سكينة عليك وثبت الأقباد دام دلا قيسا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - «من هذا السائق؟» قالوا عمار بن
 الأكوع، فقال يرحمه الله...»

ولذكر مع كلام الإمام ابن الحورى أنه ألف كتابه بتكشف عن تلبس إبليس
 فلم يدع طائفة إلا كشف منها لونا من ألوان هذا التلبس ، ولم يستثن الحكماء
 والفلاسفة والمنصوفة والسالك ، مما بالث بأصحاب القنوق وقالة الشعر ومشى
 العباء

شياطين الشعراء والكتاب

يعتد أن يكون شيطان الشعر من خلق الشعراء أنفسهم ، وأن يكون الكلام عنه لاحقاً لظهور الشعر و انتشاره ، فإن لم يكن هذا الشيطان مخلوقاً شعرياً فهو مخلوق خيالي أبدعه كاهن قديم أو مفكر من مفكرى الحضارات الغابرة له خيال كخيال الشاعر ، وقد تشابه أسلوب السحرة والكهان فى نوءاتهم المزعومة باللغات المعروفة بين أهل المشرق والمغرب ، فكذلك تتوخى السجع والقافية وتخالف كلام السحر أو الكهان فى سائر أقواله ، ليصح القول فيها أنها من وحى غير وحيه ومصدر باطن غير مصدر تفكيره الظاهر ، فإذا نسب الشعر إلى مصدر كمصدر السحر فالخطوة قريبة والقياس معقول ولم يزل بين الشعر والسحر سبب قديم .

على أن خيال الشعراء يعمل فى تصوير كل كائن غير منظور ولو لم يكن من خلق الشعر . وشيطان الأديان لم يحدثه الشعراء ولكنهم صوروه فى الصور التى تتمثل للعين والصور التى يدركها الفكر وتدم بها أحلام اليقظة وتدر من الشعراء ، خاصة ، من سمع بالشيطان ولم يصوره لنفسه على صورة قبلة لتمثيل فى العيان أو للتجسيم على يد الفنان ، وقد صنع له المثاليون العربيون تماثيل على صورة الإنسان ذات ذنب وقربين وظلف كأظلاف الحذاء ، وجاء فى الشعر العربى ما يصلح أن ينقل منه تمثال محسوس كما قال بعض الأعراب فى رواية الخليل بن أحمد :

وحافر العير فى ساق حذاة

وجسم من عين خلاف الإنسان فى الطول

ويوشك كل من تصوره من العرب أن يجعله على مثال إنسانى منحرف بعض الانحراف أو مشوه فى أصل الخلقة مجرد المخالفة بينه وبين الملامح الإنسانية ، ومن ذلك وضع العين بالطول وتحيله بعين واحدة فى وسط جبهته ، إلى أشياء ذلك من التشويه المقصود لمجازاة الخيال فى استلزام المخالفة بين منظر الإنسان ومنظر الشيطان . وعلى نقيض ذلك تصوير شاعر المرس - السعدى الشيرازى - للشيطان الذى رآه فى الجسم فقد رآه «بقامة كفرع البانة وعينين كأعين الخور وطلعة كأنها نصير بأشعة السعيم» . . ولما عزم أنه الشيطان أدهشه أن يكون الرجيم السعير يهده لوسمة

المحبوبة ، وسأله فلاحته على طلعتته كبرياؤها وقال ' «لا تصدق يا صاح أنه مثالي ذاك الذي رأيتمهم يمشونه. فإن الريشة التي ترسمنى تجرى بها يد عدو حسود. سببتهم السماء فسلبونى الحمال...» .

ولا يعنينا فى هذا الفصل نقل الصور «الحسية» التى اخترعها الشعراء والمفانون لذلك الكائن المحتجب عن النظر، ولكسا تجمعها بعض أوصافه التى تقع فى روع المتحيل أو تعرض للمفهم عن تفكير واستنباط، وليست هذه لأوصاف بالكثيرة، ولا بالمتاعلة فى جوهرها، وليس فيها من ابتداع إلا والمنطق يوحى به لزما فى أوصاف الشياطين عنى إجمالها، وإنما الحديد فيها قدرة الشاعر على إبرار «الشخصيات» وتلوينها بألوانها الخلقية، وكل هذه الشياطين التى جاءت «مشخصة» فى أقوال شعراء الغرب قريب من قريب

وليس أشهر فى «الشخصيات» الشيطانية المسرحية من شياطين مارلو وجيتى وميتون وبليك وكاردوتشى، من شعراء القرن السادس عشر وما بعده. فإنهم هم الشعراء الذين حلقوا على الشيطان مسحة مسرحية من فهم، ولم يكن تصويرهم للشيطان كله نسخة منقولة من الشيطان كما صورته كتب اللاهوت، ولم يرد شيطان كاردوتشى فى قصة مسرحية ولكنه مثله على مثل الشخصيات السياسية التى تقوم ببعض لأتوار على مسرح الحوادث.

ولد كريستوفر مارلو Christopher Marlowe الشاعر الإنجليزى فى سنة ١٥٦٤ وظهرت فى حياته قصة الساحر فوستوس بالألمانية ثم ترجمت إلى اللغة الإنجليزية، ومذارها على رجل ساحر متعطش إلى المتعة والسطوة لم يحد بغيته منهم فى العلم والعقده فأقبل على كتب السحر الأسود يلتهم منه القدرة على تسحير الشيطان لما يهواه، وتعاقب مع الشيطان على قصاء أربع وعشرين سنة فى المتعة التى يهواها، ثم سلمه روحه ليهبط بها إلى الجحيم.

ويجربى الحوار بين فوستوس والشيطان عند التعاقد بينهما كما يأتى مفستوفليس ' فوستوس! أقسم بالجحيم وليوسف أن أحجر جميع الرعود التى اتفقا عليها.

فوستوس إذن دعنى أقرأها على الشرائط التالية.

أن يكون فوستوس روحا فى الصورة والهبولى.

وأن يكون مفستوفليس خادمه وطوع أمره .

وأن مفستوفليس يجيبه إلى كل طلب ويحصر له كل مطلوب .

وأن يكون في بيته أو مكتبه غير مطور

وأن يظهر لجون فوستوس في كل وقت كما يحب

وأنا الدكتور جون فوستوس من ويرتسرج ، بهذا الخراء ، أصع جسدي وروحي بين يدي ليوسيهير أمير المشرق ووزيره مفستوفليس ، وأفوض له بعد أربع وعشرين سنة كل التمويض بناء على هذا العقد المسجل غير منقوص ولا منقوض ، أن يبحثوا عن هذا المدعو جون فوستوس حيث كان وأن يحملوه جسدا وروحا ولحم ودمًا ومالًا ومناعا إلى حيث يقيمون .

ويتسلم مفستوفليس هذا العقد موقعا بدم الساحر ندلا من المداد .

ويظهر مفستوفليس في الرواية باسم ملثك السوء حيا وباسم الشيطان أو باسمه المشهور في أكثر الأحيان ، وهو رئيس لمررة من الشياطين مرءوس لإبليس المسمى هنا باسم ليوسيهير زميل بعلربول ، ومن مرءوسيه سبعة شياطين متآمرين هم شيطان الكرياء ، وشيطان الطمع ، وشيطان العصب ، وشيطان الحسد ، وشيطان الشهوة ، وشيطان الكسل ، وشيطان الدعارة .

ويقصى الدكتور فوستوس أيامه مع الشياطين مستمتعا بما يهواه من حسان الدب وحسان التاريخ ، ومنهن «هيلي» التي فتت اليونان الأقدمين و«باريس» التي نالت الخاترة قديما في مباراة الجمال .

ويعلب على ليوسيهير - كم صوره مارلو - أنه يصع الأمور في موضعها ويطلب حقوق الشر كما يدعيها ويعطى الخير حقوقه كما تجب ، فهو يئس الساحر العالم من سعي السيد المسيح في خلاصه وينمته أنه عاجز عن إنقاذ روحه ، ولكنه لا يرد هذا العجز إلى غلبته ورحمان الشر على الخير في حوله وحيلته ، بل يرده إلى عدل المسيح وأنه ليس من العدل أن ينحو من لم يكر أهلا للحق ، ولا يكر الشيطان حدودى للدم والبكاء واستحانة الصلاة والدعاء ، ولكن الشيطان يستخدم حقه .. على حكم العهد - في تقييد يدي الساحر فلا يقدر على رفعه إلى السماء ، ويرف دموعه فلا يقدر على البكاء وعقد لسانه فلا يطق بالصلاة والدعاء .

ويأتى ملتون (١٦٠٨ - ١٦٧٤) بعد مارلو بصره وجيره فى التاريخ الرسمى ، ولكن الشيطان الذى صوره ملتون أهم من الشياطين «الشعرية» التى صورها من سبقوه ولحقوه فى هذا الموضوع بين شعراء العرب ومن الدراسات التى تدوله دراسة الشاعر من الوجهة النفسية ، ودراسة الأدب والملاحة ، ودراسة العقائد وعلاقتها بانعصر والأحداث السياسية ، ودراسة الأطوار التى تتمثل فيها التقوى حيث تتراءى أحيانا على نحو يوافقها كما تترى على نحو يناقض مطهرها وعابيتها .

فالشاعر ملتون كان من المتدينين المنهجرين ، وكان أمين السر اللاتى فى حكومة الثورة ، وكان وثيق الصلة بالقائد كرومويل الذى قاد الثورة على الملك شارل الأول ، وقد عمى فى اواخر أيامه وشمب به شارل الثانى فقال له : ألا ترى يا مستر ملتون أن الله عاقبك بفقد بصرك على ما كنته فى أمى ؟ وكان ملتون مشهورا بسرعة الجواب ، وأخوته فى قصيدة الفردوس المفقود تعرضن لقارئها أمثلة كثيرة على هذه القدرة فى حوار الشيطان والملائكة ، فأسرع إلى الجواب قائلا : «على أى دنب عوقب أبوك بفقد رأسه ؟

وملتون لم يمدح نصيذته كل الإبداع ، بل استعار من حليم دى بارتاس Bartas (١٥٧٨) فى قصيدته أسوع الخليفة ، واستعار من فيتوس Avitus فى قصيدته عن الخليفة واسموط والنقى من الفردوس ، واستعار من القصص الشعبي الذى كان يدور حول مأساة آدم وحواء ، ولكن هذه القصص جميعا سببت أو كادت وبقيت نصيته لبلاعتها ودلالة صورها وتشبيهاتها واتساعها لتلك الدراسات الموعدة التى أشرنا إليها .

يقول الشاعر دريدن إن الشيطان هو بطل ملحمة «الفردوس المفقود» دون من فيها من الشخصيات العلوية والسفلية ، ويرى النقاد الأدبيون رأى دريدن فى هذه الملاحظة ، فإن ملتون قد حول الصفات القراء إلى الشيطان بما ألقاه على لسانه وما شرحه من مزاعمه ومواقفه وهو لا يعصيه من الدم واللحى والاستكار ، ولكن عباراته التى يدمه بها ويستكر بها فعالة إنما تأتى محارة للعرف الشائع الذى يتشابه فيه كل قائل ، على حين نرى الأعمال والأقوال التى يسببها إليه أو يصحبها على لسانه برورا قويا موفور النصيب من عناية الشاعر وعجابه ، وسر ذلك - مع تشيع ملتون للمتطهرين الدينيين - أنه كان ثائرا ووجد فى تمرد الشيطان فرصة للإفصاح عن حجب النورة ودواعيها ، وربى ظهر من دراسة الشيطان فى قصيدة

ملتون أنه يمثل شارل الأول في بعض الخلال كما يمثل كرومويل في حالات أخرى غير أنه كان يمثل شارل لأول في الخلال التي يعيها الشاعر ويصيفها إلى حيائث الشيطان ومساوئه ، ويمثل كرومويل في الصلابة والحرأة والاعتزاز بالنفس ، وفي مجموعة تلك الحالات التي جعلته يطلب المكان الأول في جهنم ولا يقع بالمكان الثاني في السماء .

وينقى ملتون على لسان الشيطان أنه يرثي للملائكة الذين يحاربونه في صف الإله وهو الذي عصي لهم وأنف من المهانة التي تلحقهم بتفصيل من آدم عبيهم ، وأنه لولا صواعق السماء لما طمعت حود السماء في العلية عليه . وتخيّل ملتون شيطانه في بعض مواقفه كأنه سلطان شرفي يستوى على ديوانه ويحيط عرشه بوزرائه وأعوانه ، ويحيله في أكثر المواقف على هيئته المعلوم الذي يؤسف على هزيمته ولا تزد له إلا لأنه قصء لا مرد له من الله . وقد اضطرب صور الشيطان بين مرقف وموقف إلا صورة واحدة تثبت له في جميع مواقفه ، وهي الصورة التي قرصى الشاعر حين يتعده لسانا مطلقا بحجج للمتمردين وحين يتحذه شحنا يحمله أوارار الطعام ودوى الحسرت ، فإن ملتون هو ملتون في الحالتين ، وإن بد الشيطان في صورة مضطربة كلما سامه أن يمثل الحالتين ولا يندر أن تتقابلا مقابلة القصصين

ولعل القول الأصح أن الاختلاف بينهما إنما هو اختلاف دورين لا اختلاف شخصيتين . فقد كان الفرق بين كرومويل وشارل الأول فرق الطرفين المتقابلين والعدوين المتقاتلين ، ولكهما في الطابع الشخصية لا يتقابلان هذا التقس على طرفي الميدان ، بل يتقاربان تقارب الأشياء والنظراء

وفي هذه الأسطر محل لأديب من معاصري ملتون يقصحه اقبحا ما يحكم المعاصرة والاشترار في الحرب الأهلية والكلام عن الشيطان ، ولا محل له إلى جور ملتون بغير هذه المعاصرة وهذه المناسبة . ومعنى بهذا الأديب جون بونان Bunyan مؤلف رحلة الحاج والحرب التي شها شداى على إبليس . وببليسه عاصب محتل لمدينة الروح الإنسانية يحاصره عمبول بن بانى المدينة شداى - اسم من أسماء الله عند العبريين - ثم يستولى عمانويل على المدينة ويتعلل فيها إبليس وحنوده بانكر والدسيسة وستردها جميعا ما عدا قلعتها المحصنة وهو ضمير الإنسان المؤمن بكفارة الخلاص .

أما الشيطان الذى يلى شخصية إبليس فى الفردوس المفقود فهو شيطان رواية فوست التى ألفها شاعر الألمان الأكبر جيتى (١٧٤٩ - ١٨٣٢) وحمل فيها للشيطان مفستوفليس دورا بين الأرض والسماء وبين الخلق والمخلوقات غير الدور الذى تقدم فى رواية مارلو فى مفستوفليس فى رواية جيتى هو بعلربوب نفسه وليس رميلا له أو تلميذا من تلاميذه ، ودوره فى هذه الرواية يعم طوهر الوجود كله ولا تحذه المهمة التى يلبه لها فوست وأمثاله .

وهو يصف نفسه مرة بأنه «حزء من القوة التى امتزجت بالسوء قديما ولكنها لا تفتأ تصنع الخير» .

ويصف نفسه مرة أخرى بأنه القوة الباقية التى تقول «لا» أمام كل إيجاب .
ويوصف فى جميع الأحوال بأنه المفسد الذى يتحلل مفاتيح المعزف بالروث والعوائق كلما انتطعت عليها نعمة من نعمات النظام
ويقول مفستوفليس للدكتور فوست أن الوجود كله عبث وأنه كان من الخير ألا يوجد . فيقول فوست : «ولأن علمت ما تريد إني لم تستطع أن تعدمه حملة فأنت تشيع العدم فيه بالتحرئة أو تبيعه بالمعرق!»

وقد وضعت قصة فوست على غرار قصة أيوب فى العهد القديم ، وظهر الشيطان فى أولها يقول له : «بك حدثت العمل للإنسان لتمسيره على البهائم ، ولكه يستخدمه ليصبح ذوبها فى الشر والجهالة ، وإني لا أباي أن أشقى سى آدم وإبهم متكفلون دوى بإشقاء أنفسهم ثم يقع الرهان على روح العالم فوست الذى يشتر من البحث والعدم وآب إلى التوسى التى يستطعم معها مداد للحياة ، فيتصو الشيطان والعالم على شروط كالشروط التى تقدمت فى روية مارلو ، ويأخذه الشيطان إلى وكر الساحرة ليعده بإشرافه - أى إشراف الشيطان - إلى الشباب ميعاف العالم ذلك التوكر ويسأل مفستوفليس : أما من وسيلة غير هذا السحر القبيح لتحديد الشباب؟ فيجيب مفستوفليس : «بلى! هناك وسيلة أهديك إليها . . تذهب إلى الغيط وتحرث وتكرث وتأكل اللقمة التى تجدها وتحصر الحياة فى أضيق حدودها وتأتى عليك الثعانون وأنت فى غرارة الشباب .

قال فوست لست بهذا قال مفستوفليس : إذن لا مناص من السحر والساحرة ، وسأله فوست : ولم الساحرة؟ فأجاب الشيطان : إنها صناعة صبر طويل لا أطيعه ، ولا بد لكل صناعة من أحكام .

وتبدأ العراية برؤية الفتاة مرحريت عائدة من كرمسى الاعتراف فيسئنها فوست ويروضها له الشيطان ويتواعدان على اللقاء بعد أن تنام أمها بجرعة مخدرة ، فتموت الأم باجرعة وتحمل مرحريت ثم تلد فتقتل وليدها وفى خلال ذلك يأتى أخوها الجندى فيطلع على سر هذه الماحنة ويذهب إلى فوست ليفتله فيقتله فوست فى مبارزة بينهما ، ثم يغيبه الحنين فيعود إلى مرجريت ويعلم أنها سحينة ويسرلها وسائل الخلاص من السجس فتأتى وتتقبل العقوبة المستمرة للتكفير عن حريتها ، ثم تصعد روحها إلى السماء فيقول القائلون : لقد هلكت وتهتف الملائكة : لقد نجت بربن الله!

وعضى فوست فى تجربة أخرى غير تجربة العشق والغوية ، فيرتفع فى عيني الملك وينال ما يرضيه من السلطان بالخطوة لديه ، ويطمعه الشيطان فى المزيد من الحاه والملك فيعاده الحين إلى العشق وعودياته ، ويسوم شيطانه هذه لمرة أن يبعث له الماتنة (هيلينا) من الأموات فيبعثها ويأتى بها إليه ، ولكنها تراوغة إذ يضمها إلى ذراعيه ، فلا يحد منها غير جلبابها فى يديه!

وكان فوست بعد مصرع مرجريت قد آلى على نفسه لينوقن كل ألم يستلى به بنو آدم ليسى جنايته على المنة البريئة وعلى أمها وأخيها ، ويخشى الشيطان عاقبة هذا الدم فيشغله عنه ندسائس القصر وصحته ، ويوشك أن ينسيه الندم لولا سامة ترين على صدر العالم الحكيم فيرهد فى كل ما احتواه ويربأ بعقله وحكمته عن هذه الصغائر التى تلهيه ويسأل أين هى السعادة فيعلم أنه لم يجدها قط فى لهوه الأول ولا فى لهوه الأخير ، ثم يلوح له أن يستخدم علمه فى تعمير الخراب وإصلاح البوار ومعونة الضعفاء ، وانه لكذلك إذ تحين ساعته وتخرج روحه فيهم الشيطان بقصصها للهبوط بها إلى الجحيم ، وتترل الملائكة من السماء فتنازعه عليها وتقول له إنه قد حسر الرهاد لأن فوست على ما اقترف من جريرة ورذيلة ، قد عاش وهو يتجه بعينه إلى النور ومات وهو متجه إليه .

وأعرب الشياطين الشعرية كافة ذلك الشيطان الذى ابتدعه حيان وليام بليك بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وليس هو على هذا ناغرب من حيال الشاعر الذى ابتدعه فلان شاعر فى العصر الحديث يدين جده وصدقا

بالمذهب الثنوى ومذهب العرفيين Gnostics الذى ذهب معتقد به مذهب القرون الوسطى .

كان بليك من أتباع المتسنى السويدى سويدسرح ، وكان سويدنبيرج من أصحاب الرؤى المصدقين لما يعترضهم من حالات الوجد والشوة الديرية ، ووقر هي خلده بعد أن جاور الخمسين فى منتصف القرن الثامن عشر أنه يتلقى الوحي من عالم الغيب ، فاعتزل وظائف الدولة وأعلن خروج عى المذاهب المنسعة وبشر برسائله التى سماها المسيحية الحقة ، وفسر الكتب المسيحية تفسيراً يخالف التفسيرات التى اعتمدتها الكنائس الكسرى ، ثم هجر وطنه وأقام بالعاصمة الإنجليزية حتى مات بها (سنة ١٧٧٢) .

ودرج بليك فى حجر أسرة الإنجليزية ندين بمذهب سويدنبيرج وبكنه انقلب عليه ولم يرجع إلى مذهب من مذاهب الكنائس المعروفة ، بل راح يستغل بتفسيراته وتأويلاته على حسب ما يستوحيه من تفكيره وإلهامه ، ولم يكن على علم بشىء من اللاهوت ولا من معارف عصره . لأنه لم يدخل مدرسة منتظمة فى صباه وشيطانه يصح أن يكون فكرة مجردة كما يصح أن يكون روحاً إنسانياً أو ملكاً من الملائكة المخصوص عليهم ، بل يصح أن يكون عبواناً يصعبه الشاعر على كل «شخصيه» معروضة تنتمى إلى الشر والخيانة ، وعنده أن الشر كل الشر هو الصرامة فى الأوامر والنواهي والتشدد فى المحلات والمحرمات ، فكل رب جاء عنه فى الأساطير الغابرة والديانات الأولى وصف العوس والجهامة واتسم فى ضمائر عباده بالقسوة والصرامة فهو شيطان يترقى فى الشيطانية على حسب قسوته وصرامته إلى مندرل الآلهة الوثنيين المنعوتين بآلهة الشر أو آلهة الظلام . ومن أوهامه التى لا يدري أحد أهى أوهام شعر أو أوهام اعتقاد ثابت - أن روح الشاعر ملتون حلت فيه بتكفر عن حقيقتها فى تصوير السيد المسيح وتصوير إبليس ، وأن الكتب القديمة أدخلت فى أذهان الناس أن الإنسان ذو حقيقتين جسمية وروحية ، وأن نشاط الجسد من الشيطان ونشاط العقل من الروح ، وأن الله يعذب الإنسان عذاب الأبد لمطاوعته بواعث حسده ، ومكنه من الحق الذى يناقض هذا أن حسد الإنسان غير معزل عن روحه لأن حواس الجسد هى منافذ الروح إلى المعرفة ، وأن النشاط كله من الجسد دون غيره وليس العقل إلا الحدود التى تحيط بذلك النشاط ، وأن النشاط هو الفرح الأبدى وما عداه كسل وزحجاء عن الحياة .

ولم ينشر بليث مؤلفه لأنه كان يمقت الطباعة ويباطرها بأدوات من اختراعه
للقش والرسم والكتابة يرى أنها أليق بالوحي الروحاني من تلك المطبوعات
الصناعية وقد جمعت آثاره بعد موته من قصاصات مشعثة يدون فيها حواطره
ويتم بعضها ويترك بعضها مستوراً في نهايته أو مستوراً في أوله ووسطه ، وهذه
شدة منها نعود أن يدونها بعنوان خطرة مذكورة ، وفي الخطرة التالية عن الشيطان
والملك يقول :

« رأيت يوماً شيطاناً في لهيب النار يرفع هامته إلى منك جالس على سحابة ، ويصيح
به : اسمع يا هذا ، إن عبادة الله هي تمجيد هباته لعبرك على قدر هذه الهبات ، واختصاص
أعظم الناس بأعظم المحبة ، وما الدين بحسدون لعظيم أو بفترون عيه إلا أعداء لله فلا
إله غير ذلك . »

« وسمع منك مقالته فزرق ثم ملك جاشه فاصفر ثم سكن فابيض وعنته حمرة
وابتسامة ، وقال : يا عبيد الصم ! أليس الله بآله الأحد ؟ أليس الله قد تحس في عيسى
المسيح ؟ أليس المسيح قد بسط بركته على الوصايا العشر ؟ أليس سائر الناس حمقى
وخطاة وعدماً وتكرات ؟ » .

ثم يدق بليك على لسان الشيطان رداً يقول فيه : « إيا ، كان المسيح أعظم إنسان
واحبه حيث للإنسان الأعظم » . ثم يحكى له الشواهد من أعمال المسيح ناقصاً
ما يفهمه الأكثر من الوصايا العشر ، ويحتم هذه الشواهد قائلاً : « لقد كان عيسى
فضيلة كله ، لأنه كان يعمل بباعث عطفه ولا يتقيد بالقيود »

وكن ما ألهاء بليك على ألسنة الشياطين فهو من قبيل ما تقدم ، مع التناقض
الذي لا يثبت فيه غير معنى واحد وهو التبرم بالأوامر الصارمه والمصائل الجافية ،
والتصكير المنتظم وقد قال عن الملائكة أنها تحسب أنها دون غيرها تتحدث
بالحكمة ، وكل من يفكر على فباس مطرد حليق أن يعترف هذا العرور ، وأكثر البتف
التي تركها تحمل عبود الخطره المذكوره وتجتمع فيها هذه الخطرات بعنوان المصون بين
السماء والحييم ، ويتعقد قران السماء والحييم ولواء الملك والشيطان في رأيه
بالعمل الذي يصدر من الحب وشباط الجسد متبعث بوحي المفطرة الصادقة

فالشيطان على هذا الاعتبار حيوش من الشياطين يحسمها القارئ أو ينظر إليها

كأنها معاني الشاعر في قريحته مطلقة غير تحسيم وبعير شخصيه مرتسمة في
الحس أو الخيال .



وبعد شيطان بليث - أو شياطينه - لا تحفظ تواريخ الأدب الغربي صورة لشيطان
شعري عمل فيها الفن وبواعث النفس وحوادث العصر غير شيطان كرووتشي شاعر
الثورة الإيطالية (١٨٧٠ - ١٩٠٧) وصاحب حادثة نوبل قبل وفاته بسنة .

وتكاد قصيدة الشيطان من نظم كرووتشي أن تكون نشيد صلاة . وقد سماها
هو نشيداً ونظمها على وزن التراتيل التي تنشد في الصلوات ، وقال فيها إنه
لا يحفل بالتاريخ القديم تاريخ حرب الشيطان مع الملك ميكائيل ، وأنه يحيى
إبليس لأنه قهر الكهان ورافع علم الثورة ، وينديه لا تهرب مني حين أناجيك .
فإسى أود أن أنطق إليك بروحي ولا يكفيني أن أنقى بك في الشعر والخيال ،
ويختتم النشيد قبل المنطوعة الأخيرة قائلاً : إنك أيها الشيطان لعظيم إنك
تعبر البحار وتطوى الأرضين إنك تنفث الدخان كالبركان وتجرس حلال
الديار ، وتمضي حيث شاء كما شاء .

وانطلاق الشيطان ، مع سخريته بالكهان ، هما آية الحرية عند كرووتشي الشاعر
على طعة الدنيا والدين . ولا يبعد أن يكون الشاعر كما قال اس وطه جيوفاني
بابيني - متأثراً بأستاذه ليوباردى في قصيدته عن إله الشر أهرمان صاحب القضاء
الساقد في الوحود كنه ، مفرداً - في رأى ليوباردى - بغير شريك من أرباب الخير
أو ملائكة في الرمن القديم أو الرمن الحديث .



ونحن في هذه العجالة يحرثنا ما تقدم في باب شياطين الشعراء التي عمل فيها
الفن واصطبغت بصبغة البواعث النفسية والحوادث السياسية ، ولم يستوعب هؤلاء
الشعراء الذين ذكرباهم كل ما يقال عن إبليس أو عن الشياطين كما يعتقدها أتباع
المذاهب مند القروود الوسطى ، فقد كان أكثر الشعراء يحربون قرائحهم في مأساة
آدم والشيطان ، ولعلنا نحيط بهذا العيلم الزاخر إذا عرفنا أن رجلاً مثل هوجو
جرووتسوس (١٥٨٣ - ١٦٤٥) الملقب بأبي القانون الدولي قد جرب قلمه وقريحته

في هذه المأساة ، وكان معاصراً للشاعر ممتون وانتشرت قصائده إلى حاسب القصائد الخالدة التي نظمها ذلك الشاعر الممدود اليوم في الدروه بين أشعر شعراء العصور

وبعد زهاء قرنين أوحى اسم هروحو إلى مسميه الفرنسي الكبير فكتور هوجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥) أن يحارب قديمه وقريحته على محطه ، فنظم قصائده في حاتم الشيطان وبأدى بموته ولحاقه ببليس جاحد ربه بين عقول كالحقاش الذي يخاف النور أو السومة التي تستهذي الطلام والغراب الذي يسلم القضاء للنسر والعقب والعنقاء ومن فوقها مرمى السهام التي لا تبليح الهدف إلا من قاع الموت! وتون ذلك كله وتنحسر أشواط الأبالسة والشياطين .

إلا أن هذا المحصول الآخر لا يزيدنا لوباً من ألوان الصورة في ضمير المؤمن أو في فريضة الشاعر ، وهذا الذي تحريناه في إهمال ما أهمله وإمام بما أشربنا إليه ، بيد أن لا نستطيع أن نهمل هنا صورة شيطانية تقترن باسم الشاعر الفرنسي بودلير صاحب ديوان أزهار الشر ونظم القصائد في الابتغال إلى الشيطان «أحكم الملائكة الذي سرق منه القضاء ثناء والذي سحل عليه الطرد وحرمان من لا يزل يحطى ويعلط» . فإن هذا الشيطان عارض بفساني يصور الانعكاس في «سريرة المشوّهة فتتعمد التوجه إليه على سبيل النكامة والنكابة وتصلى إليه ليشفق عليها كأنها نستجدي الشفقة الإلهية - عكسا - بلسان اليأس والكرباء .

وفيما عدا شيطان بودلير لا يرى في هذا الفصل موضعاً للشياطين التي تحيلها الشعراء ولم تدحل في عداد الصور الخلقية وخوانج الوجدان في الإنسان منفرداً أو جزءاً من أجزاء الجماعة فالشاعر الروسي لرمستوف خلق في إحدى قصصه شيطاناً لا يعدو أن يكون إنساناً متكرراً يراحم الناس على العشق والشهوة ، والشاعر الإنجليزي بيرون خلق شيطاناً في قصيدته «رحمة الشيطان» لا يعدو أن يكون منحصر صحيفة يروي للقراء ما يروي في المحالس البيانية ومحالس السمر ، وغيره من الشعراء قد اختار اسم الشيطان ليحري على لسانه كلاماً يجريه بعض الشعراء الآخرين على ألسنة الطير والحيوان أو على ألسنة الشجر والجماد ، وكل أولئك لا يتأتى فيه شيء عن جبلة الشيطان غير حروف اسمه التي تعنى عنها حروف اسم من أسماء الحيوان أو الجماد .

أما الشيطان الذي نعرض هنا لذكره فهو الشيطان الذي يحوم في النفس

الإنسانية وبين الجماعات البشرية في بقايله وموروثاتها ومقاييسها لخصرتها
وشروورها ، هو الشيطان الذي يطيف به خيال الشاعر معبراً عن شعوره ، وإن لم يكن
من عقائده ديه ، كالشياطين التي سميت بأسمائها في الأدب العربي هيبه
ومسحل والهوجل وجهام ، أو كالشياطين التي يعتقدونها المندسين ويقتن الشاعر في
تصويرها لامتياره بملكة الخيال وملكة الرمر والشحيص . فهذه الشياطين قوى
مشاركة في طوائع الناس وقيم نفسية يقومها الناظرون في لأخلاق والطباع ، ولو
رفعناها منها بأسمائها لنقى مكانها مطلباً مما أن تسميها بغير تلك الأسماء ، لأنها
لا تقبل السكوب عنها ولا تعملها الحياة إن أعملها الناس^(١) .

* * *

(١) أمينا في هذا الفصل ما كتب على سبيل الهزل من بعض الحكاكة كقصته رابليه الفرنسي ومن
جوسون الإغليزي ، فإنهما صبرا الشيطان عرا مخلوعاً ليالما في دهاء الملاحين أو المراءين ، ولم يقصد
بجد في تصوير شيطانه معلوم أو تصوير الخلاق الشيطانية على العموم

فى الأدب العربى

ينسب فى الأدب العربى تمثيل الشياطين الشعرية من قبل تلك للشياطين التى حملت بها ملاحم الشعراء العربيين وقصائدهم ، لأن شعراء العرب لم يظنوا الملاحم التى يمثل فيها أبطالها علامتهم الظاهرة وملاحمهم الخفية ، وبحسبهم لو ظنوا هذه الملاحم لما كان للشيطان فيها هذا الشأن الذى أصابه فى أدب العرب شعراً ونثراً . لأن الأدب العربى لا يسب إلى الشيطان دوراً فى قصة الخليفة والخلاص كالدور الذى يسب إليه فى عقائد الأدباء العربيين ، فإذا نظم الشاعر العربى ملحمة عن الخليفة لم يكذب يفعل فيها الشيطان فعلة غير ذلك الوسوس الذى يظن على كل سريرة آدمية فى ساعته كما ظن على سريرة آدم أو سريرة حواء .

ورداً تحيل النخب صفة للشيطان فى كلام شاعر عربى فلا نطه يحرج منه بصفة غير تلك الصفة التى لخصها أبو براس فى حليط من الحبث والحمافة . لأنه .
تاه على آدم فى ————— جـدة

وصار فـواذا اندريتـه

وربما تكرر من الشعراء الذين يشخصونه لأنفسهم ذلك الحوار الذى دار بينه وبين أبى نواس حوار من يستعين بإبليس على شهوته ويتوعد إبليس أن يتوب عن المعاصى إن لم ييسر له ما يشتهي ، وقد كان إبليس على هذه الصفة عند الشاعر الذى قال فيه .

إبليس أكرم من أبىكم دم فتسبوا يا معشر الأشرار
النار عنصره وأدم طيبة والطين لا يسـمـو مـو والنار

وذلك هو بشار بن برد الذى كان يتطرق بأمثال هذه البدوات ولا يأتى فيها تحديد من عنده ، لأن المفاصلة بين العصور من أقدم من بشار وأقدم من كل ما قاله الشعراء المسلمون عن إبليس ، ولم تحظر صفة إنس على بال أحد من المتقدمين فى الإسلام إلا كان يعلم أن إبليس من عنصر النار .

على أن موضع إبليس من رسالة العفراء لأبي العلاء يشبه بعض الشبه مواضعه من ملاحم الشعراء العربيين فقد ذهب فيها إلى أودية ليست كأودية الحة فسأل صاحبه بعض الملائكة ما هذه يا عبد الله؟ فقال له هذه حة العفاريات الذين أمروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكروا في الأحقاف وفي سورة الجن وهم عدد كثير . . ويسأل أحد العفاريات عن أشعار المردة فيقول له : لقد أصبت العالم بيجده الأمر وهل يعرف الإنس من النظم إلا كما تعرف البعر من علم الهيثة؟ ثم يسأل عن اسمه فيقول به يدعى بالخبثور وإبهم من غير ولد إبليس ، وإبهم من الجن الذين سكوا لأرض قبل آدم عليه السلام .

ويلقى في حنة العفاريات شاعراً يسمى 'أبا الهدرس فيسمعه من بطمه قصيدة يقول فيها عن أيام طاعته لإبليس

بحرأرب الله جوداً إيد	بين أحي الراي العبيد الجيس
نيلم الحكم إليـــــــــــــــــه إذا	فساس فسرصي بالفضلال المقيس
نريش للشمارح والشامح أن	يفرع كيـــــــــافش الخنا بعد كيـــــــــس
وبقتري جن سبيـــــــــمان كي	بطق مهـــــــــاكر غاوحـــــــــس
وبجرج الخـــــــــماء مطرودة	من بيتـــــــــها عن مـــــــــوء عن حديس
وبخدع النـــــــــسيس في فصـــــــــعه	من بعد مـــــــــاهي بالانقلابس
وبعجر الســـــــــعلاة عن قوتها	في يدها كـــــــــنج مـــــــــهارة بهـــــــــس
سادمت قـــــــــابيين وشـــــــــينا وها	بيس عن العـــــــــاتفة الخندريس

وفي أقصى الجنة يلقون الخطيئة والخنساء ، ويسألون الخنساء عن شأنها فتقول : أحببت أن أنظر إلى صخر فاطمعت فرأيت كالجبل الشامخ والبار تصطرم في رأسه فقال لي : لقد صبح مزعمك في :

ون صحرأ تـــــــــاتم الهـــــــــدافة كـــــــــابه علم في رأسه بار

قال أبو العلاء عن صاحبه ' فيطلع فبري إبليس لعنه الله وهو مضطرب في الأغلل والسلاسل ومقامع الحديد تأخذه من أيدي الربابية ، فيقول : الحمد لله الذي أمكن منك يا عدو الله وعدو أوليائه ، لقد أهلكك من بني آدم طوائف لا يعلم عددها إلا الله ، فيقول من الرجل؟ فيقول : أنا فلان بن فلان من أهل حلب كانت صاعتي الأدب أتقرب به إلى الملوك فيقول : بشي الصنعة ، إنها تهب غمة

- أى بلغة من العيش - لا يتسع بها العيال ، وأنها لمزلة بالقدم . وكم أهلكت مثلك
 أهيتاً لك إذ نجوت فأولى لك ثم أولى . إن لى إليك حاجة فإن قضيتها شكرتها
 لك يد المذون . فيقول إني لا أقدر لك على مع ، فإن لاية سبقت فى أهل النار ،
 أعنى قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْحَيَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ
 أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٠] .

فيقول إيسى . إني لا أسألك فى شىء من ذلك ، ولكى أسألك عن حبر
 تخريبه . إن الخمر حرمت عليكم فى الدنيا وأحلت لكم فى الآخرة ، فهل يعمل
 أهل الجنة بالوعدان المخلدين فعل أهل القرىات؟ فيقول . عليك البهلة . أما شغلك ما
 أنت فيه؟ أما سمعت قوله تعالى ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾
 [البقرة : ٢٥] فيقول : وإن فى الجنة لأشربة كثيرة غير الخمر ، فما فعل بشار بن برد ،
 فإن له عندي بدأ ليست لهيره من ولد آدم كان يفصلنى دون الشعراء وهو القائل .

إيسى أفـسـض من أياكم آدم	فتبينوا يا معشر الأشعر
النار عـصـره وادم طيبة	والطين لا يـمـو سـمـو النار

لعد قال الحق ، ولم يزل قائله من المعقرتين فلا يسكت من كلامه إلا ورجل من
 أصناف العذاب يغمص عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النقم ، فيفتحهما
 الزبانية بكلاليب من نار ، وذا بشار بن برد قد أعطى عيتين بعد الكمه لينظر إلى
 ما نزل به من النكال .

وكل ما جد بعد المعرى من كلام يدحن فى باب القصة من الأدب وذكر فيه
 الشيطان - فهو تلك القصص التى جمعت باسم ألف ليلة وليلة واقتبس رواتها ما
 تداوته الألسنة من أخبار السحوة وبسخير المردة وقبم الحن على أرصاد الصلاسم
 أو حبسها فى الأعوار والقماقم ، وهى لا تأتى بانتدع أو اختلاف أو ريادة على ما
 اعتقده الناس وطمه الشعراء .

وسم يطرأ على الأدب العربى جديد فى هذا الباب حتى مطلع القرون العشرين
 ثم نجمت هى أوائل القرون العشرين بوازع شتى لتوسع فى الاطلاع على آداب الأمم

والبحث في موضوعات الشعر وتعبيراته عند تلك الأمم ومن موضوعاته الملاحم
المطلوبة ، ومن تعبيراته تجسيم المعاني المخردة والعناصر الطبيعية وأرواح العيب
وكائناته المشبهة بتمثيل الأحياء .

وبحث في هذا الباب خاصة لا نتحدث بحث المؤرخين أو النقاد الأوربيين ، وإنما
نراجع ما أحسنناه واحترناه ، ونفهم بواعث النظم والتأليف في هذه الأعراس بما
عالجناه ونبحث إليه بوحى الاطلاع وعلى الخواطر التي يوحىها



أول ما خطر لنا أن نقرر بين التشبيهات والمعاني الخمسة في اللغات الأوربية
واللغة العربية ، وكتبنا في هذه المقاربة عن الكائنات الخفية وعن عجائب المحوقات
وعن الأساطير ، مما يطبع عليه القارئ في كتاب «الفصول» و«مجمع الأحياء» ،
وأحسننا الحاجة إلى تصوير بعض العوطف بصورتها الشعرية التمثيلية ، فأخذنا
في وقت واحد في نظم قصيدة عن سباق الشياطين وتألف كتاب سمي
«مذكرات إبليس» ويخصص كل فصل منه عناية من العوايات كالعشق الأثيم
والسرقة والبغى والطمع وسائر هذه الأثام التي تذكر كلما ذكر الشيطان ، وكان ذلك
حوالي سنة (١٩١٢) وبعد الاطلاع على طائفة من ملاحم العرب وأساطيرهم تأمل
سباق الشياطين فقد تمت القصيدة التي نظمناها في موضوعه ، وأما مذكرات إبليس
فلم يتم منها غير فصل واحد من فصول الأعور بن إبليس الموكل بالعشق الأثيم ثم
نقبت البية مترددة حول هذا المطلب حتى تحولنا عنه بعد الحرب العالمية الأولى إلى
موضوع القصيدة التي سميناهم برجعة شيطان وشرت في الجزء الثالث من الديوان

وحوالي هذا الوقت ألف صديقنا الشاعر العبقري الأستاذ عبد الرحمن شكرى
كتابه الشرى الذي سماه «حديث إبليس» وقال في مقدمته : «قد بدأ يكثر في أدياب
اللغة العربية البحث النفسى والتساؤل والتفكير والتعبير عن حركات النفس وبواعثها
ولكن كل ذلك لم يزل بعد قطرة لا يعرف أن كان وراءها سيل اتى وهذا الكتاب فيه شيء
كثير من البحث النفسى والتساؤل والشك والسحر الذى هو محرك يعحرك النفوس
ويوقظها فهو يعبر عن تلك الدنيا التي في كل نفس ، فهي فصل بصبغة إبليس مثلما ترى
تحت السحر المودع في هذا الباب ما أرمى أنه من معانيب النهم من الجأمة القسوة التي
تشبه مساوئ الطرق ، وقد جعلت إبليس ينصح بما ينبغي الانتهاء عنه» .

وقد اطلعنا بعد الحرب العالمية الأولى على محاولات متنوعة في هذه الأعراس لم يكن منها ما بلغ في جودته مبلغ العمل الفني خلال ثلاثين سنة أو تزيد ، ومنها ما نظم في مصر وما نظم في غيرها من البلاد العربية ، حتى ظهر ديوان «عقرا» لشاعر السوري الأستاذ شفيق معلوف من صنف أدباء المهجر بالبرازيل ، وكان ظهوره في الطبعة الأولى سنة ١٩٣٦ وأعيد طبعه في سنة ١٩٤٩ ثم ظهرت قصة الشهيد لرميدا انكتب الموهوب الأساذ توفيق الحكيم ، وهي قصة صغيرة من مجموعة قصصية صدرت سنة ١٩٥٣ وتعد على صغرها من أجود ما كتب في هذا الغرض في جميع النعات .

أما قصيدة سباق الشياطين فحاصلتها أن إبليس جعل لتلاميذه جائزة يالها من يعرض أعماله ويثبت للملأ من الشياطين قدرته على السبق في التضليل والإغواء فابصر سبعة من الشياطين يتنافسون عليها وهم شيطان الكبرياء ، وشيطان الحسد ، وشيطان اليأس ، وشيطان الدم ، وشيطان الحب ، وشيطان الكسل ، وشيطان الرياء ، فاستحقها هذا الشيطان الأخير - شيطان الرياء - ولكنه حرق على عادته فأظهر الرمد فبها ونحوى عن تدولها بعد اشتراكه في الماهة عليها فحاطه إبليس :

فقال تابها ولولا دابلي	عيب الارض فكانت كالعم
دوسك الدببات خدها مرلا	وتول اليوم ابواب الجحيم

وقصيدة ترخمة شيطان هي قصيدة شيطان شاع ستم حياة الشياطين وتاب عن صاعة الإغواء لهوان الناس عليه وتشابه الصالحين والطالحين منهم عنده ، فقل الله مه هذه التربة وأدخله الجنة وحفه فيها بالحور العين والملائكة المقربين غير أنه ما عثم أن ستم عيشة العيم ومل العبادة والتسبيح وتطلع إلى مقام لإلهية لأنه لا يستطيع أن يرى الكمال الإلهي ولا يطلبه ثم لا يستطيع أن يطلب ويصبر على الحرمان مه ، فجهر بالعصيان في الحبة ومسحه الله ححرا فهو ما يرح يمتن العقول بجمال النمائل وآيات المود ، واستصحك إبليس بين حده يوم انتهى لطاف بتلميذه إلى هذه الخنقة فقال :

ما أرى هذا الفتي من دم

ومتى استموى الشياطين الشوك

أترى شبيبة من قسومنا

أعوت الأملاك فهو ابن منك

فتلاحى القوم ثم استضحوا

ودعا مسارحهم شر دعاء

قال: فتسبكه لي بمن سلكوا

أيها المولى سببيل الشهداء

والسمة التي يتسم بها إبليس في رسالة الأستاذ عبد الرحمن شكرى هي سمة
البغد الساحر تسرى في الحديث من أوله إلى حتامه ، ويلل بعصها عليها كهول
بليس عن أخلاق الإنسان والحيوان «سى أرى في الحيوانات العجم حصالا هي هي
لإنسان ضئيلة خافية . فللكلب من الوفاء ولأمانة ما ليس للإنسان ، وللحين من الود
والولاء ما لا يبلغ بعصه الإنسان ، وللدعل والحمير من الصبر والحزم ما ليس له ،
وللقرود من الدكاء والعطية وحب التقيد ما ليس له ، ولو فطنتم يا سى أدم لرأيتم أن
تروحوا سائكم من السخال والحمير والكلاب والقرود لكي يكتسب نسلهم بالوراثة من
حميد صفات هذه الحيوانات . ولا تحسب أن النساء ينزععن من هذا الزواج فإنهن
قد ألهمن فصائل الحيوانات وهذا تفسير ملهس إلى صغار الكلاب والقرود »

أو كقول أحد الشياطين : « فالتفت إبليس إلى وقال سمعت أحد الملائكة يقول
لحافظ من الحفاظين وهو الملك الذي يحصى ذنوب الناس : ما لى أراك منتوف الجناحين؟
قال الملك عفاك الله من الناس ، فإسى أستخدم ريش جناحى كما تعم فى كتابة ذنوبهم ،
وقد تكاثرت على ذنوبهم حتى برت ريش جناحى وأتلفته وأنا كلما تلمت ريشة من كثرة
الكتابة نمت من جناحى ريشة أخرى حتى نفذ ريشى ولم تنفذ ذنوب الناس »

وحتم الكاتب الرسالة بكلمة عن عظم الوحود وعرور الإنسان ، ونصيحة من
روح لأمه يقول فيها للإنسان الذى يخاطبه « اذهب إلى مكانك من الأرض ولا
تنس عظم الوجود فإن إحساسك بعظمته فيه معانى العبادة كلها »

ونظم شاعر المهجر الراريسى الأستاذ معلوف ديوان عنقر مقسما إلى فصائد
يروى فى كل قصيدة منها بآ عن ولد من أولاد إبليس أو بعصر الشياطين ، فيقول
مثلا عن الشيطان «داسم» إبليس النعائص :

وحاء نائاس، أبناء عزريل
سحنة شيطان، فى مكبى غول
وقال فى دهاء، ويك أنا لكاسى
باطيخ والرياء، نقانص الناس

لما همت الأرض فى زورة
أستعرض النقانص العارية
ألفيتها والناس قد مزقوا
أحببدها فى فتنة دامية
فرحت أكسو بسدى عريها
بحل براقه راهية

فاندست الكرياء، تحت حجاب الحب
وتحت ستر الأباء غفل وجه الغصب
واقب العناء، بين الورى حزما
وصار الاستبداد، فى عرفهم عرما
ويقول عن الأعور إبليس الشهوة :
وذاك أعور، أطل ينظر، من ظاهر الهوة
وقال إى أنا، حامى دمار الخنا، والعهر والشهوة
شرارتى فى العيون، حريقة فى الدم
أن مشر الجنون، والعم لصق الفم
ما تكأ العاشقون إلا على معصمى

كم داق خمري عاشق فالتوى

مـعـرـبـداً في سكرات الهوى

مهدم بيعة بعضه

وهو على الأنقاض يبس السوى

وحتم الديوان بقصيدة عن العقربين قال فيها عن أهل الخلود من أبناء عقر

وثمة استحييت صوتا دوى

ولم أجد لدهونى سوى

جماجم أرواحها غنعت

تصخب فيها من خلال الكوى

فصاحب العظام، أعطى الذى أخذ

لم نظفر الأيام، متا بغير الملد

فكن عش الغرام، وصرى مأوى الجرد

لكما أحلاما لم تزل

ترقص سكرى فوق عصف لمص

حامة ناس خمر الهوى

مشعة حشف كؤوس الأمل

والغالب على ديوان عسكر روح غنائية يسعدها حيل موفق فى كثير من
تشخيصاته وما يطق به لسان احوال من تلك الشحوص الحية .

وهذه الحوائط المتعددة من صبور الشيطان فى الأدب العربى الحديث تتم من
حاسبها الفنى بقصة «الشهيد» للأستاذ توفيق الحكيم ؛ لأنه أعطى الشيطان دوره
المخنوم فى مسرح الكون ، وجعله كما هو فى الواقع دوراً لا حيلة فيه له ولا
لأصحاب الأديان الذين بلغوه ويستنكرونه ، ولكنه يلجأ إليهم بيتوب على أيديهم
فلا بدرون كيف يقبلون توبته ، فإن الخير المسبحى لا يملك أن يتصرف فى عقيدة
الخطئة والخلاص ، والربنى اليهودى لا يملك أن يتصرف فى مكان شعب الله

لمختار بين الأمم التي أصلها الشيطان على اعتقاده ، والإمام المسلم لا يملك أن ينصرف في العود من الشيطان الرجيم ، ويصبح إبليس يائساً «وجودى ضرورى لوجود الخبير ذاته» نفسى اعتمة يجب أن تظل هكذا لعكس نور الله» . . ويسكى بليس متنساقط دموعه كالبياركة على رؤوس عباد الله ، فيبهاه حبريل عن الكفاء ويحيق به اليأس من كل جانب ، فيهبط إلى الأرض مستسلماً .

«ولكن رفره مكومة ابطلق من صدره وهو يحترق العصاء . . رددت صداها الجحوم والأحرام فى عين الوقت كأنها اجتمعت كلها معه لتلعط تلك الصرخة الدامية : أنا الشهيد . أنا الشهيد» .

ومن الحق أن يلحق بما تقدم لونا آخر من ألوان الحديث عن الشيطان فى الشعر العربى ، لم نشته مع الصور السابقة لأنه من ألوان الرأى لا من ألوان التحيل والتصوير ، ولكنه لا يهمل كل الإهمال فى هذا المطلب لأنه رأى يديه صاحبه فى حقيقة الشيطان .

ذلك هو رأى الأديب العراقى الكبير حميل صدفى الرهاوى ، ومحملة أن الشيطان هو الإنسان الذى يحدد غيره لعاية من عيائه

لا يحدد المرء انفسا لعايه

الا إذا كان ذلك المرء شيطانيا

وأما الشياطين والعفاريت فقد حدث الكتاب الكريم فى ذكرها وأخطأ المفسرون كما قال فى حساب الملكين :

غير أنى أرتاب من كل ما قد

عجز العقول عنه والتمكير

لم يكن فى الكتاب من خطأ كلا

ولكن قد أخطأ التفسيسر

فهذا المطلب على حدائته فى الأدب العربى قد أحيط من حواش متعلدة وهو - ولا شك - لا يساوى بطائره الأورسة فى استفاصتها ولكنه يساوبها فى طبقنها إذا أسقطنا من أدب الغرب ما استعاره من قصة الخليفة وما كان لهذه القصة من القداسة الدينية التى لم يحلقها ابتكار الشعراء والأدباء .

فى العصر الحاضر

إذا أخذنا بإحصاء الكلمات والتعبيرات للحكم على مقدار انتشار الأفكار والعقائد - جاز لنا أن نقول إن الحضارة العصرية أكثر الحضارات إيماناً بوجود الشيطان وعمله الدائم فى النفس البشرية والبيئات الاجتماعية .

إن كلمة الشيطان والشيطانية والشيطنة من أشيع الكلمات فى كتابة الأوربيين العصريين ، ومنها ما يشتق من كلمة الشيطان بتطويعها الشرقى ، أو يشتق من الكلمات اليونانية والسكسونية بلفظها القديم ولفظها المتداول فى العصر الحاضر .

ولكننا سنرى مسألة الشيطان هذه من أقوى المكدرات لطريقة الإحصاء الآلية طريقة الحكم على الأفكار والعقائد بعدد الكلمات والعبارات . فإن كلمة الشيطان كانت عبثاً على «شخصية» الكاش الشرير فأصبحت على ألسنة القوم معنى لغوياً لا تؤديه كلمة أخرى فى منلوله . لأنه يؤلف فى كلمة واحدة بين لأعمال الشيطانية بحملتها ويعهم منه الكيد والخيث والمهارة والفاق وحب ، لأدى وكن معنى يناقض الاستقامة والصلاح ، وأكثر ما تستخدم الكلمة ومشتقاتها فيما تستخدم بمعناها هذا الذى انتقل من ألفاظ الأعلام إلى ألفاظ المعايى والصفات .

وقد أصبح استخدام هذه الكلمة كاستخدام السيد المسيح لكلمة «مأمون» حين عبر بها عن سيادة المار والحشع ، فقد كبت الكلمة فى اللغة السريانية علماً على رب يرعمون أنه رب المطامع الدنيوية ، فكان السيد المسيح يقول لتلاميذه إنكم لا تستطيعون أن تخدموا سدين ، ولا تستطيعون أن تنالوا رضا الله ورضا مأمون ، ولم يكن عليه السلام يصدق عقبة السريان فى مأمون ، ولكنه كان يقولها ويعلم أن سامعيه يفهمون عنه ما أراد ، وهو التعبير عن الحشع ومطامع الأشرار

وبهذا المعنى المحازى شيع كلمة «الشيطنة» فيما يكتبه أساء الحضارة الأوربية الحضرة ، وقد يكتبها الملحدون الدين يسكرون وحود الكائنات العيبية كما يكتبها المتدينون الدين يؤمنون بوجود الشيطان ويختدقون فى عمله رفى مدى قدرته ، وكلهم فى العصر الحاضر يسمعون باسم الشيطان فلا يتحيلونه على الصورة التى كانت تسبق إلى خيال السامع فى القرن الرابع عشر وما قبله أو بعده بقليل .

وقد ظهر في باريس عند أواخر القرن الرابع عشر كتاب عن وصايا الشيطان التي يقبل بها وصاي الله ، فجمعها في ست وصايا خلاصتها العناية بالنفس دون غيرها ، وألا يعطى المرء شيئاً بغير حراء ، وأن يتناول طعامه منمرداً ولا يدعو أحداً إليه ، وأن يقتر على أهله وأن يحتفظ بالعتات من مائتته ، والأسمال من كسائه وأن يقطر المال عنده طبقة فوق طبقة . . وهذه رذائل القرن الرابع عشر كما أحصاه بسوه بين الجند والسحرية ، وإياها اليوم لعصائل العصر الذي يسمى بعصر التدبير والاقتصاد والأناية الفردية ، ومن أحلها سمي اخصاره العصرية بالخصاره الشيطانية!

ومن البديه أن المتحدثين عن الشيطان في حضارة العصر لا يقصدون جميعاً هذا المعنى المجازي ولا يقصرونه جميعاً على الصفات دون الأعلام والأسماء فإن أكثرهم متدينون يؤمنون بوجود الشيطان وعقيدة المسيحية فيه ، ولكنهم - كما أسلفنا - يسمعون باسمه فلا يتحولونه على الصورة التي كانت تسبق إلى حيال السامع قبل بضعة قرون .

فهم يذهبون اليوم بصرعى الخنون إلى الطبيب ولا يعالجونهم عند الكاهن أو راحل الدين ، وهم يفرقون اليوم بين وساوس نفوسهم وما ينسبونه إلى الشيطان من رجاء وتلقين وليس للشيطان عندهم تلك المملكة الواسعة التي كانت له في الفرون الوسطى ، فإنها انحسرت شيئاً فشيئاً حتى كادت تحرح من عالم الطبيعة إلى ما بعدها ، وكادت دولة الشيطان تؤول إلى حالة كاحالة التي حصره فيها للإسلام : قرين سوء ليس له على هرينه سلطان .



ويؤول الشيطان على هذا في القرن العشرين إلى مصيرين : مصيره في مجال العقيدة الدينية وهو إلى النقصان ، ومصيره في مجال العبارة المحارية وهو إلى الزيادة ، وعلى الناظر في العبارات والأساليب أن يطيل النظر في هذا المصير الأخير أليس فيه الحجة الدامغة لبلاغة الوجدان على بلاغة العقل واللسان؟ أليست هذه اللفظة الوحيدة : لفظة الشيطان بلاغة وحدانية تتقصر عن مداها في التعبير كل عبارة تجريها اللغة مجرى الفكر واللفظ المركب المفيد .

من الذين رادو في عدد الشياطين المجازية من كتاب العصر الحاصر تولستوى

حكيم الروم الكبير فقد أضاف إلى عددهم شيطان الكسرياء العنصرية وشيطان التعصب الديني وشيطان الاستعمار وشيطان الحرب والاستداد .

ومن الذين زادوا في عددهم إلى الملايين برتراند رسل فيلسوف الرياضة المعروف . . . فإن شيطانه الذي أقامه في الضواحي رجل كان طفلاً يتيمًا تركه أبوه بروحة مكيرة ، تحسسه في الدار يهلك جوعًا وعريًا وتذهب لتسكر وتعربد في الطريق ، فإذا شكوا إليها الطفل اليتيم إدارج إلى المنزل آخر الدبل صرته حتى يصيح ثم صرته حتى يسكت عن الصياح ، فكر في الدنيا وهو يجهل أباه ويحقد على أمه أولى الناس بعطفه عليه لو استقامت الدنيا على السواء ، وقل ما شئت فيمن يحقد عليهم غير أمه من خلق الله . . . فهم كل خلق الله! وفيهم الملايين من أمثاله الخاقدين على كل مخلوق .

ومن الذين زادوا عددهم الكاتبة الإنجليزية المعروفة ماري ماريللي ، وشيطان عندها في قصة أحزان الشيطان يشبه أن يكون صورة الخير مظلومًا من قفاه لا من وجهه وسائرًا إلى وراء بدلا من مسيره إلى الأمام .

ومن الذين زادوا في عددهم سليل بيت العلم بين الإنجليز الدوس هكسلي كاتب القصة والمقال وأديب العناء وعالم الأدباء ، فإنه "تخذ" سيدي « شيطان القرون الأولى فسح منه ألوان السح بين آدميين وجعل هذا العصر أحق به من عصور الساك والرهبان الذين رهوه في وصح النهار . . . إذ كان من بلواه أنه لا نعشاهم مع الظلام بل بطرق عليهم قلوبهم في وهج الطهيرة ومع شمس الصحراء التي يهرب منها الإنس والجان .

كان «اسيدي» هذ شيطان الحلم في اليقظة الذي سلطه إبيس على رهبان الصعيد في عصور المسيحية الأولى ، وكان من دأبه أن يلهيهم عن العادة عما يزخره لهم من الأحلام والرؤى وهم مفتوحو العيون مستسلمون بلسكون في طلال الصومع بين بيران القبط في الصحراء فإذا حلموا كسلوا وإذا كسلوا شكوا وإذا شكوا آل بهم الشك إلى السامة والملل وكرهة الدنيا والأخرة واليأس من الصحيح والباطل على السوء .

وبنقله الكاتب من القرون الأولى إلى القرن التاسع عشر ثم إلى القرن العشرين ، ويقول في تفسير بقته «إننا لا نرغم أن اسيدي من مخترعات القرن التاسع عشر» .

فإن السامة والخبيثة واليأس وجدت قديماً ولم تقطع عن الوجود ، وابتلى الناس بالأمها فما مضى كما نبتلى بها الآن . غير أنها في العصر الحديث قد طرأ عليها ما يجعلها موفرة مرعية ولا يجعلها كما كانت حطيئة محظورة أو يجعلها مجرد عرص من أعراض السقم . وهذا الذي طرأ عليها إنما هو التاريخ كله منذ سنة ١٧٨٩ . إنما هو إحقاق الثورة الفرنسية وذلك الإحقاق الذي يربى عليه في الصحيح والأبهة وهو سقوط نابليون . لقد غرس كلاهما «امسدي» في قلب كل فتى من الفرنسيين وعبير الفرنسيين ، صدق دعوة الحرية وطمح إلى أحلام المجد والعبقرية ، ثم حارب الصاعقة الكبرى بما تراكم معها من القدر والبؤس والمال الحرام ، وكان مسح الطوائع على يد هذه الصاعقة حسب القلب الكريم من محبة الحزن والأسى ، وأطلع الناس فرأوا أن الحرية الدستورية التي طلد كفحوا من أحلب عث لا يغنى شيئاً مع طغيان الآلات وستمادها لدموس ، فكان ذلك رعباً آخر من ضرور الرعب التي حيث الآمال في القرن العشرين . ويريد عليها من دواعي السامة دع أدق وأعلب بما عدا وهو تعاطم الدن وراء كل مقدر معقول . فتعود الناس المقام بها وأحسوا في البعد عنها تصهة لا تطاق ، وأطلقت البلوى عليهم فأحسوا من ضوصاء المدينة حنسا إلى سامة الرفض . وكأنما كانت هذه المصحرات في انتظار تاح يعلوها فتوحها اخرب العاية الأولى .

يرعى بالكتابة عن شيطان العقيدة الدسية أناس من طقة هؤلاء الكتاب الذين اتحدوا من اسم الشيطان تعبيراً محارباً عن مساوئ العصر وشروبه وأداسه ، وربما كتب المؤلف الواحد عن هذا الشيطان وذاك لشيطان كف فعل هكسلى فيما ألمنا به من كتاباته أنما وفي كتابه الذي ألفه عن شياطين لودن The Devils of Loudun ومن قرأ هذا الكتاب علم أن هكسلى قد أرد أن يكشف عن خبيثة من سوء في هذا الإنسان الذي بلعن الشيطان ثم يهبط إلى ما لم يهبط إليه أحبث الشياطين .

والقصة التي حققها الكاتب من مراجعتها التاريخية إحدى لمكيات المصحكات من مأسى التاريخ التي جعلت بها صفحاته في الفرون الوسطى ، وكان فيها مظلومان مكذوب عليهما كذناً لا يحفى على أحد في الرمن الحديث ، وهما الشيطان ورجل من رجال الدين مخصوب عليه .

وقد بدأت القصة بإصابة بعض الراهبات في بلدة لودن بالصرع وانهامهن بالتجديف والبداء والتفوه في نوبات المرض بكلام يحجلن منه كلما أعيد عليهن شيء من التدمير وهن مصيقات ، ولو حدثت هذه الإصابة في العصر الحاضر لاستطاع رجل الدين كما يستطيع رجل الدنيا أن يفهم أنهم مصابات «بالهستيريا» أو الفصام الذي تنقسم فيه شخصية المريض ، ولكن الرئيس الذي بولى البحث في أمرهن لم يستطع أن يفهم من بذائهن في خلال النوبة وحجلهن بعد الإفقة منها إلا أن المتكلم بالبداء أحد غيرهن يهمة أن يعث ببراءة الراهبات انتقاماً من الله وعاصدته وعانديه ، ومن يكون هذا المنتقم القادر على صرع فرائسه غير الشيطان!

وسححت الفرصة لانهام الرجل المظلوم مع الشيطان وهو الأسقف «حراندييه» عدو الكرديال ريشييه ذي الحول والطول في بلاط باريس ، فاتهم بالفسوق وتسليط الشيطان على الراهبات للتقرير بهن ، وصدقت إحدى أنها مريسة الشيطان بإعراء الأسقف الساحر ، فرمته بالتهمة كما أوحى إليها ، وقرر المحققون أنهم سمعوا عثراف الشيطان وهو يتكلم بلسان تلك المريسة ، فتقررت إدانة الأسقف شهادة الشيطان! وحكم عليه بالإحرق وهو بقيد الحياة

ولا قيل لهم إن الشيطان أبو الأكاذيب لم يعسر عليهم أن يبطلوا هذه الشهادة باضطرار الشيطان إلى الصديق بين يدي أصحاب العريضة والمرهان من المحققين الصالحين

وتشكى السحرية مع الصديقة حناً إلى جنب في هذه المهزلة الشيطانية ، فيحدث في بعض محاصر التحقيق أن يقول الشيطان إن السيد لومردمان رئيس لجنة التحقيق ديوث تخونه امرأته مع الأسقف وعيره ، ويكون لومردمان عائباً عن الجلسة ولا ينتفت إلى قراءته عند توقيعه فيصع عليه اسمه بعد السطر المعهود الذي يقرر فيه اعتماد الصديق في كل ما جاء فيه ، ويضحك ولالة الأمر ملء أفواههم ساعة يعرض المحصر عليهم ، ولكن رئيس اللجنة يعود إلى التحقيق لتسحر ذلك الشيطان نفسه في تمنيق الكرديال وبعثت المحضر المحفوظ بتاريخ (٢٠ مايو سنة ١٦٣٤) سائلاً . ما قولك في الكرديال العظيم حامى الديار الفرنسية؟ فيجيبه الشيطان مقسماً باسم الله : إنه سوط عذب على أصدقائي أجمعين . . ويعود الرئيس سائلاً : ومن هم أصدقائك؟ فيقول الشيطان : إنهم رمرة الهراطقة . . ويسأله

الرئيس . وما مآثره الأخرى؟ فيجيبه الشيطان أنها هي إنقاذته للشعب وقدرته على الحكم هبة من الله وحرصه على سلام المسيحية وولاؤه للملك لويس .

وبعد العناء المضى في جمع هذه الأوراق والمضاهاة بين التحقيقات يخرج الكاتب منها إلى سحرة العصر الحاضر الذين يسخرون أعنف شياطينه وهو شيطان الجماعة المستفزة إلى الشر والعدوان باسم المذاهب أو الأوطان ، فما تصنعه النازية حين تثور على أعداء الحس الأرى انظهر ، وما تصنعه الفاشية حين تثور على أعداء المجد الرومانى العريق ، وما تصنعه الشيوعية حين تثور على أصحاب الأموال الأوعاد - كل أولئك ثورة لا تتورع عن اتهام الأبرياء وإحراق الأحياء ، والهبوط إلى الهاوية فى أهبة الصعود إلى السماء .

ومن أمفكرين الدين لهم خطر فى كل بحث يدور على العقيدة والتفكير العصرى كاتبان عالميان هما الدكتور لويس صاحب كتاب المعجزات وكتاب مسألة الشر وكتاب ما وراء الشخصية وغيرها من الكتب فى موضوعات الفلسفة الدينية ، ويعتبرونه فيلسوف المذهب البروتستانتى فى العصر الحاضر ، والكاتب الآخر حيوفانى نايسى صاحب كتاب حبة المسح وأديب المذهب الكاثوليكى المرضى عنه بين المجددين وبين فريق غير صغير من المحافظين

ألف الدكتور لويس رسائل الشيطان وجعلها على لسان أستاذ من الشياطين يعلم تلميذه أساليب الفتنة والدسيسة وإقصاء نبي آدم عن حظيرة الرضوان ، ومعظم هذه الأساليب نفسية يرى العلماء النفسانيون مع المؤلف أنها بواعث شر وجهن فى الطسعة الإنسانية ، ويرى العلماء الدينيون معه أنها مداحن الشيطان إلى سريرة لإنسان فيقول الشيطان الأستاذ - مثلاً - لتلميذه أنه خليف أن يتسبه إلى خطأ حسم يقع فيه ناشئة الشياطين وهو اعتقادهم أن السرور حسالة الشيطان . إذ الحقيقة أن الإنسان باق فى الخطيئة الإلهية ما بقى فى نفسه موضع للسرور ، وعلى الشيطان أن يفرق بين السرور على أنواعه وبين السرور المصطنع الذى يلحق باللغو والتفريج ، وينه الأستاذ تلميذه إلى الإقلال من العناية بإغواء المتدينين الذين تساورهم الشكوك من حراء الحروب والتكبات فإن المتدين الذى لا تصمد عقيدته لهذه الشدائد عنى عن الإغواء ولا حاجة بالشيطان إلى فرط العناية بإغوائه ، وعلى

الشیطان التلعید ألا ییأس من أصحاب الفصائل الذین یعلمون مضائلهم ویفحرون بها مع أنفسهم ومع غیرهم ، فإنها فصائل على مقربة من الرذائل الشیطانية قد تعمل عمل الرذيلة وهی فی عفوایها ، ولیس من عمل الشیطان أن یشیر إل الحاد ؛ لأن الذی ینکر وجود الله ینکر وجود الشیطان ، وإنما عمله أن یصرف المؤمن بالله عن الأمل والعبادة ورؤیه المحاسن والمعجزات فی حلائفه ومقادیره ، وأقوی الحائل فی رأى الأستاذ الشیطان أن یفصل الإنسان من حاصره ویقل على لستفیع بحمله ، فإن القفل على المسقف مقطوع عن الحاضر وماضی متعلق بالأباطیل ودواعی القوط والكراهية ، وعلى الشیطان الشئ أن یذكر أن الكراهية هی المهمة فی المذهب «المتقية» دون عناوینها ودعاویها ، فلا فرق بین الشیوعية والعاشية والإباحية على اختلافها ما بقيت نفس الإنسان خلواً من الحب مصعصة بالنقمة والعصاة ، وأفة الآفات الكبرى على الدوام أن یصبح الكون فی نظر الإنسان صفراً من العجائب وشئیتاً متشابهة من المألوفات والمتكررات ولولا صیق نظریسور عقل المؤلف أحياناً کما نظر إلى عقيدة غیر عقیدته لكان تفكيره فی هذه الأمور مطابقاً لتفكير المتدین فی كل دین

والکاتب الکاثولیکى جیوونى نابیى يؤلف الکتاب عن الشیطان ويرید أن یطبق فصیبة السماحة على هذا العدو المیر فی جمعة الأعداء الذین تشملهم رحمة الله ، ويرى أن الله لا یرضیه دوام الشر ولا دوام السقوط على کاش من الکائنات العاقبة ، فلا ید فی نهاية التجربة الکونية من حیاة لا شر فیها ولا شیطان . وروال الشیطان إنما یكون برول شره وارتدادته عنه إلى الحصر والصلاح .

ورؤیه هذا مخالف لأراء الأكثرین من أقطاب المذهب ، ولكنه لم یباع من مخالفة أن یعرضه للطرد والحرمان ، فإن آراءه الأخرى فی الکتاب تحسب له إذا حسب هذا الرأى علیه ، وفيها شرح للعقائد الدبسة وتقصح للمذبح الشیطانية یحمده له المعتقدون ویقعون به من الکاتب فی زمن یقل فیة أمثاله من الکتاب العائین الذین یعلنون عقائدهم فی غیر مسألة بسحرية المسکین والملحدین .

تلت زبدة مفيدة لما یسمى (بالدمولوجى) Demonology أو مباحث الباحثین عن الشیطان فی العقيدة الدبسة وهی التعمیرات المجارية فی القرن العشرين

والمتدينون يؤمنون بوجود الشخصية الشيطانية فعلا ويحصرونها في أصيق حدودها ولا يبوثنونها من السلطان على النفس الشريرة تلك المنزلة التي كانت لها في عهائد الأولين إلى ما بعد القرون الوسطى .

والمعبرون ، مخازيون قريبان : فريق يلغى الشخصية الشيطانية تة ويحل محلها عوامل الوعي الباطن التي يسميها الغريزة أو المكبت أو العقد النفسية أو علل الشخصية السقيمة وما شاكل هذه الأسماء . وهذا الفريق مسسوق إلى رأيه في حملته دون تفصيله . . فقد ذهبت هذه المذهب فئة من المعتزلة ترى أن الشيطان هو مساوس النفس ودوافع الشهوة والطمع والغضب والخديعة ، وتستند في رأيها إلى قول النسي عليه السلام «إن الشيطان ليحجرى من ابن آدم مجرى الدم في العروق» ، وليس هذا التأويل عند حمهرة المحدثين بالتأويل المقبول .

والفريق الآخر على رأي هكسلى الذى تقدم ذكره ، وهو أن العقل والعلم لا يمتعان وجود الشيطان كما جاء في الفصل السابع من كتابه عن شياطين لودن حيث يقول «هل توحد الشياطين؟ وإب كانت توجد فهل كانت حاضرة في حسد الأخت حين ورميلاتها الراهبات؟ فأما المس انشيطانى فليست رى في القول به سخفا أصيلا ولا أحد شيء من التناقض في فكرة ترى إمكان وجود الأرواح غير الإنسانية طيها وحيثها أو لا طيبة ولا حيث فيها ، وليس ثمة ما يضطربا إلى القول بأن الملكة الفاهمة بمتعة فيما عدا أحسام لإسان والحيون ، وإذا قبل الشواهد على الكشف والطر العبد - وهى شوهه يكاد القول برفضها أن يتعدر عليه - فلاند من لإيمان بعوامل معكرة مستقلة على لأعب الأعم عن المكان والزمان والمادة . .»

وهذه هى ردة «الدمنولوجى» فى صفحتها الأخيرة من آراء المتدينين والمفكرين فى القرن العشرين .

خاتمة

تمت في هذه الصفحات رسالة موجزة في موضوع من موضوعات المقارنة بين الأدبان والعقائد يدور حول تصوير «قوة الشر» من عهد القائل البدائية إلى منتصف القرن العشرين .

ولمقارنة بين الأدبان والعقائد علم حديث من علوم القرن التاسع عشر ، بدأ البحث فيه قبل ختامه وانتصف القرن العشرون ولا تزال الكشوف الأخيرة فيه تتوالى ويسع بعضها بعضاً أو يشير بانتظار النهاية بعد خطوات لم تشرح أوائل الطريق ، وكما تعجل الباحث الفرغ من دور الجمع والنسب والتأنيح المعلقة على البقية المستظرة بادرته الكشوف الحديثة مما ينقض حكمه أو يضطر إلى تعديله على ترقب وتؤدة واستعداد .

ونحن نختم هذه الرسالة ، والأجزاء الأخيرة من موسوعة أرنولد توينبي Arnold Toynbee تصدرها المطبعة من المجلد السابع إلى المجلد العاشر ، وفي نهاية الجزء السابع منها تعقيب على الظاهرة الغامضة التي كشفت عن التشابه القريب بين عقائد القبائل البدائية في القارات الخمس وانقسام المفسرين لهذه الظاهرة إلى فريقين فريق يرى أن الإنسان تلقى إلهاماً بالوحداية قبل التاريخ وقبل افتراق الأحاسس والمقارنات ، وفريق يرى أن الطبيعة الإنسانية تتقارب في وحى البدية وتستلهم شعوراً واحداً مما وراء المادة المشهودة ، وسيسمى زمي طویل قبل أن تسجد بين الفريقين : لأن لأرض واسعة والقائل البدائية معثرة على أرجائها ، ومسائل العقيدة عندها من أسرارها التي تخفيها ، وما تجلوه منها اضطراباً أو احتياراً يتيه فيه السائحون بين حرية اللعبة وغرابة الرموز .

فمن الغرابة السالعة أن يقول قائل عن موضوع من موضوعات المقارنة من الأدبان أنه شيء عتيق مصى أو انه ، على حين تصاق الألفول من علماء المقارنة وقرئها

على ابتدائها في خطواتها الأولى وانتهائها فيما انتهت إليه إلى نتائج معقدة من الترحيح والتردد ولا انتظار .

ولا نحال أن السريرة الإنسانية تكشف عن أعماقها بعلم من العلوم كهذا العلم وعلم الدراسات النفسية ، وهو كذلك في خطواته الأولى أو على أبواب النتائج التي لا تمتح إلا بين التردد ولا انتظار .

لكن الفائدة المكرة التي خلصت للعقل الإنسانى من بواكير البحث فى العلمين أن مقاييس الحقائق تختلف وتتعدد ، وأن الحقائق كلها لا تقاس بأرقام الحساب وأدابق المعامل وتجارب الطبيعيين ومناظير الفلكيين .

فها هنا حشد من العقائد والأحيلة تمتلئ به سيرة النوع الإنسانى فى نحو مائة قرن يدركها التاريخ .

ما هى فى أرقام الحساب أو أدابق المعامل أو تجارب الطبيعة أو مناظير الفلكيين؟ سهل على أدعياء العلم أن يصرفوها بكلمتين : حديث خرافة!

وحديث الخرافة يجب أن يلغى ، فتعالوا نعه ونعهد بأدعياء العلم جميعاً أن يبدأوا بالنوع الإنسانى فى تعلم الخير والشر والقداسة واللعنة على برنامج غير هذا البرنامج وتربية غير هذه التربية

وليتسلم أدعياء العلم هذا النوع الإنسانى قبل مائة قرن ، وليأخذوا فى تعليمه الأبجدية من هذه الدروس

ولنعرض أولاً فرصاً مستحيلاً وهو أنهم سيكونون قبل مائة قرن على معرفة بما يسمونه اليوم خرافة وما يسمونه تحقيقاً وما يسمونه دراسة منطقية أو عمية

وليبداً النوع الإنسانى فى هذه المدرسة بفلسفات الأخلاق على مذاهبها وفروضها واحتمالاتها وردودها ومناقشاتها .

وليحفظ فلسفات الأكاديمية كلها ويتحرج عليها .

ولقد حفظها ولقد تخرج منها بما شاء له أدعياء العلم من آراء .

ولقد وصلنا بعد الرحلة الطويلة إلى القرن العشرين فماذا نقول؟

نقول إن هذا فى الحق هو حديث الخرافة الذى لا يعدو الألفاظ والعساوين وأسماء المدارس والمريدين .

لكن النوع الإنسانى ترك هذه الأكاديمية قبل مائة قرن وأمعن فى طريقه اندى
هده إليه العلم وأعدته له المفطرة .

ونتيجة هذا الطريق أنه أعطى الحياة الناضجة لكل خلق من أخلاق الخير والشر
والقداسة واللعنة ، وإن أعلم العلماء اليوم لا يستطيع أن يقيم من الفوارق الحية
والمحسوسة بين خنق وخنق فارقاً واحداً كالمارق الذى نفهمه ونحسه وبحياه حين
نتكلم عن الخلائق الإلهية والخلائق المدكية والخلائق الشيطانية أو عما يجمعها من
الخلائق السماوية والخلائق الأرضية والخلائق الجهمية

إن العلماء الذين يستعبرون تعبيراتهم المجازية من هذه المواق لا يفعلون ذلك
لعب بالالفاظ أو نظراً بالتمثيل والتشبيه . . ولكهم يستعبرون ذلك التعبير لأنه
أدل وأوضح وأقوى من كل تعبير يستعبرونه من المدرسة النفعية والمدرسة السلوكية
والمدرسة الانفعالية ومدارس روح الجماعة وتضامس الهيئات والبيئات ، وما إليها من
الفاظ ناصلة ومعدن حائلة وأسماء لم تخلق من مسمياتها شيئاً وهيئات أن تخلقه
ولو تسمت بها مئات القرون . . وعادة ما تلعه أنها تأتى إلى محصور القرون بعد
ررعه وغائه وأستوته وحصده ، فتكتب العاوين على علاته ويبادره ولا تأمن بعد
ذلك أن تصل بين تلك العاوين التى كتبتها بيديها!

فهذه الحقائق الوجدانية والقيم الروحانية لا تقاس بمقياس الأرقام وأدنى المعامل ،
ومن أراد أن يقيسها بهذا المقياس فهو الذى سيخطئ لا محالة ، كما يخطئ كل وضع
لأمر من الأمور فى غير موضعه ، وكل من يقيس شيئاً وهو يجهل كيف يقاس .

على أبا قد نفقه تعدد المقاييس وتعدد القيم دون أن يضطر إلى التوسع فى هذا
الموضوع الشاسع العسير ، موضوع المقارنة بين الأديان .

فالغريزة فى كل رجل وامرأة وفى كل ذكر وأشى من الحيوان تسفه كل من
يعتسف طريق البحث ويسير أعوار الطباع بغير مسبرها .

وهذا حنان الأباء والأمهات نحو وباطل بكل شهادة من شهادات الحس والعقل
وتجارب المعامل ورقيم الحساب ؛ لأن حنان الأباء والأمهات يقول لهم إن طفلهم
دون غيره يساوى كل من عداه من أطفال الأحياء ويفوقهم فى حق البقاء ويجب أن
يزولوا جميعاً إذا وجب أن يزولوا من الدنيا أو يزول هو منها .

وليصرب صاحب القياس الحسابى على هذا احسان بسخط الأحمر ليحرجه من

حيز الحقائق ، ولينظر بعد ذلك أين الحق وأين الباطل بين الرأى فى رأسه وبين
الحنان فى صدر كل والد ووالدة ، من الإنسان والحيوان .

أصواب هذا الحنان أو خطأ؟

أحق ذلك الدين أو باطل؟

إنما الخطأ أو الباطل هو الذى نسقطه ونلغيه ، فها هنا خطأ واحد وباطل واحد ،
وهما الخطأ والباطل فى مقياس صاحب الحساب وصاحب الأنبياء .

وندع الغرائز المحجبة ونقترب من المحسوسات الواضحة المفتوحة للسمع والبصر ،
فنفرض أن مخلوقاً يرى الأشياء كما تكون فى جو الأثير على بعد من الأرض
والجاذبية الأرضية وتتحدث أمامه عن اللون الأحمر واللون الأخضر وعن العناصر
الثقيلة والعناصر الخفيفة وعن المقاطع والكلمات والأصداة والنعيمات ، فماذا عليه
لو صاح بنا : على رسلكم يا هؤلاء اللاغطون . . إن ما تهذرون به لحديث خرافة
وأضغاث أحلام .

إنه لا يكون قد خرج بذلك على سنة العلم وأدعيائه ، وأتينا مع هذا لم نبتعد من
المحسوسات التى يحيط بها العيان وتسمعها الأذان فإذا كانت الطبيعة الإنسانية لا
تدرك هذه المحسوسات إلا بهذه الألوان والأشكال فكيف نطلب من الأديان أن
تخاطب الطبيعة الإنسانية بأسلوب غير أسلوبها وهى تتحدث عن الغيوب الخفية
وعما وراء المادة ووراء الزمان والمكان .

من رام أن يعيب القيم الوجدانية التى دان بها الإنسان منذ جهالته الأولى فهو
- لا ريب - واجد فيها كثيراً مما يعاب ويفرط فى المعابة . لكن السؤال الفصل هنا
لا يكون : هل تعاب القيم الوجدانية أو لا تعاب؟ بل يكون : هل توجد هذه القيم
الوجدانية لإنسان ناقص ينمو ويكبر ، أو توجد لإنسان كامل معصوم من نشأته
الأولى؟ . . إن عقيدة تصلحها عقيدة بعدها كالمعرفة تصلحها معرفة تليها وتقوم
عليها ، لا هذه تسقط العلم ولا تلك .

إننا فرضنا فى مستهل هذه الخاتمة أن أدعياء العلم تسلموا النوع الإنسانى منذ

مائة قرن ليرشدوه إلى طريق غير الطريق الذى اتبعه فى التمييز بين الخير والشر والقداسة واللعنة ، فلندع هذا الفرض البعيد ولنستغن عنه بما بين أيدينا من «الديانات العلمية» التى ارتضاها «الأنبياء العلميون» فى القرنين الأخيرين بعد اختبار العقائد والمذاهب والفراغ من أوهام الخرافات والأساطير ، ولننظر فى الديانة التى سموها الديانة المادية الاقتصادية وقرروا فيها أن احتكار الفلوس هو الذى يخلق الأديان والأفكار ويقوم القيم ويرفع الطبقات ، وأنه إذا جاء الوقت الذى ينفضى فيه احتكار الفلوس زالت الطبقات وخلا المجتمع من السادة أبدًا مرمدًا بغير انتهاء .

ولم يمض على قيام هذه الديانة جيل واحد حتى سمعنا علما من أعلامها يأسف ويأسى ثم يعنى على زملائه أنهم يختارون لإدارة المعامل وتنظيم الحكومة أذنابًا من المقربين إليهم ويقصون عنها قوى الكفاية والغناء فى العلم والعمل والسابقة المذهبية . . ويبقى فى نفوسهم بعد إلغاء الاحتكار باعث يرفع ويضع بغير مقدار إلا أن يكون مقدار الأثرة والإيثار .

وهؤلاء المتدينون «العلميون» هم الذين يصدقون مع هذا أنهم حكموا على المستقبل ورسموا للنوع الإنسانى طريقه فى نظام المجتمع وبواعث الأخلاق أبد الأبدىين ودهر الدهرين أوفقًا من السنين ، لا بل ملايين من القرون بعد ملايين .

وكل ما صدقه عجائز الخرافة من عهد الكهوف إلى ليوم يطير هباء أمام هذه الخرافة التى استقر عليها أدعياء العلم والنبوءات العلمية . . وكفى بهذه المقارنة تعجيزًا لمن يتناول به الغرور فيخال أنه يصحح العقائد بمقاييسه ومقاييس علمه المزعوم .

وسيبقى أناس يتعوذون من إبليس يوم يضحكون من خرافة «المادية الاقتصادية» كيف كانت وكيف جازت على العقول ، ونحن نقول فى أول هذه الرسالة إن ظهور إبليس فى عقائد الناس كان علامة خير لأنه علامة التمييز بين الشر ونقيضه ، فنقول فى ختامها إن بقاءه بعد المادية الاقتصادية علامة خير أخرى ؛ لأن الكون الذى يبقى فيه إبليس ملعونا أشرف من الكون الذى لا يميز بين القداسة واللعنة ولا يعرف شيئًا يلعبه ، إذ كان لا يؤمن بإله غير الفلوس ، وساء ذلك من إله ، وتعالى الله عما يشركون .

عباس محمود العقاد

الفهرس

الموضوع	صفحة
فاتحة خير	٣
قبل الشيطان	٩
أنواع ودرجات فى الحرام والمحظور	٢٠
أنواع الشيطنة	٢٤
أسماء الشيطان الأكبر	٢٨
الحضارة المصرية	٣٣
الحضارة الهندية	٤١
بين النهرين	٤٧
اليونان	٥٤
فى طريق الأديان الكتابية	٦٣
الأديان الكتابية (أ) العبرية	٦٧
الأديان الكتابية (ب) المسيحية	٧٥
الأديان الكتابية (ج) الإسلام	٩٣
عباد الشيطان	١٠٣
حلفاء الشيطان	١١٣
الشيطان والفنون	١٢٣
شياطين الشعراء والكتاب	١٣٥
فى الأدب العربى	١٤٧
فى العصر الحاضر	١٥٦
خاتمة	١٦٤

